فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

457

كانون الثاني 2026

مقالات

جاسم الحلفي

إسماعيل نوري الربيعي

نوري حمدان

رزكار عقراوي

مصباح كمال

ثامر الصفار

نصوص قديمة

كامل شياع

نصوص مترجمة

كان كانجا

كاترين روبرت

حوارات

حوار مع الفنان فلاح العاني

أدب وفن

حسب الله يحيى

نادية هناوي

علاء حمد

رنا صباح خليل

صادق الطائي

عبد الله البصري

علي المسعودي

أميرة ناجي

يوسف رشيد

عمار كشيش

عادل الياسري

طالب كاظم

محمد صبّي الخالدي

بهاء محمود علوان

كامل عويد العامري

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل
جواد الزيدي
رضا الظاهر
علي إبراهيم
كاوة محمود
مظهر محمد صالح
هادي عزيز علي

هيئة التحرير

زهير الجزائري
هاشم نعمة
سوران قحطان
حسب الله يحيى
محرر "أدب وفن"

العدد 457

كانون الثاني 2026

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: althakafaaljadeda@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
ايميلات باب أدب وفن : althakafaaljadeda@yahoo.com
hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

- أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
- ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
- باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
- وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
- ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
- ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
- يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
- بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
- بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، عنوان الكتاب، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
- بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مقالات

8 - من صندوق الاقتراع إلى مراكز النفوذ: كيف تُعاد هندسة السلطة؟.....جاسم الحلفي
21 - نحو يسارٍ يستعيد زمام المبادرة.....إسماعيل نوري الربيعي
28 - البرلمان... 20 عاماً من المحاصصة.....نوري حمدان
34 - الذكاء الاصطناعي بين سطوة رأس المال وإمكانات التحرر.....رزكار عقراوي
45 - تصورات سريعة حول الحرب على غزة والتأمين.....مصباح كمال
52 - اشتراكية ماركس الإيكولوجية
رأس المال، الطبيعة، والنقد غير المكتمل للاقتصاد السياسي.....ثامر الصفار

نصوص قديمة

63 - النص والتاريخ إذ يلتقيان .....كامل شياع

نصوص مترجمة

69 - ماركس وإنجلز متعددي اللغات...كان كانجا .....ترجمة: سعدي عواد السعدي
80 - الأنثروبولوجيا للجميع:
من الأسطورة إلى الحقيقة...كاترين روبرت.....ترجمة:علي كريم

حوارات

88 - الثقافة الجديدة تحاور الفنان فلاح العاني.....حاوره: زهير الجزائري

93 - العراق الثقافي الراهن.....حسب الله يحيى
94 - وداعا ناجح المعموري.....هيئة التحرير
95 - وداعا ايها الفنان الملتزم.....زهير الجزائري
96 - ادمون ولسون: من قلعة أَكْسَل إلى سجلَّات التَّأريخ.....نادية هناوي
101 - الرمزية والأثر الخيالي في نصوص الشاعر العراقي رشدي العامل..... علاء حمد
107 - الاجندات السياسية ودورها في رواية (توائم الرجل المسيب)..... رنا صباح خليل
111 - في رواية (الزعيم : خرائط وأسلحة)
جماليات التخييل وحدود الدقة التاريخية.....صادق الطائي
118 - بروكنر ونمائيته في البناء السيمفوني.....عبد الله البصري
122 - "الطموح العظيم":
سيرة السياسي الذي جعل ثلث الإيطاليين يصوتون للشيوعيين.....علي المسعودي
127 - التشكيل العراقي...
ذاكرةٌ تُشرق من الطين وتكتب زمنها على جدار العالم.....أميرة ناجي
130 - هاملت في المدينة.....يوسف رشيد
133 - لَوْحَةُ مُحَمَّدٍ مَهْرِ الدِّينِ الْمَفْقُودَةِ.....عمار كشيش
135 - الوَرْدُ وسابعةُ النهارِ..... عادل الياسري
137 - جنود جاوت.....طالب كاظم
144 - (تماثيل) الأستاذ حميد حسن جعفر.....محمد صبّي الخالدي
148 - سرديات النص عند الكاتبة السويسرية إيريكا بيدريتي.....بهاء محمود علوان
151 - القسوة في "القط الأسود" أدغار آلان بو..
كتابة: باتريك ليموان و صوفي فيجييه - فانسون..... ترجمة: كامل عويدالعامري

غلافا العدد: من اعمال الفنان مكي حسين

التدقيق اللغوي: مصطفـــى عبـــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العـتابي

كلمة العدد

استعصاء الأزمات البنيوية
في ظل نهج المحاصصة الطائفية-الإثنية

يعيش العراق أزمات بنيوية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية منذ عقود، ولكن اللافت أن هذه الأزمات تولّد أزمات أخرى مركبة ومتشابكة مع مرور الوقت، لأن الأوضاع في جانبيها الموضوعي والذاتي التي تنتج الأزمات وتغذيها مازالت قائمة بل تتفاقم مع الوقت. فإذا أخذنا الانتخابات الأخيرة مثلا، والتي سلطنا الضوء على آليات أجرائها المختلة في العدد السابق، وبعد أن أعلنت النتائج دخلت الأحزاب والكتل المتنفذة في مساومات فئوية ضيقة وانانية استنادا إلى نهج المحاصصة الطائفية-الإثنية، بل وصل الأمر إلى حد التنافس الحاد داخل الكتل الرئيسة نفسها من أجل التوصل -في الظاهر- إلى اتفاقات بشأن الاستحقاقات الدستورية التي تلي الانتخابات، والتي جرى التجاوز على توقيتاتها، والمتمثلة على نحو رئيس بانتخاب الرئاسات الثلاث: رئيس مجلس النواب ورئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء. وعلى الرغم من أن الرئاسة الأولى قد حسمت وفق نهج الصفقات نفسه، لكن بدأ الوقت يضيق بالنسبة لباقي الاستحقاقات. ما يجري في واقع الأمر، هو اقتسام للدولة ومواقعها ومواردها على جميع الصُعد بعيدا عن مصالح الشعب والوطن، بعد إن تحولت إلى غنيمة سهلة، في ظل استشراء الفساد المالي والإداري الذي يُغذيه نهج المحاصصة المقيت. هذا التنافس والمساومات ليس لها علاقة لا من قريب أو بعيد بالبرامج التي يفترض أن تنفذ بعد دورة الانتخابات الجديدة، حيث أن الانتخابات نفسها جرى خوضها دون الالتفات إلى أي برامج تتبناها الأحزاب والكتل المتنفذة، إن كانت لها برامج أصلا عدا عناوينها المكوناتية. في حين نرى في الديمقراطيات الراسخة، وفي البلدان التي يقوم نظامها السياسي على تشكيل الائتلافات الحاكمة التي تفرزها الانتخابات، قد يطول تشكيل الحكومات، لكن الفارق أن سبب هذا التأخير يعود إلى المفاوضات التي تجري بين الأحزاب المؤلفة في الحكومة للاتفاق على البرامج السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي سيجري تنفيذها لا لاقتسام منافع الدولة وموقعها وتحويلها إلى اقطاعيات تابعة للأحزاب. إن ما يجري في العراق على هذه الشاكلة من إعادة إنتاج المنظومة الحاكمة لنفسها وتزويقها بالشرعية الانتخابية لم تكن آلياتها شأنا داخليا بحتا، بل أن هذه الأحزاب والكتل المتنفذة على اختلافها تتلقى الدعم الإقليمي والدولي، لتشابك مصالحها مع هذين البعدين، وهذا ما اضعف من سيادة البلاد واستقلالها إلى حد كبير. وعلى هذه القوى أن تنتبه إلى الاحتجاجات المطلبية الأخيرة في أيران والتي أقرت السلطات بعدالتها، وأن تعرف أن أي نظام يغفل مطالب شعبه سيواجه الحساب لا محالة.

ومثال آخر مهم وحساس يتعلق بمعيشة المواطنين، إذ نرى تكرر تأخر صرف الرواتب وإعانات الرعاية الاجتماعية، دون التفكير مليا أن قطاعات واسعة من المواطنين تعتمد على هذه الرواتب في الأساس وتأخيرها يعني خلق العوز وتدني المستويات المعيشية. ونتيجة الضائقة المالية التي تمر بها الدولة والتي هي بالأساس نتاج لسوء التخطيط الاقتصادي والمالي المدروس، نرى حكومة تصريف

الأعمال تلجأ في آخر عمرها لتبنى توجهات لتقليص الانفاق العام ومراجعة سلم رواتب الرئاسات الثلاث. هذه التوجهات غير الجادة ليس من المؤكد أنه سيجري تنفيذها من قبل الحكومة الجديدة، إذا ما عرفنا أن الحكومة الحالية نفسها لم تنفذ أجزاء مهمة من برنامجها الحكومي الذي أقره مجلس النواب.

لحظة وعي كاشفة للتيار المدني الديمقراطي

ما افرزته الانتخابات الأخيرة من عدم حصول التيار المدني الديمقراطي لأول مرة على مقاعد برلمانية تتناسب مع تاريخه وبرامجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، واصطفافه الدائم إلى جانب الجماهير الكادحة وشغيلة اليد والفكر والتعبير عن مصالحها إلى جانب عمق تجربته النضالية منذ تأسيس الدولة العراقية إلى الوقت الحاضر، يمثّل لحظة وعي كاشفة تستدعي مراجعة جذرية لأساليب عمل هذا التيار وبرامجه وشعاراته والتي على الرغم من صدقها، لكنها على ما يبدو لا تصل إلى الجماهير في مناحي حياتها ولا تتلمسها، وكأن ثمة هوة بينها وبين قوى التيار. دون أن نغفل في التحليل التحولات الاجتماعية والدينية والطائفية والثقافية التي حدثت في المجتمع العراقي في العقود الماضية، نتيجة سياسات النظام الدكتاتوري السابق وحروبه العبثية التي انتهت باحتلال العراق عام 2003 وزرع ديمقراطية مشوهة، وعمل الأحزاب والكتل التي حكمت بعد ذلك التاريخ على تسيّس المكونات الدينية والمذهبية والإثنية لكي تضمن مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الضيقة وتحكم باسم "تمثيل المكونات". وبما أن المنظومة الحاكمة باتت تجيد انتاج نفسها عبر الانتخابات من خلال علاقاتها الزبائنية النفعية مع جمهورها، وتتصدى لأي محاولة لإصلاح النظام؛ لذا بات المعول الأساس للتغيير هو ممارسة الضغط من خارج هذه المنظومة، بواسطة الاحتجاجات والاعتصامات والإضرابات السلمية والتي قد تتطور إلى انتفاضات في منعطفات معينة، وإجادة استخدام الاعلام خصوصا الرقمي منه لتوعية الجماهير بأسباب معاناتها وبأساليب النضال المناسبة لأخذ حقوقها المستحقة. وهذا يتطلب أكثر من أي وقت مضى اتفاق سياسي عريض يمثّل المشتركات بين جميع الفعاليات المدنية والديمقراطية والشعبية لخوض النضال السياسي والفكري القائم على برنامج ملموس يسهل وصوله إلى الجماهير وتعبئتها لتغيير معادلة الحكم الحالية، ولبناء دولة مدنية ديمقراطية، دولة المواطنة والعدالة الاجتماعية التي تمثّل تطلعات جميع المواطنين.

قرصنة أمريكية جديدة أكثر عدوانية

أقدمت الولايات المتحدة فجر 3 كانون الثاني 2026، على عدوان جديد يتنافى كليا مع القانون الدولي الذي يقر بسيادة الدول واستقلالها ويمنع انتهاكها، وذلك بمهاجمة فنزويلا عسكريا واختطاف رئيسها مادورو وزوجته، تحت ذرائع واهية، ولكن بنية صريحة للسيطرة على احتياطيات النفط الضخمة وموارد البلاد الأخرى. هذا العدوان يمثل مرحلة جديدة في جهود الولايات المتحدة المستمرة لإخضاع الدول المستقلة التي لا تتماشى سياساتها الاقتصادية خصوصا مع الشركات الاحتكارية الأمريكية. وقد جوبه بالإدانة على مستوى العالم ويتطلب مزيدا من العمل لحشد الجهود العالمية على المستوى الرسمي والشعبي لمعاقبة الولايات المتحدة على فعلها المشين هذا، كي لا يتكرر.

مقالات

من صندوق الاقتراع إلى مراكز النفوذ: كيف تعاد هندسة السلطة؟

د. جاسم الحلفي

جرت انتخابات مجلس النواب العراقي في 11 /11/ 2025 ضمن سياق مأزوم، يتسم بتراجع الثقة الشعبية واتساع الفجوة بين المجتمع ومنظومة حكم أعادت إنتاج نفسها منذ عام 2003، وتراكم الأزمات المعيشية، حيث (ان الوضع في بلادنا ومنذ 9 /4/ 2003 ما زال معقداً، وتتفاعل فيه جملة عمليات في آن واحد لتضفي على الحالة العراقية خصوصية يجب الإحاطة بها عند التحليل وتجنب الصيغ الاختزالية والتبسيطية)[1]. برغم تقديم الانتخابات بوصفها آلية دستورية لتجديد الشرعية، فإن معطياتها تطرح أسئلة تتجاوز النزاهة الإجرائية إلى وظيفة الانتخابات نفسها داخل النظام السياسي. ولا ينطلق هذا التحليل من فرضية التزوير التقني، بل من افتراض أن الإشكال بنيوي، مرتبط بكيفية إدارة العملية الانتخابية ووظيفتها السياسية: هل ما تزال أداة لتمثيل الإرادة الشعبية، أم تحولت إلى آلية لإعادة تدوير النفوذ ومنح شرعية شكلية لمنظومة مأزومة؟ وتزداد أهمية هذا السؤال إذا ما وُضع ضمن الإطار المقارن لتجارب الديمقراطيات الناشئة، حيث تُظهر الخبرة التاريخية أن الانتخابات، في سياقات التحول غير المكتمل، كثيراً ما تفشل في إنتاج تمثيل فعلي، حيث إن (الكثير من الديمقراطيات الناشئة ''حديثة الظهور'' كانت فاشلة، او شبه فاشلة، او محدودة النجاح. وهنا نجد ان لأغلب الدول النامية سجلاً سيئاً مثلها مثل القليل من دول وسط اوروبا. اما الشرق الأوسط فهو اشد قتامة[2].

أعقبت الانتخابات اعتقالات، ولا سيما في الناصرية، رافقها انتهاكات دستورية، كما ورد في بيان حزب ''البيت الوطني'' بتاريخ 3 /12/ 2025، الذي ناشد (جميع الفعاليات السياسية والمدنية والحقوقية بالوقوف معنا لمعرفة مصير غانم جواد، عضو مكتب ذي قار الذي حوكم بمادة

198، المتعلقة بأمن الدولة وممتلكاتها)[3].

تحولات السلوك الانتخابي

لم يعد السلوك الانتخابي في العراق فعلاً سياسياً معزولاً، بل غدا تعبيراً مركباً عن تحولات بنيوية أصابت المجتمع منذ عام 2003، حيث باتت المشاركة أو المقاطعة أو التصويت العقابي أنماطاً لا تُفهم إلا في سياق اجتماعي مأزوم تشكّل تحت ضغط الفساد، وتفكك الدولة، وتراجع منظومة القيم، واتساع الفجوة الطبقية. وقد أسهمت السياسات الاقتصادية الريعية، المقترنة بفساد مؤسسي، في إنتاج مجتمع منقسم بين أقلية راكمت ثروات هائلة من المال العام، وأكثرية واسعة تعاني التهميش وانعدام الأمان الاقتصادي وتآكل فرص العيش الكريم. و(قد ساهم الاقتصاد الريعي/ بطرق مختلفة، في ظهور أو على الأقل تقوية "الجماعات غير الرسمية" من جهة وفي ظهور الصراعات العنيفة التي تخوضها بعض الجماعات مع الدولة)[4].

لم تبقِ التحولات الاقتصادية والاجتماعية في العراق أثرها محصوراً في المجال المعيشي، بل انعكست مباشرة على الوعي السياسي وعلى علاقة المواطنين بالدولة وآلياتها، وفي مقدمتها الانتخابات. ففي ظل غياب العدالة الاجتماعية وتلاشي مبدأ تكافؤ الفرص، فقدت العملية الانتخابية، لدى شرائح واسعة من المجتمع، معناها بوصفها أداة للتغيير، وأسهم ذلك في إنتاج حالة اغتراب سياسي متزايدة، لم يعد المواطن فيها يرى نفسه شريكاً في القرار العام، بل متلقياً لنتائج تُحسم خارج إرادته، إذ (لا يمكن ان يسود الشعب ما دامت جماهيره امية، ومعدومة، ومبعده عن مراكز القدرة. وما دامت هذه هي حال الجماهير، كما هو الوضع في أمريكا اللاتينية، فان محترفي السياسية يقبضون على ناصية السلطة تحت راية قائد مستبد. ويسكون تسلطهم بغلاف خادع من الانتخابات الديمقراطية)[5].

في هذا السياق، لم تكن العزوف الواسع عن المشاركة الانتخابية سلوكاً سلبياً، انما تعبيرٌ عن قطيعة سياسية متراكمة، تصبح فيها المقاطعة شكلاً واعياً من أشكال الاحتجاج، ولا سيما لدى فئات خبرت الفعل الاحتجاجي سابقاً. وبالتوازي، أعادت التحولات الاجتماعية ـ الاقتصادية تشكيل أنماط التصويت، مع تراجع التصويت البرامجي لصالح الزبائنية والضغوط المعيشية، وتآكل دور الطبقة الوسطى، ما عمّق فقدان الثقة، خاصة بعد الأداء المخيّب لبعض ممثلي انتفاضة تشرين.

وعليه، فإن السلوك الانتخابي في العراق يعكس أزمة بنيوية في العلاقة بين المجتمع والسلطة أكثر مما يعكس أزمة وعي ديمقراطي، حيث يغدو الانسحاب من الانتخابات خياراً عقلانياً ضمن شروط مختلّة. ومن ثمّ، لا يمكن تقييم الانتخابات بمعزل عن سياقها الاجتماعي، لأن أي قراءة تقتصر على إجراءات يوم الاقتراع ستظل قاصرة عن تفسير المقاطعة وحدود المشاركة ودلالات الأرقام المعلنة بوصفها مؤشراً على "الشرعية".

الإطار القانوني والإداري للعملية الانتخابية

لا يمكن فهم العملية الانتخابية في العراق بمعزل عن إطارها القانوني والإداري

الذي لا يعمل كسياق محايد، بل كآلية تحدد مسبقاً طبيعة التمثيل وحدود الفعل السياسي. فالقانون والمفوضية جرى توظيفهما في إعادة إنتاج توازنات السلطة، بحيث جاءت ترجمة المبادئ الدستورية للمشاركة السياسية شكلية، وأُفرغ الحق في التمثيل من مضمونه الفعلي (للمواطنين رجالاً ونساءً، حق المشاركة في الشؤون العامة، والتمتع بالحقوق السياسية بما فيها حق التصويت والانتخاب والترشيح)[6]، أن الترجمة القانونية لهذه المبادئ جاءت محمّلة بقيود بنيوية أفرغت هذا الحق من محتواه العملي. فاعتماد آلية "سانت ليغو المعدّلة" في توزيع المقاعد على وفق أولا من المادة 7 التي تنص (تُقسَّم الأصوات الصحيحة لكل قائمة على الأعداد التسلسلية 1.7، 3، 5، 7، 9، ...إلخ، وبعدد مقاعد الدائرة الانتخابية ويتم اختيار اعلى النواتج حتى استنفاذ جميع مقاعد الدائرة الانتخابية)[7].

وهي آلية لا تعمل بوصفها إجراءً تقنياً محايداً، بل أداة قانونية لإعادة هندسة التمثيل السياسي بما يحدّ من فرص القوائم الصغيرة والمستقلة. وبهذا المعنى، تحوّل القانون من إطار لضمان عدالة التمثيل إلى وسيلة لإقصاء قوى اجتماعية وسياسية لا تمتلك أدوات النفوذ نفسها. (وبما ان النظام الانتخابي يعتبر من صميم صدقية "شرعية" الديمقراطيات الحديثة، فمن الضروري جدا محاولة إنشاء أكبر إجماع ممكن حول النظام المستخدم)[8]. لا يقتصر أثر القانون الانتخابي على النتائج، بل يمتد إلى السلوك الانتخابي نفسه، إذ يدفع إدراك الناخب بأن صوته لقائمة صغيرة سيؤول عملياً إلى القوى الكبرى إلى تراجع الحوافز للمشاركة وترسيخ قناعة بانغلاق العملية، بما يعمّق المقاطعة ويحصر المنافسة داخل دائرة المتنفذين. (تقوم المؤسسات السياسية بتشكيل قواعد اللعب التي تجري ممارسة الديمقراطية في إطارها. وغالبا ما يدور الجدل حول أن النظام الانتخابي، هو المؤسسة السياسية التي يمكن التلاعب بها بسهولة، سواء للأفضل أم للأسوأ، إذ أن اختيار النظام الانتخابي يمكن أن يحدد بفعالية من سيتم انتخابه، والحزب الذي سيفوز بالسلطة، بعد ترجمة الأصوات أثناء الانتخابات العامة إلى مقاعد في الهيئة التشريعية)[9]، وفي موازاة ذلك، ظل استقلال المفوضية العليا للانتخابات محكوماً بسقف المحاصصة، ما قيّد قدرتها على فرض معايير مهنية، وتجلى في احتساب المشاركة عبر استبدال المعيار الدستوري بمعيار إجرائي مخاتل يرفع نسب المشاركة المعلنة ويقلّص المقاطعة الظاهرة. (يحتاج نظام العدالة الانتخابية إلى أن يعمل بكفاءة بالمعنى الفني، كما ينبغي أن يكون فعّالاً، مستقلاً، ونزيهاً. ولا يقتصر دوره على تحقيق العدالة فحسب، بل يمتد ليشمل الشفافية، وسهولة الوصول، والشمولية، وتكافؤ الفرص. ويتعين عليه أيضاً الإبلاغ عن حسن سير عمله، بما يتيح لجميع الأطراف المعنية التحقق من صحته ودقته. فبهذه الطريقة فقط يحقق الغاية الأساسية منه، والمتمثلة بإضفاء المصداقية والشرعية الديمقراطية على الإجراءات الانتخابية ونتائجها)[10]. أخفقت المفوضية في ضمان تكافؤ الفرص، وأسهمت سياساتها في تضخم غير مبرر

لأعداد المراقبين ووكلاء الكيانات، ما حوّل الرقابة من أداة نزاهة إلى وسيلة تعبئة وضغط. ونتيجة تلاقي قانون إقصائي مع إدارة محكومة بالتوازنات السياسية، تشكّلت بيئة انتخابية غير متكافئة حوّلت الانتخابات إلى عملية محسوبة النتائج، بما يجعل أزمة الانتخابات أزمة إطار قانوني وإداري صُمّم أو طُوّع لخدمة تدوير منظومة الحكم.

تفكيك البنية الرقمية ونِسب المشاركة*

تمثّل الأرقام الانتخابية جوهر الصراع على الشرعية، إذ تُعاد من خلالها صياغة العلاقة بين السلطة والمجتمع. فالانتخابات، في جوهرها، عملية حسابية تُترجم سياسياً، تتحول فيها الأعداد إلى تمثيل، والنِّسَب إلى مشروعية، والنتائج إلى سلطة، بحيث إن أي انحراف في إنتاج الأرقام أو تأويلها لا يغيّر النتائج وحدها، بل يغيّر معنى العملية الانتخابية برمّتها. وقد أعلنت المفوضية أن (نسبة المشاركة النهائية في الانتخابات البرلمانية العراقية 56.11%[11]، استناداً إلى طريقة احتساب محل جدل، لا تعكس بدقة مستوى المشاركة الفعلية للمواطنين الذين يحق لهم التصويت دستورياً. فقد احتُسبت هذه النسبة عبر قسمة عدد المقترعين (12,009,453) على عدد الناخبين المسجَّلين بايوميترياً فقط (21,416,335)، وهي معادلة تخالف المعايير الدولية المعتمدة لاحتساب المشاركة الانتخابية، لأنها تستبعد شريحة واسعة من المواطنين الذين يحق لهم التصويت دستورياً. كان الأجدر بالمفوضية اعتماد المعادلة التي اتبعتها شبكات المراقبة العراقية، والتي قامت على قسمة عدد المقترعين (12,009,453) على العدد الكلي للمواطنين الذين منحهم الدستور حق الانتخاب (29,262,288) وفق المادة 20 من دستور عام 2005. وبهذا تكون المعادلة على النحو الآتي:

41%=12,009,453/29,262,288

وهذه هي النسبة التي أعلنها تحالف الشبكات والمنظمات الوطنية لمراقبة الانتخابات في العراق[12] استناداً إلى أرقام المفوضية نفسها.

هذا التحول في معيار الاحتساب لا يمكن اعتباره إجراءً فنياً محايداً، لأنه يعيد تعريف "الجسم الانتخابي" على نحو يُقصي ملايين المواطنين من معادلة المشاركة، ويحوّل المقاطعة الواسعة إلى ظاهرة غير مرئية إحصائياً. وفق الدستور العراقي، ولا سيما المادة (20)[13] التي تكفل حق المشاركة السياسية لجميع المواطنين، فإن احتساب المشاركة ينبغي أن ينطلق من مجموع من يحق لهم التصويت قانوناً، لا من عدد من استكملوا إجراءً إدارياً مسبقاً. فاستبدال هذا المعيار الدستوري بمعادلة أضيق يؤدي إلى رفع مصطنع لنسب المشاركة وتقليص رقمي لحجم العزوف، بما يخدم سردية سياسية محددة عن "القبول الشعبي". ويتفاقم هذا الخلل عند تفكيك مكونات الأصوات المحتسبة ضمن نسب المشاركة، إذ لا تميّز الأرقام المعلنة بين التصويت الحر القائم على إرادة فردية مستقلة، وبين أصوات خضعت لأشكال مختلفة من الضبط والتوجيه، ما يُفرغ هذه النسب من دلالتها التمثيلية الفعلية.

غير أن تفكيك الرقم الكلي للمقترعين

يكشف أن جزءاً كبيراً منه لا يمثل إرادة سياسية حرة، إذ يشمل (729,933) أصواتاً أُبطلت[14]، وأصوات التصويت الخاص الخاضعة للانضباط المؤسسي (1,084,289)، إضافة إلى أعداد هائلة من المراقبين ووكلاء الكيانات بلغت نحو (2,250,000) وفق مصادر مستقلة، وهو رقم هائل لم تستطع المفوضية إنكاره بالكامل، واضطرت إلى الاعتراف بـ (1,450,000) مراقب ووكيل وبذلك يبلغ مجموع الأصوات غير الحرة أو المُدارة نحو (4,784,289) صوتاً.

وعند طرح هذا الرقم من مجموع المقترعين، يتبقى (7,225,164) ناخباً فقط. وباحتساب هذه الأصوات قياساً إلى مجموع من يحق لهم التصويت دستورياً (29,262,288)، تنخفض نسبة المشاركة إلى نحو24% وإذا استُبعدت كذلك أصوات القواعد المتحزبة والمنتفعة المرتبطة بالأحزاب المتنفذة، فإن نسبة المشاركة الحرة الفعلية لا تتجاوز 18%.

أما مجموع الأصوات التي حصلت عليها القوى الفائزة، فقد بلغ (4,008,481) صوتاً. ووفق معيار المفوضية نفسها، لا تمثل هذه الأصوات سوى 19% من المسجلين بايوميترياً، بينما تنخفض إلى 13% فقط عند احتسابها قياساً إلى مجموع من يحق لهم التصويت دستورياً، ما يعني أن 87% من المواطنين لم يمنحوا الفائزين شرعية انتخابية [15]. تُظهر هذه المعادلات أن الشرعية المعلنة ليست سوى بناء رقمي مُصطنع، ينهار عند أول اختبار علمي، ويكشف أن ما جرى لم يكن تنافساً ديمقراطياً، بل إعادة تدوير لمنظومة النفوذ عبر أرقام مُهندسة وخطاب سياسي مضلل. فالتضخيم المتعمد لنسب المشاركة لا يعكس قوة النظام بقدر ما يدل على قلقه، إذ إن الشرعية الواثقة لا تحتاج إلى تجميل النتائج.

ولا يكمن الخلل في رقم بعينه، بل في المنهج الذي صُنعت به الأرقام ووُظّفت ضمنه، حيث يؤدي الاحتساب الانتقائي ودمج الأصوات الخاضعة للضبط مع الأصوات الحرة إلى تفريغ النِسَب من معناها التمثيلي، وتحويل الأرقام إلى أداة سياسية لتغطية ضعف التمثيل، لا لقياسه، بما يفتح الباب لتحليل "الخرق الصامت" في بنية العملية الانتخابية.

الخرق الصامت: تضخم المراقبين ووظائفه السياسية

يُعدّ التضخم غير المسبوق في أعداد المراقبين[16] ووكلاء الكيانات[17] أحد أخطر مظاهر الخلل البنيوي التي رافقت العملية الانتخابية، لا بوصفه خرقاً فاضحاً، بل خرقاً صامتاً جرى تمريره تحت شعار "تعزيز النزاهة". ويتكامل هذا الخلل مع ظاهرة (الركائز)** التي انتقلت من نشاط انتخابي عارض إلى آلية بنيوية لشراء الأصوات وتزييف الإرادة الشعبية، حيث يعمل الركيزة وسيطاً مالياً وتنظيمياً يجمع الأصوات، وينقل الناخبين، ويوزع المنافع مقابل المال أو الوعود، محوّلاً الصوت إلى سلعة والانتخابات إلى سوق نفوذ. وتكشف النزاعات التي تفجرت بعد الانتخابات بين المرشحين والركائز أن العملية قامت على تعاقدات مالية لا على تنافس سياسي. يبين التحليل المهني والرقمي

أن تضخم أعداد المراقبين لم يؤدِّ وظيفة رقابية حقيقية، بل تحوّل إلى أداة سياسية داخل مراكز الاقتراع. فالرقابة الانتخابية تفترض مراقبين مستقلين ومحدودي العدد، فيما شهدت العملية تسجيل أعداد هائلة تجاوزت المعايير المعتمدة، بما يدل على خلل جوهري في الإدارة الانتخابية. وعليه، لم يكن هذا التضخم تفصيلاً إجرائياً، بل مؤشراً يهدد معيار الشرعية، إذ حوّل الأرقام من أداة لضبط النزاهة إلى مادة للطعن فيها، وانعكس سلباً على مجمل العملية الانتخابية.

أولاً: توزيع المراكز والمحطات في عموم العراق

عدد المراكز الانتخابية: 8,703، وعدد المحطات: 39,285، في إقليم كردستان: عدد المراكز: 1,312، عدد المحطات: 5,599.[18] يكشف هذا التوزيع اختلافاً جوهرياً في الإجراءات الإدارية للعملية الانتخابية. فوجود 8,703 مركزاً و39,285 محطة في عموم العراق، مقابل 1,312 مركزاً و5,599 محطة في الإقليم، يشير هذا التباين إلى نمطين مختلفين في تنظيم البنية الانتخابية. فمع احتساب الفوارق في عدد المحافظات بين العراق وإقليم كردستان، يتضح أن تضخّم أعداد المراقبين لم يكن إجراءً مهنياً، بل توجهاً تعبويّاً هدفه خلق حضور بشري كثيف داخل مراكز الاقتراع بما يتيح التأثير غير المباشر على الناخبين. وهكذا تحوّل التضخم من نشاط رقابي إلى أداة سياسية للدعاية والضغط وإرباك بيئة الاقتراع، في حين حدّت الحدود العددية المتوازنة وتوزيع المراكز في إقليم كردستان من هذا التأثير، وحصرته ضمن نطاق قابل للضبط والمتابعة المهنية.

ثانياً. أعداد المراقبين ووكلاء الكيانات

سجّلت ما بين 1,000,000 و1,200,000 مراقب محلي. وقد أكد ذلك حسن هادي زاير، عضو الفريق الإعلامي للمفوضية، في لقاء على قناة النجباء بتاريخ 11/11/ 2025. كما بلغ عدد وكلاء الكيانات السياسية 450,000 وكيل. بالمقابل، تداولت مصادر أخرى رقمين يصلان إلى مليونَي مراقب ووكيل، لكننا سنعتمد أقل رقم أعلنته المفوضية لضمان حيادية التحليل: ولأن مهمة المراقب والوكيل متقاربة في يوم الاقتراع، يمكن جمعهما في فئة وظيفية موحدة لغرض الحساب والتحليل

1,450,000 = 1,000,000+450,000

عدد المراقبين ووكلاء الكيانات في عموم العراق.

ثالثاً. استثناء المراقبة المهنية الفعلية

نخصم من هذا الرقم مراقبي تحالف الشبكات والمنظمات الوطنية لمراقبة الانتخابات في العراق (6,500) مراقب، هو التحالف الذي يضم كلاً من: شبكة شمس لمراقبة الانتخابات، فريق مراقبي منظمة تموز للتنمية الاجتماعية، شبكة عين لمراقبة الانتخابات والديمقراطية، شبكة چاڤ للشفافية وحقوق الإنسان، المعهد الكوردي للانتخابات KIE ، مؤسسة النور الجامعة – بعثة نراقب، تحالف الأقليات في العراق. ويُعدّ هذا التحالف الجهة الرقابية الوحيدة

التي تلقت تدريباً دولياً من الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، وشاركت في مراقبة جميع الانتخابات التي أُجريت في العراق، بما في ذلك الاستفتاء على الدستور. وقد قدّم تقارير مهنية رصينة أشادت بها الأمم المتحدة، واعترفت المفوضية العليا نفسها بمستوى مهنيتها، كما نُشرت تقاريره بالتنسيق مع منصة +964.

1,450,000 - 6,500 = 1,443,500
العدد الفعلي للمراقبين والوكلاء المسجَّلين في عموم العراق.

رابعاً. أعداد المراقبين في الإقليم وفق توزيع المراكز والمحطات

10,116 عدد المراقبين و25,303 عدد وكلاء الكيانات، وحاصل جمعهما يبلغ 35,419

35,419 (عدد المراقبين)÷ 1,312 (عدد المراكز)= 27 مراقبا لكل مركز.

35,419 (عدد المراقبين) ÷ 5,599 (عدد المحطات) = 6 مراقبين لكل محطة.

ورغم أن هذه الأرقام مرتفعة نسبياً، فإنها تظل متواضعة جدً مقارنة بما يظهر في باقي محافظات العراق.

خامساً. أعداد المراقبين في محافظات العراق كافة، باستثناء محافظات إقليم كردستان، وفق توزيع المراكز والمحطات

نطرح أعداد الإقليم من مجموع عموم العراق 1,443,500 - 35,419 = 1,408,081 مراقبا ووكيلا في محافظات العراق كافة، باستثناء محافظات إقليم كردستان. الآن نوزع هذا الرقم على المراكز البالغ عددها 7,391 مركزاً، وعلى المحطات البالغ عددها 33,686 محطة، وتكون النتائج كما يأتي:

1,408,081 ÷7,391= 190 مراقباً لكل مركز، وهو رقم كبير لا يمكن تبريره مهنياً أو تنظيمياً.

1,408,081 ÷33,686 = 42 مراقباً لكل محطة، والمحطة هي غرفة صف دراسي واحدة. وجود 42 شخصاً بصفة مراقبين داخل غرفة واحدة غير ممكن عملياً، ولا يحقق أي وظيفة رقابية، بل يتحول إلى حالة ضغط على العملية الانتخابية. نلاحظ ان لكل محطة انتخابية في مركز انتخابي في إقليم كردستان 6 مراقبين يقابله 42 مراقب في المركز الانتخابي في محافظات العراق الأخرى.

سادساً. دلالة هذا التضخم

من الناحية المهنية، "العدد الزائد" لا يعزّز النزاهة، بل ينتج آثاراً مضادة، منها:

1. تحويل المراقب إلى فاعل سياسي داخل المحطة، لا إلى رقيب مستقل.
2. أصبحت هوية المراقب (الباج) تصريح دخول لأغراض أخرى.
3. تحويل يوم الاقتراع إلى ساحة تزاحم داخل المراكز بدل أن يكون مكاناً للرقابة المهنية.
4. وإذا افترضنا أن كل مراقب من مجموع (1,408,081) مراقبا، استمال شخصين فقط داخل المركز الانتخابي أو أثر في قرارهم، فإن عدد الخروقات المحتملة قد يتجاوز (2,816,162) مليونين وثمانمائة وستة عشر الفا ومئة واثنين وستين خرقا، وهو رقم كفيل بتغيير مسار العملية الانتخابية برمتها.

يكشف توزيع المراقبين على المراكز حجم المفارقة، إذ استقبلت المحطة الواحدة عشرات "المراقبين" و"الوكلاء"، وهو عدد يستحيل معه أداء رقابة مهنية، ليغدو الحضور الكثيف شكلاً من الضغط المباشر وغير المباشر على مجريات الاقتراع. ومع تحوّل صفة "المراقب" إلى تصريح دخول مفتوح من دون تدقيق في الاستقلالية أو الدور، تلاشى الفاصل بين الرقابة والدعاية، وبين المتابعة والتأثير، وهو ما تؤكده ندرة التقارير المهنية الصادرة عن هذه الأعداد الهائلة، بما يكشف أن وظيفتها لم تكن رقابية بقدر ما كانت تعبويّة –سياسية. وهذا يسجل كرشوة انتخابية إذ (منع القانون الكيان السياسي الذي تولى الترشيح للانتخابات من تقديم الهدايا والتبرعات او أي مساعدات أخرى عينية كانت ام مادية)[19]. تحليلياً، لا يؤدي "العدد الزائد" إلى تعزيز النزاهة، بل إلى تقويضها، إذ كلما ازداد عدد المراقبين غير المهنيين تقلّصت القدرة على المحاسبة واتسعت مساحة الفوضى المنظمة، ليتحوّل المركز الانتخابي من فضاء محايد إلى ساحة تأثير غير متكافئ. وحتى بافتراض تأثير محدود لبعض هؤلاء، فإن الأثر التراكمي يصبح حاسماً، وهو ما يفسر خطورة "الخرق الصامت" الذي لا يخلّف أثراً قانونياً مباشراً، لكنه يعيد تشكيل بيئة الاقتراع تدريجياً لمصلحة القوى الأكثر تنظيماً. لا يمكن فصل تضخم أعداد المراقبين عن بقية عناصر المنظومة الانتخابية المختلة، إذ يتكامل مع قانون انتخابي إقصائي، وإدارة انتخابية ضعيفة الاستقلال، ومال سياسي واسع، ليشكّل شبكة متكاملة لإعادة إنتاج النفوذ. وبهذا المعنى، لم يكن التضخم الرقابي خللاً إدارياً عارضاً، بل جزءاً من هندسة انتخابية أوسع تُنتج الشكل الديمقراطي من دون مضمونه. وعليه، يفقد الحديث عن نزاهة العملية الانتخابية معناه حين تُختزل الرقابة إلى أرقام لا إلى معايير، إذ تُقاس النزاهة بجودة الأداء والاستقلال لا بكثرة الحضور. ويكشف ما جرى أن الإفراط في تسجيل المراقبين كان من أخطر الآليات التي ابتلعت النزاهة من الداخل، من دون ضجيج يوازي حجم أثرها.

القوى المتنفذة وآليات إعادة إنتاج النفوذ

لا يمكن فهم نتائج العملية الانتخابية عبر أدواتها الإجرائية وحدها، من قانونٍ وأرقام ورقابة، ما لم تُربط بالبنية الفعليةً للقوىً القادرة على تشغيلها وتوجيهها. فالقوى المتنفذة في العراق لا تتحرك كأطراف انتخابية عادية، بل كمنظومة متكاملة تجمع السلطة والمال والسلاح والإدارة والإعلام، وتستخدم الانتخابات لإعادة إنتاج نفوذها، لا لخوض تنافس حر.

راكمت الطغمة نفوذها داخل مؤسسات الدولة، واستثمرت وجودها في السلطتين التنفيذية والتشريعية لتحويل موارد الدولة إلى أدوات قوة سياسية. وبذلك لم تعد الانتخابات بالنسبة لها استحقاقاً مفتوح النتائج، بل آلية لإعادة تثبيت المواقع، وضبط التوازنات الداخلية، وإعادة توزيع الحصص داخل المنظومة نفسها. ويبرز المال السياسي كأحد أهم آليات هذا النفوذ، إذ حوّل الفارق الهائل في الإمكانات

المالية المنافسة الانتخابية إلى ساحة غير متكافئة منذ بدايتها، متجاوزاً الدعاية إلى شراء الأصوات، وتمويل شبكات التعبئة، وتغطية نفقات أعداد ضخمة من المراقبين والوكلاء. وإلى جانب ذلك، تمارس هذه القوى سيطرة مباشرة أو غير مباشرة على الإعلام، فتُدار الحملات الانتخابية كمساحة موجهة تُعيد إنتاج الرواية الرسمية وتُهمّش الأصوات النقدية، لا كساحة نقاش عام متكافئة. وتتضاعف فاعلية هذه الآليات حين تقترن بالنفوذ المؤسسي داخل أجهزة الدولة، حيث يُستخدم التساهل في تطبيق القوانين وتسهيل الإجراءات لأنصار القوى المتنفذة لتكريس الاختلال، فيما يتحول خرق القانون من استثناء إلى ممارسة محمية بتوازنات السلطة. ويكتمل هذا المشهد بحضور السلاح بوصفه عاملاً بنيوياً، يفرض بيئة ردع غير معلنة تُقوّض تكافؤ الفرص وتقيّد المنافسة الحرة، حتى من دون اللجوء إلى استخدام مباشر للقوة. تتكامل هذه العناصر لتنتج ما يمكن تسميته "الهيمنة الانتخابية"، حيث لا تُلغى الانتخابات شكلياً، بل تُفرَّغ من مضمونها التنافسي. يبقى التغيير محصوراً في حدود ضيقة تسمح بتبديل بعض الوجوه أو إعادة توزيع المقاعد داخل المعسكر المتنفذ نفسه، من دون المساس بالبنية العامة للسلطة، لتتحول الانتخابات إلى آلية لضبط النظام لا لمساءلته أو تغييره. وفي هذا الإطار يُفهم لماذا لم تُفضِ الدورات الانتخابية المتعاقبة إلى تحولات سياسية جوهرية، رغم الأزمات المتفاقمة والاحتجاجات الواسعة، إذ تعمد القوى المتنفذة إلى تفكيك المجتمع انتخابياً عبر الزبائنية والهويات الفرعية والحاجات المعيشية، وتحوّل الصندوق إلى أداة لإدارة هذا التفكك لا لمعالجته. وعليه، فإن إعادة إنتاج النفوذ عبر الانتخابات ليست خللاً عارضاً، بل نتيجة منطقية لمنظومة متكاملة تُحسن توظيف القانون والأرقام والمال والإعلام والسلاح ضمن سياق واحد، ما يجعل أي رهان على الانتخابات، بمعزل عن تفكيك هذه المنظومة، رهاناً محدود الأثر مهما حسنت النوايا أو تغيّرت الشعارات.

القوى المدنية: الأزمة، التشتت

تكشف نتائج الانتخابات، إلى جانب قوة المنظومة المتنفذة، عمق الأزمة التي تعانيها القوى المدنية والديمقراطية في العراق، (إذ لم يكن تراجعها نتاج اختلال شروط المنافسة وحده، بل أيضاً حصيلة اختلالات بنيوية داخلية تراكمت عبر السنوات، وأضعفت قدرتها على التحول إلى بديل سياسي فعلي)[20]، تتمثل الأزمة الأساسية للقوى المدنية في فجوة الثقة بينها وبين قطاعات واسعة من جمهورها، وهي فجوة نتجت عن تجارب برلمانية سابقة، وبالأخص تجربة النواب المدعين تمثيل انتفاضة تشرين، حيث فشلت في ترجمة الشعارات إلى ممارسات مؤسسية واضحة، وعززت الانطباع بأن الدخول إلى النظام السياسي القائم يقود غالباً إلى التكيّف معه لا تغييره. ولم تكن هذه الفجوة نتاج إخفاقات فردية بقدر ما كانت حصيلة غياب رؤية مؤسسية واستراتيجية طويلة الأمد للعمل البرلماني، ما حوّل التجربة إلى مسار شخصي منفصل عن الحراك الاجتماعي. لا يمكن فصل أزمة القوى

المدنية والديمقراطية عن أزمة أعمق تتعلق بدور النخب الثقافية والسياسية التي يُفترض بها أن تشكّل الرافعة الفكرية والأخلاقية لأي مشروع تغيير. فجزء من إخفاق هذه القوى لا يعود فقط إلى اختلال شروط المنافسة أو القمع أو المال السياسي، بل إلى ميل بعض النخب إلى التكيّف مع منظومة السلطة، أو تبريرها خطابياً، أو الاكتفاء بنقد أخلاقي عام لا يترجم إلى فعل سياسي منظم.

وفي هذا السياق، تبرز مسؤولية النخب الثقافية والسياسية بوصفها جزءاً من معركة الشرعية ذاتها، لا بوصفها شاهداً محايداً. فحين تنحاز قطاعات من المثقفين وبعض قيادات الاحتجاج إلى أحزاب السلطة، أو تبرر ممارساتها باسم العقل أو الاستقرار، فإنها تسهم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في إنتاج الشرعية الزائفة التي تمنحها الانتخابات الشكلية. ومن هنا تكتسب راهنيتها مقولة (لقد أنبهر المثقفون لمدة طويلة بالسلطات التي كانت تقدم نفسها باعتبارها وكيلة للعقل يتعين علينا اليوم ان نطالب اولئك الذين خدموا الطغاة، بالصمت، وان نطالب الاخرين بان يدافعوا على افضل وجه عن الحرية ضد السلطات)[21]. إلى جانب ذلك، أسهم التشتت التنظيمي والدخول بقوائم متعددة بلا تنسيق أو خطاب موحّد في هدر واسع للأصوات المدنية، التي جرى امتصاصها، بفعل القانون الانتخابي، لمصلحة القوى الكبرى. وتفاقم هذا الضعف مع اختلال معايير اختيار المرشحين، ومحدودية البنية التنظيمية، وغياب العمل القاعدي والنقابي المستدام، ما جعل الفعل المدني موسمياً وغير متجذر اجتماعياً. وعليه، لم تكن المقاطعة الواسعة من قبل الجمهور المدني حدثاً طارئاً، بل تعبيراً عن قطيعة سياسية متراكمة، اختار فيها هذا الجمهور الانسحاب بوصفه موقفاً سياسياً واعياً. وتكشف هذه المعطيات أن حدود الفعل المدني الراهنة لا تعود فقط إلى القمع أو المال السياسي، بل إلى عجز هذه القوى عن بناء مشروع سياسي ـ اجتماعي متكامل يربط بين النضال الانتخابي والعمل الاجتماعي اليومي، ويعيد وصل السياسة بالمصالح الملموسة للناس. (لقد انقطعوا عن الناس إلى درجة أن الحوار معهم ضاع تماما. لذا أعتقد أننا يجب أن نركز على وعينا الذاتي وبناء أنفسنا)[22]. لا يهدف هذا التشخيص إلى تحميل القوى المدنية مسؤولية اخفاق لم تصنع شروطه وحدها، بل إلى وضع الأزمة في إطارها الواقعي، إذ إن غياب مراجعة جذرية للأدوات والتحالفات وأنماط العمل سيُبقي حضور هذه القوى هامشياً، وتظل الانتخابات ساحة تُدار بمنطق إعادة إنتاج السلطة لا كسرها.

أزمة الشرعية وأسئلة المستقبل

تُفضي قراءة العملية الانتخابية إلى نتيجة مركزية مفادها أن الأزمة التي تكشفها الانتخابات في العراق ليست خللاً إجرائياً أو تراجع مشاركة ظرفياً، بل أزمة شرعية بنيوية تمس جوهر العلاقة بين المجتمع والسلطة. فالشرعية لم تعد تُستمد من صندوق الاقتراع بقدر ما تُصنَّع عبر منظومة متكاملة من القوانين والأرقام والإدارة والتعبئة، في ظل اعتماد النظام

السياسي على قاعدة اجتماعية محدودة لكنها منظمة، مقابل أكثرية واسعة مقاطِعة أو مهمَّشة أو غير ممثَّلة فعلياً. ولا يمكن تغطية هذا الاختلال عبر رفع نسب المشاركة حسابياً أو توسيع دوائر "الشرعية الشكلية"، لأن الفجوة بين الرقم والمعنى تظل قائمة وتتسع مع كل دورة انتخابية. فأزمة الشرعية هنا لا تعني غياب الاعتراف القانوني بالمؤسسات، بل غياب الثقة السياسية بها، ما يضعف قدرتها على إدارة الأزمات واتخاذ قرارات كبرى. وفي هذا السياق، لم تعد الانتخابات، بصيغتها الحالية، أداة وساطة بين المجتمع والسلطة، بل آلية لإعادة تنظيم السلطة داخلها، ما يجعل الاستقرار الذي توحي به النتائج استقراراً هشّاً يخفي تحت سطحه أسباب الاحتجاج والمقاطعة وتآكل الثقة التي ما تزال قائمة وتتفاقم.

لا يعني هذا الاستنتاج الدعوة إلى إلغاء الانتخابات أو التقليل من أهميتها المبدئية، بل إعادة تعريف موقعها ضمن مشروع تغيير أوسع. فالانتخابات، حين تُفصل عن العمل الاجتماعي والنقابي والمطلبي والاحتجاجي، وحين تُقدَّم بوصفها الطريق الوحيد للتغيير، تتحول إلى وهم سياسي، أما حين تُدرج ضمن استراتيجية شاملة لإعادة بناء القوة الاجتماعية، فقد تستعيد جزءاً من وظيفتها التمثيلية. وفي هذا السياق، لا يقتصر التحدي أمام القوى المدنية والديمقراطية على تحسين أدائها الانتخابي، بل يتعداه إلى إعادة بناء علاقتها بالمجتمع على أسس مستدامة، تعيد للسياسة معناها بوصفها تعبيراً عن المصالح اليومية للناس لا موسماً انتخابياً عابراً. وعليه، فإن أزمة الشرعية التي تكشفها الانتخابات ليست قدراً محتوماً، لكنها أيضاً لا تُحل بإجراءات سطحية، بل تتطلب مراجعة جذرية لمفهوم التمثيل، ولطبيعة النظام الانتخابي، ولأدوات الفعل السياسي.

إن السياق الاجتماعي الذي جرت فيه الانتخابات كان سياقاً مأزوماً، اتسم بتراجع الثقة، واتساع الفجوة الطبقية، وتآكل الإحساس بالمواطنة السياسية، بحيث لم يكن السلوك الانتخابي، بما في ذلك المقاطعة الواسعة، تعبيراً عن عزوف أو لا مبالاة، بل موقفاً سياسياً واعياً تشكّل عبر تراكم تجارب خيّبت آمال شرائح واسعة من المجتمع، وأضعفت قناعتها بقدرة صندوق الاقتراع، بصيغته الراهنة، على إحداث تغيير فعلي. وبناءً على ما تقدّم، يمكن استخلاص الاستنتاجات الآتية:-

1. أن الإطار القانوني والإداري للعملية الانتخابية لم يعمل كإطار محايد للتمثيل العادل، بل أسهم في إعادة إنتاج توازنات القوة القائمة، عبر قانون انتخابي إقصائي، وإدارة انتخابية محدودة الاستقلال، وأرقام جرى توظيفها سياسياً لصناعة شرعية شكلية لا تعكس المشاركة الشعبية الحرة.

2. برز التضخم غير المسبوق في أعداد المراقبين ووكلاء الكيانات بوصفه أحد أخطر مظاهر "الخرق الصامت"، إذ لم يعزز النزاهة، بل غيّر بيئة الاقتراع من الداخل عبر الضغط والتعبئة والتأثير غير المباشر.

3. أن القوى المتنفذة سخّرت القانون، والمال، والإعلام، والنفوذ المؤسسي، والسلاح ضمن منظومة متكاملة أعادت

إنتاج نفوذها عبر الانتخابات، التي لم تعد ساحة تنافس سياسي متكافئ.

4. لم يكن ضعف حضور القوى المدنية والديمقراطية ناتجاً عن اختلال شروط المنافسة وحده، بل أيضاً عن أزماتها الداخلية، من تشتت تنظيمي وضعف بنيوي، وسوء إدارة للتجربة البرلمانية، ما عمّق فجوة الثقة بينها وبين جمهورها ودفع قطاعات واسعة منه إلى المقاطعة.

5. أن الانتخابات، بصيغتها الحالية، لم تعد قادرة على إنتاج شرعية سياسية مستندة إلى الإرادة الشعبية، وأن الشرعية التي تقوم على مشاركة محدودة ومعايير انتقائية وأدوات نفوذ غير متكافئة تظل شرعية هشة وقابلة للتآكل. غير أن هذا الاستنتاج لا يعني الدعوة إلى تجاوز الانتخابات، بل إلى إعادة تعريف موقعها ضمن مشروع تغيير أوسع، يقوم على إصلاح بنيوي للقانون، وضمان استقلال الإدارة الانتخابية، وفصل المال والسلاح عن السياسة، وبناء قوة اجتماعية متجذرة قادرة على تحويل السخط الشعبي إلى فعل منظم.

ختاماً، إن أزمة الشرعية في العراق ليست أزمة رقم أو دورة انتخابية بعينها، بل أزمة نموذج سياسي استنفد أدواته، وأن تجاوزها لا يبدأ بتجميل النتائج أو تضخيم نسب المشاركة، بل بالاعتراف بالفجوة القائمة والعمل على ردمها عبر إعادة تعريف العلاقة بين المجتمع والسلطة، وبين السياسة بوصفها إدارة للنفوذ، والسياسة بوصفها تعبيراً عن الإرادة العامة. دون ذلك، ستبقى الانتخابات تدور في حلقة مغلقة، بينما تتراكم تحت السطح أسباب الانفجار المؤجَّل.

يطيب لي هنا ايراد ما كتبه المفكر اليساري الكبير فالح عبد الجبار (قطعا نحن بحاجة الى ماركس لفهم الازمة، لكننا أيضا بحاجة الى كانْت لفهم مشكلات تنظيم سلام العالم، وبحاجة الى ماركس فيبر لفهم الدين، والنظم الاجتماعية، وبحاجة الى دوركهايم لفهم تماسك وتفكك البنى الاجتماعية، وبحاجة الى نيتشه وتلامذته الفرنسيين "فوكو مثلا" لفهم تعدد التمثيلات، وهلمجرا. العالم مركب لا مثيل له في تعقده، واطياف ماركس تنير بعض منه)[23].

الهوامش:

* جميع الأرقام التي دخلت في حساب المعادلات مصدرها بيانات المفوضية العليا المستقلة للانتخابات.
** الركائز هم وسطاء انتخابيون غير رسميين يعملون بوصفهم سماسرة أصوات، يتولّون جمع الأصوات وتنظيم نقل الناخبين وتوزيع المال والمنافع والوعود مقابل مكافآت مالية أو امتيازات، بهدف تصنيع كتلة انتخابية مصطنعة منفصلة عن الاختيار الحر. وبهذا الدور، يحوّلون الصوت الانتخابي إلى سلعة، والانتخابات إلى سوق نفوذ، ويشكّلون أداة بنيوية لإعادة تدوير سلطة الطغمة وإقصاء المستقلين والقوى المدنية، بما يُفرغ العملية الانتخابية من مضمونها الديمقراطي.

1. صالح ياسر، الدولة السلطة الطبقات الاجتماعية، بيت الكتاب السومري، بغداد، ط1، 2019، ص 301.
2. فالح عبد الجبار، ما بعد ماركس، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2015، ص 262.
3. بيان البيت الوطني، بغداد، 3 /12/ 2025. ينظر: قانون العقوبات العراقي رقم (111) لسنة 1969، الصادر في 19 /7/ 1969 والمنشور في الوقائع العراقية العدد 1778 بتاريخ 15 /9/ 1969، والذي تنص المادة (197) منه على عقوبة قد تصل إلى الإعدام.
4. صالح ياسر، الدولة السلطة الطبقات الاجتماعية، مصدر سبق ذكره، ص187.
5. روبرت م. ماكيفر، تكوين الدولة، ترجمة حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، 1966، ص238.
6. دستور جمهورية العراق، المادة 20، مجلس النواب، الدائرة الإعلامية، ط5، بغداد، 2011، ص 19.
7. قانون التعديل الثالث رقم 4 لسنة 2023، لقانون انتخابات مجلس النواب ومجالس المحافظات والأقضية والنواحي رقم 12 لسنة 2018.
8. ستيفن دي تانسي، علم السياسية الأسس، ترجمة رشا جمال، الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ص 289.
9. إيليا غوردون واخرون، اوراق ديمقراطية، مركز العراق لمعلومات الديمقراطية، العدد الرابع، آب 200، ص19.
10. خيسوس أوروتشكو-إنريكي، تحرير: أيمن أيوب، العدالة الانتخابية: دليل المؤسسة الدولية للديمقراطيات والانتخابات، المؤسسة الدولية للديمقراطية والانتخابات (IDEA)، ستوكهولم، 2012، ص 3 .
11. بيان المفوضية العليا المستقلة للانتخابات في 12 /11/ 2025.
12. ينظر: بيان المركز الإعلامي، تحالف الشبكات والمنظمات الوطنية لمراقبة الانتخابات في العراق، بغداد، 12 /11/ 2025.
13. دستور جمهورية العراق، المادة 20، مصدر سبق ذكره، ص 19.
14. ينظر: بيان اعلان نتائج الانتخابات، المركز الإعلامي للمفوضية العليا المستقلة للانتخابات.
15. جاسم الحلفي، 56% نسبة مشاركة لا يشاهدها احد، جريدة المدى، العدد 6032 في 20/ 11/ 2025، ص6.
16. ينظر: مجلس المفوضين، تعليمات اعتماد المراقبين المحليين لسنة 2025، المصادق عليها في 23/9/2025.
17. ينظر: مجلس المفوضين، تعليمات اعتماد وكلاء الأحزاب السياسية والتحالفات والمرشحين الافراد لسنة 2025، المصادق عليها في 23/ 9/ 2025.
18. ينظر: قاعدة بيانات المفوضية العليا المستقلة للانتخابات.
19. طارق حرب، الدستور العراقي لسنة 2005، في بحوث ومقالات، منشورات دار الحنش، ط1، بغداد، 2007، ص115
20. جاسم الحلفي، "شاركوا الناس التقييم... فالإجابة لا تكتمل إلا بهم... رسالة للأحزاب والتحالفات المدنية"، جريدة المدى، العدد 6034 في 24 /11/ 2025.
21. آلان تورين، نقد الحداثة، ترجمة عبد السلام الطويل، افريقيا الشرق، 2010، المغرب، ص362
22. أ.ج. دوغن، مناهضة الرأسمالية.. مسارات نحو استقلالية الفكر محادثات مع رودي د. ف. ومفكرين اخرين، ص142.
23. فالح عبد الجبار، ما بعد ماركس، مصدر سبق ذكره، ص365 .

نحو يسارٍ يستعيد زمام المبادرة: قراءة استراتيجية في مقولات حسان عاكف بعد الانتكاسة الانتخابية

د.إسماعيل نوري الربيعي

لم تكن الهزيمة التي مُني بها الحزب الشيوعي العراقي، ومعه عموم القوى الوطنية والديمقراطية، في الانتخابات البرلمانية الأخيرة مجرد تراجع في الأرقام أو خسارة مقاعد برلمانية فحسب، بل جاءت بوصفها لحظة فارقة تضع الجميع أمام مرآة الواقع السياسي العراقي. فقد كشفت هذه النتيجة حجم الاختلالات العميقة التي راكمتها السنوات الماضية، سواء على صعيد البناء التنظيمي للأحزاب المدنية، أو على مستوى البيئة السياسية المأزومة التي تتشكل فيها التحالفات، وتُدار فيها الموارد، وتُصاغ فيها القواعد الانتخابية. ومن هنا فإن وصف الهزيمة بأنها مجرد "انتكاسة انتخابية" لا يفي بحقيقة ما ظهر في تلك اللحظة؛ إنها لحظة صادمة، لكنها تكشف وتُنبه وتُحرض على التفكير الجذري، أكثر مما تدعو إلى الانكفاء أو اليأس. في هذا السياق المتوتر، الذي تتقاطع فيه الحاجة إلى المراجعة مع ضغط الواقع، برزت مقولات حسان عاكف ليس بوصفها تشخيصا عابرا، بل كإطار رؤية يطمح إلى إعادة ترتيب أولويات العمل اليساري الوطني. لقد جاءت طروحاته متحررة من أوهام الأمان التنظيمي أو التبريرات المكررة، ومُصاغة بروح نقدية واعية تدرك أن لحظة السقوط الانتخابي ليست نهاية، بل يمكن أن تكون بداية أكثر صفاء إذا أحسن الحزب قراءتها. فالمقاربة التي يقدمها عاكف لا تستسلم للقدرية السياسية التي ترى في الهزيمة حدثا محتوما، بل تقترب منها باعتبارها مؤشرا على ضرورة إعادة تعريف دور الحزب وموقعه وعلاقته بالناس، بل وإعادة بناء معنى "اليسار" ذاته في سياق عراقي بالغ التعقيد. ولعل أهمية هذه الطروحات تنبع من كونها لا تكتفي بالتشخيص، بل تتحول إلى برنامج عمل عملي. فهي تدعو إلى إعادة وصل ما انقطع بين الحزب وجمهوره الطبيعي، وبين القوى الوطنية فيما بينها، وبين اليسار

ومحيطه الاجتماعي. إن عاكف لا ينظر إلى الأزمة بوصفها أزمة أرقام، بل بوصفها أزمة علاقة. علاقة الحزب بأعضائه، علاقته بالشارع، علاقته بالقوى اليسارية، وعلاقته بالبيئة الوطنية الواسعة. وكل هذه العلاقات تضررت، بدرجات متفاوتة، خلال السنوات الماضية نتيجة عوامل ذاتية وأخرى موضوعية. فالتشظي السياسي الذي ضرب البلاد، وهيمنة المال السياسي، وتضخم نفوذ منظومات مصالح لا تخضع للرقابة، وضعف الدولة نفسها، كلها عوامل تجعل العمل السياسي المدني مهمة شاقة. ومع ذلك فإن التذرع بهذه الظروف لن يعفي الأحزاب من ضرورة إصلاح ذاتها.

إنّ أحد أهم عناصر مقاربة عاكف يتمثل في رؤيته للعلاقة بين الهزيمة والفرصة. فالمشهد الذي تبدو فيه القوى المدنية ضعيفة ومنكمشة هو ذاته المشهد الذي يكشف حجم الحاجة إليها. وفي بلد تآكلت فيه الثقة بالسلطة والأحزاب التقليدية، وارتفعت فيه مطالب الدولة المدنية والعدالة الاجتماعية، لا يمكن لليسار أن يغيب أو يذوب أو ينكمش داخل إطاره التنظيمي الضيق. ومن هنا جاءت دعوته الواضحة إلى التعامل مع الهزيمة كبوابة لتصحيح المسار، لا كخاتمة لمسيرة. فالهزيمة هنا ليست سقوطا، بل دعوة إلى إعادة البناء. وتُبنى معادلة عاكف على ثلاثية مترابطة: "إصلاح داخلي جذري"، "انفتاح يساري واسع"، "وتشكيل تجمع وطني دائم". وهذه الثلاثية لا تُطرح بوصفها شعارات، بل شروطا تأسيسية لأي قدرة مستقبلية للقوى الوطنية على استعادة المبادرة. فالتجربة العراقية أثبتت أن القوى المدنية لا تُهزم فقط حين تتعرض لضغط خارجي، بل حين تتآكل داخليا. ومن هنا يبدأ المحور الأول: إصلاح الداخل. المقصود بالإصلاح الداخلي لدى عاكف ليس مجرد تحسين إجراءات تنظيمية، بل إعادة نظر في طبيعة العمل الحزبي: كيف تُصنع القرارات؟ كيف تُدار الخلافات؟ كيف تُجدد الكوادر؟ كيف يُفعّل الدور الميداني؟ وكيف يستعيد الحزب مكانته كقوة اجتماعية يومية، لا كمجرد تنظيم موسم انتخابي؟ إن الحزب الذي يفقد تماسّه اليومي مع الناس يفقد مع الوقت القدرة على قراءة نبض الشارع، ويصبح أسير تصورات داخلية لا تعكس الواقع. لذا فإن "إعادة وصل" الحزب بجمهوره العملي تتطلب خطوات شجاعة، تبدأ من الاعتراف بالأخطاء، وتمتد إلى فتح حوارات صريحة مع الأعضاء والرفاق الذين غادروا، وصولا إلى إعادة بناء الثقة داخل التنظيم نفسه. أما المحور الثاني، وهو "الانفتاح على اليسار العراقي"، فيُدرك عاكف من خلاله أن تشتت اليسار ـ عبر مجموعات صغيرة وتنظيمات متنافرة وتيارات فكرية متباعدة ـ يمثل هدرا تاريخيا للطاقة اليسارية في العراق. فاليسار العراقي، الذي كان عبر عقود طويلة يشكل أحد أعمدة الوعي السياسي والنضالي، وجد نفسه بعد 2003 متراجعا أمام صعود الهويات الفرعية ومنظومات السلاح والمال. وتشتت مكوناته بسبب عوامل عديدة، بعضها مرتبط بالإرث التاريخي والصراعات الفكرية، وبعضها مرتبط بالظروف القاسية التي فُرضت على الناشطين المدنيين. ومن هنا يبدو الانفتاح اليساري ليس ترفا أو خيارا ثانويا، بل ضرورة لإعادة بناء الكتلة التاريخية التي يمكن أن تواجه النظام السياسي القائم ببديل مدني ديمقراطي.

إنّ إعادة جمع أطياف اليسار لا تعني إلغاء الاختلافات أو صهر الجميع في تنظيم واحد، بل تعني صياغة فضاء سياسي يسمح بالتنسيق والحوار والعمل الميداني المشترك. فضاء يتجاوز شرط التطابق الأيديولوجي، ويركز على وحدة الهدف: بناء دولة القانون، مكافحة الفساد، حماية الحقوق الاجتماعية، وتأكيد دور الفئات المهمشة. فمن دون هذا الانفتاح سيظل اليسار محاصرا داخل جزر صغيرة معزولة، بينما تحتاج البلاد إلى طاقة موحدة قادرة على حمل خطاب إصلاحي واسع. ويأتي المحور الثالث ليشكل الإطار الأكبر: "تشكيل تجمع وطني واسع ودائم". هنا ينتقل عاكف من اليسار إلى الفضاء الوطني المفتوح، إدراكا منه أن القوى الديمقراطية لا يمكن أن تحقق أهدافها وحدها، وأن العراق بحاجة إلى تحالف وطني عريض يضم قوى مدنية ويسارية وشخصيات مستقلة ومنظمات اجتماعية ومهنية. تحالف لا يقوم على المصالح الانتخابية المؤقتة، بل على رؤية وطنية طويلة النفس، وعلى مرونة تنظيمية تسمح له بالاستمرار والعمل عبر السنوات وليس عبر المواسم. إنّ فكرة التجمع الوطني الدائم تمثل محاولة لكسر واحدة من أبرز مشكلات الحياة السياسية العراقية: الموسمية. فغالبا ما تتشكل التحالفات قبيل الانتخابات، ثم تنهار بعد انتهاء التصويت، لتعود القوى المدنية إلى التشظي والضعف. أما ما يقترحه عاكف فهو نواة صلبة تستمر في العمل داخل الشارع والجامعات والنقابات، تراقب السياسات العامة، وتواجه الفساد، وتدافع عن حقوق الفئات الاجتماعية الأوسع. هذه الثلاثية ليست مجرد أفكار تنظيمية أو سياسية، بل تمثل رؤية شاملة لإعادة بناء المجال المدني العراقي، وإعادة الاعتبار لدور الأحزاب في زمن تتغول فيه القوى غير الحزبية وغير الدستورية. إنها محاولة لاستعادة السياسة من يد المصالح الضيقة والعسكرة، وإعادتها إلى فضائها الطبيعي: خدمة الناس، وحماية الدولة، وبناء المستقبل. ولعل القيمة الأبرز في طروحات عاكف أنها تقاوم الإحباط وتدعو إلى إعادة تأسيس. فهي تذكّر بأن الانكسار الانتخابي ليس خط النهاية، بل نقطة الانطلاق لبناء جديد، شرط توافر الإرادة والجرأة والبصيرة. وفي بلد تزداد فيه الحاجة إلى الصوت المدني، يمكن لهذه الرؤية أن تتحول إلى مسار عمل حقيقي، يعيد لليسار دوره، وللمجتمع ثقته، وللسياسة معناها.

أولا: إصلاح الداخل بوصفه المدخل الإجباري لأي تحول

يشدد عاكف على أن المحور الأول هو الأهم، لأنه بلا إصلاح داخلي جاد لا يمكن لأي تحالفات أو خطوات سياسية خارجية أن تثمر. إن وضع الحزب الشيوعي العراقي اليوم يعكس في جوهره مشكلات تنظيمية وفكرية وميدانية تراكمت عبر سنوات من العمل في بيئة صعبة، مع ضغوط أمنية واقتصادية وسياسية جعلت الحزب يميل أحيانا نحو الانكفاء أو اعتماد استراتيجيات دفاعية لا تتناسب مع حجم التحديات التي تفرضها اللحظة الوطنية. ومن هنا تأتي الحاجة إلى مراجعة تنظيمية شاملة تعيد بناء الهيكل الداخلي على أسس واضحة: توسيع قاعدة العضوية، وتمكين الكوادر الشابة، وتحديث آليات اتخاذ القرار، وتجاوز إرث الصراعات الصغيرة، وإقامة جسور تواصل حقيقية مع الأعضاء الذين ابتعدوا

أو جرى الاختلاف معهم. فالحزب الذي يفقد جزءا من قاعدته التنظيمية يفقد بالضرورة جزءا من قدرته على التحرك بين الناس. إن الدعوة إلى حوارات جادة وصريحة مع المختلفين ليست مجرد خطوة أخلاقية، بل هي ضرورة سياسية، لأن إعادة لملمة القوى تسمح بإحياء الروح النضالية وتغذية العمل الميداني من جديد. كما أن تحويل الحزب إلى قوة اجتماعية يومية، حاضرة في الأحياء والجامعات والمعامل والميادين العامة، يشكل الشرط الموضوعي لعودة الثقة الشعبية، ويجعل وزن الحزب في المجتمع أكبر بكثير من وزنه الانتخابي، خاصة في ظل انتخابات معطوبة يشوبها المال السياسي والتزوير وضعف استقلالية المفوضية. إن نجاح هذا المحور سيعيد للحزب دوره التقليدي بوصفه قوة فاعلة في المجتمع المدني، ومختبرا يوميا للأفكار والتحركات، وليس مجرد ماكينة انتخابية تعمل موسميا. فالمجتمع العراقي في لحظته الراهنة بحاجة إلى صوت نزيه ومستقل، صوت يعمل كل يوم وليس فقط عند صناديق الاقتراع.

ثانيا: الانفتاح على اليسار العراقي وتوحيد ما تشتت

يدعو عاكف في المحور الثاني إلى أن يقوم الحزب الشيوعي، بوصفه عميد اليسار العراقي، بدور قيادي في توحيد القوى اليسارية على اختلاف مشاربها. لا يخفى أن اليسار العراقي اليوم يعاني من التشتت وتعدد المجموعات التنظيمية والفكرية، وغياب رؤية مشتركة، وتآكل الروابط بين الأفراد والتنظيمات، نتيجة ظروف تاريخية معقدة. ومع ذلك فإن إعادة التواصل مع هذه القوى تشكل خطوة ضرورية لإحياء المجال اليساري بوصفه كتلة تاريخية قادرة على الفعل. فاليوم، وبعد سنوات من التراجع الديمقراطي وعودة الولاءات الطائفية والعشائرية، أصبح من الضروري أن يعاد الاعتبار للتيار اليساري الذي طالما شكّل رافعة للمصلحة العامة، والمدافع الأكثر صلابة عن العدالة الاجتماعية وحقوق العمال والنساء والشباب. إن الانفتاح على مجموعات اليسار والأفراد والتنظيمات القائمة يشكل فرصة لصياغة علاقات جديدة تتجاوز الإرث التنظيمي التقليدي، عبر أشكال متنوعة من العمل والتنسيق الميداني المشترك. ويمكن لهذه الخطوة أن تؤسس لبنية يسارية واسعة، لا تقوم على شرط التطابق الأيديولوجي، بل على وحدة الهدف: الدفاع عن الدولة المدنية، ومحاربة الفساد، ومواجهة عسكرة المجتمع، وتوفير بديل سياسي أمام جيل جديد يبحث عن معنى جديد للالتزام السياسي. ومن شأن هذا الانفتاح أن يكسر حالة العزلة المتبادلة، ويمنع الهدر المستمر للطاقات اليسارية التي تتبدد بسبب النزاعات الفرعية أو حساسية الهويات التنظيمية. إن بناء جبهة يسارية مرنة وواسعة سيخلق ثقلا نوعيا في الساحة السياسية يمكن أن يؤثر في مسار الأحداث، حتى لو لم يتحول مباشرة إلى قوة انتخابية ضخمة.

ثالثا: نحو تجمع وطني واسع ودائم

يعد المحور الثالث امتدادا طبيعيا للمحورين الأولين، إذ يدعو إلى تأسيس تجمع وطني واسع يضم القوى الديمقراطية واليسارية والوطنية والشخصيات المستقلة والمنظمات المهنية والاجتماعية. إن أهمية هذا التجمع

تنبع من ضرورة تجاوز موسمية التحالفات داخل العراق، وهي مشكلة بنيوية تُضعف أي حراك وطني لأن القوى غالبا ما تتجمع فقط قبيل الانتخابات ثم تتفكك بعدها. أما المقترح فيقوم على بناء إطار دائم، مرن، منفتح، قادر على صياغة برنامج وطني يتبنى أهدافا عامة ومتسقة تعبّر عن تطلعات السواد الأعظم من المواطنين. كما يشجع على صياغة آليات تنظيمية تحافظ على ديمومة العمل المشترك، عبر هيئة عامة مرنة تدير شؤون التحالف، وتحدد أشكال المشاركة في الانتخابات، وتضع خطة للتحركات السياسية والاجتماعية. إن مثل هذا التجمع يمكن أن يشكل الوعاء الوطني الذي طالما افتقدته القوى الديمقراطية، وعبره يمكن تحويل الغضب الشعبي إلى طاقة سياسية منظمة. كما يمكن لهذا الإطار أن يواجه القوى المسيطرة بمشروع بديل لا يقوم على المحاصصة أو الطائفية، بل على إعادة بناء الدولة على أسس المواطنة وسيادة القانون والعدالة الاجتماعية. يرى عاكف أن النجاح في المحاور الثلاثة سيقرب العراق خطوة نحو خوض انتخابات بقانون انتخابي عادل، والتخلص من الصيغ المشوهة مثل "سانت ليغو 1.7" الذي شكل أداة لإقصاء القوى المدنية وإعادة إنتاج النخب الحاكمة. كما سيساهم في محاصرة المال السياسي، وحصر السلاح بيد الدولة، وبالتالي خلق بيئة انتخابية أقرب للعدالة والمنافسة الحقيقية. وإذا تحققت هذه الشروط فإن الدخول في معارك انتخابية وسياسية يصبح أكثر ضمانا للنجاح، لأن الحزب لن يدخل حينها بوضعه الحالي، بل بوضع متجدد، مسنود بجبهة يسارية، ومسنود أكثر بتجمع وطني واسع يعبر عن مصالح الأغلبية الصامتة.

نحو أفق جديد لليسار العراقي

تضع مقولات حسان عاكف أمام اليسار العراقي، وفي مقدمته الحزب الشيوعي، لحظة تأمل تاريخية يجدر استثمارها بعمق ومسؤولية. فهذه المقاربة لا تقف عند حدود نقد الظواهر السطحية أو تسجيل المواقف، بل تتجاوزها إلى تشريح بنيوي يضع اليد على مواطن الضعف العميقة التي عطّلت قدرة قوى اليسار على التأثير في الحياة السياسية، وأفقدتها ما كان لها يوما من حضور راسخ في الوعي الاجتماعي العراقي. إن الإصرار على أن الهزيمة مجرد «طارئ انتخابي» يعكس غياب القراءة الجذرية؛ أما الاعتراف بكونها مؤشرا على أزمة عميقة، فهو المدخل الحقيقي لأي مشروع نهضوي جديد. ومن هنا تكتسب رؤية عاكف أهميتها بوصفها خارطة طريق تعيد تعريف الممكن السياسي في سياق تتغوّل فيه قوى المال والسلاح، وتتعزز فيه الانقسامات الهوياتية على حساب المشروع الوطني الجامع. في جوهر هذه المقاربة تتجاور ثلاثة محاور مترابطة: إصلاح داخلي جذري يعيد للحزب حيويته، وانفتاح يساري يرمم ما تهشّم من علاقات القوى التقدمية فيما بينها، وتجميع وطني واسع يتجاوز حدود الأيديولوجيا التقليدية نحو أفق ديمقراطي شامل. إن هذه المحاور، رغم بساطتها الظاهرية، تمثل تحولا نوعيا في التفكير السياسي؛ فهي تنقل العمل اليساري من دائرة الدفاع الانفعالي عن الذات إلى دائرة بناء البدائل الواقعية. ولا يمكن لأي حزب، مهما كانت خبرته، أن يتجاوز أزمته دون مراجعة هيكلية تلامس طبيعة

القيادة، والديمقراطية الداخلية، والآليات التنظيمية، وطرق تجديد الكوادر، وأشكال الوجود الميداني. فالوصف الذي قدمه عاكف لأوضاع الحزب الحالية لا يهدف إلى الإدانة، بل إلى الإشارة إلى أنّ استعادة المبادرة تبدأ من الداخل، وتحديدا من إعادة تأسيس علاقة سليمة بين العضوية والقيادة، وبين الهيكل التنظيمي والواقع الاجتماعي.

على الضفة الأخرى، يفترض الانفتاح على قوى اليسار أن تتجاوز الأطراف تاريخ خلافاتها ونزاعاتها، وأن تدرك أن الزمن السياسي الحالي لا يسمح برفاهية التشرذم أو الحسابات الصغيرة. فالتجربة العراقية بعد 2003 أثبتت أن القوى اليسارية، رغم امتلاكها للرصيد الأخلاقي والفكري الأعمق بين التيارات السياسية، بقيت عاجزة عن تشكيل كتلة تاريخية قادرة على فرض حضور وازن في لحظة الصراع السياسي. يعود ذلك إلى التشتت، وضعف التنسيق، والانكفاء داخل مساحات ضيقة، فضلا عن غياب رؤية مشتركة تعيد تعريف أولويات اليسار في دولة منهكة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا. من هنا تبدو دعوة عاكف إلى إعادة بناء فضاء يساري مشترك بمثابة محاولة لإعادة بناء الجسور بين مكوّنات مشتتة لكنها تحمل تراثا نضاليا واحدا، ولديها إمكانات كامنة يمكن، إذا ما نُظمت، أن تنتج قوة ضغط حقيقية تعيد التوازن إلى المشهد السياسي. أما المحور الثالث، المتعلق بإقامة تجمع وطني واسع ينفتح على القوى المدنية الديمقراطية والشخصيات المستقلة والمنظمات المهنية، فيرتبط بإدراك طبيعة التحولات العميقة التي يشهدها المجتمع العراقي. فالتغيير، كما أثبتت السنوات الماضية، لا يأتي من صراع الأيديولوجيات القديمة، بل من قدرة القوى الوطنية على بناء مشروع شامل يستوعب حاجات المواطن اليومية، ويستجيب لمطالب الطبقات الشعبية، ويواجه منظومة الفساد والمال السياسي والسلاح المنفلت. وفي ظل الانقسام المجتمعي وغياب الثقة بالدولة، يصبح تشكيل كتلة وطنية ديمقراطية واسعة ليس مجرد خيار سياسي بل ضرورة لبناء دولة حديثة قادرة على تجاوز أزماتها البنيوية. وهذا التحالف، لكي يكون فاعلا، يجب أن يكون مرنا ومنفتحا ومتواصلا، لا موسميّا كما اعتادت القوى المدنية في العراق، حيث تتشكل التحالفات ثم تختفي مع انتهاء الحدث الانتخابي.

إن المقاربة التي يقدمها عاكف ليست وصفة جاهزة بقدر ما هي إطار للتفكير وإعادة الترتيب. فهي تذكّر بأن العمل السياسي الناجح لا يقوم على ردود الأفعال، بل على بناء قواعد اجتماعية ثابتة، وعلى الحضور المستمر في الشارع والجامعة والنقابة ومحيط العمل، وعلى صياغة خطاب سياسي قادر على مخاطبة حاجات الناس الحقيقية. فاليسار العراقي لا يعاني من نقص في الأفكار، بل من نقص في ترجمة تلك الأفكار إلى ممارسات يومية تُراكم تأثيرا تدريجيا. وقد أثبتت التجارب العالمية أن الأحزاب اليسارية التي نجحت في التحول إلى قوى اجتماعية راسخة لم تفعل ذلك عبر القفزات الكبرى فقط، بل عبر العمل الدؤوب على الأرض، وإعادة بناء الثقة مع الطبقات التي تدّعي تمثيلها. إنّ تنفيذ هذه المحاور الثلاثة يحتاج إلى إرادة سياسية صلبة، لكنه يحتاج أيضا إلى شجاعة في ممارسة النقد الذاتي، وإلى استعداد للتخلي عن بعض المسلّمات التنظيمية

التي أثبتت السنوات عدم جدواها. فالتحول من حزب نخبوي إلى قوة اجتماعية لا يتم بقرار إداري، بل عبر إعادة بناء منظومة كاملة من العلاقات والانفتاح والمبادرة. كما أن بناء التحالفات يتطلب مرونة سياسية لا تُفهم على أنها تنازل عن المبادئ، بل كقدرة على توسيع قاعدة الفعل الوطني، وإعادة تعريف الأولويات وفق ما يفرضه الواقع وليس وفق ما تمليه الذاكرة السياسية.

وعلى المدى البعيد، يمكن لهذه الرؤية أن تعيد لليسار دوره التاريخي في تطوير الوعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العراق. فالحزب الذي ينجح في إصلاح نفسه، ويوسّع دائرة تحالفاته، ويعيد بناء علاقته بالناس، سيكون قادرا على خوض صراعاته السياسية بثقة أكبر، وعلى مواجهة منظومة المال والسلاح، وعلى المطالبة بقانون انتخابي عادل، وعلى المشاركة في إعادة بناء الدولة على أسس المواطنة والعدالة الاجتماعية. والأهم من ذلك، سيكون قادرا على تحويل الهزيمة من نهاية لمسار قديم إلى محفّز لمسار جديد، أكثر قدرة على التفاعل مع التحولات العميقة التي تشهدها البلاد. في النهاية، تشير مقولات حسان عاكف إلى حقيقة مركزية: أن مستقبل اليسار العراقي لن يُصنع بانتظار الظروف أو التحولات الكبرى، بل بالعمل اليومي المتراكم، وبالقدرة على ترجمة القيم اليسارية إلى ممارسات ملموسة في حياة المواطنين. وإذا تمكنت القوى الوطنية، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي، من تحويل هذه الرؤية إلى برنامج عمل مستمر، فإن الأفق سيظل مفتوحا أمام إمكانية نهضة يسارية جديدة، أكثر نضجا وواقعية، وأكثر قدرة على بناء عراق يتسع للجميع. إنها ليست مهمة سهلة، لكنها مهمة ضرورية؛ بل ربما تكون الفرصة الأخيرة لليسار كي يستعيد زمام المبادرة في بلد يحتاج إليه أكثر من أي وقت مضى.

البرلمان.. 20 عاماً من المحاصصة

د. نوري حمدان

عانت الحياة السياسية العراقية منذ عام 2003 من نظام المحاصصة الطائفية والإثنية، الذي يعيد توزيع السلطة على أساس الولاء الحزبي والمذهبي، وليس الكفاءة أو المصلحة العامة. تعود جذور هذا النظام إلى التسعينيات، حين بدأت بعض الأحزاب والحركات من المعارضة العراقية في المنفى بمبادرات لتقاسم المناصب وفق تقديرات نسب الشيعة والسنة والأكراد، كآلية لضمان تمثيل المكونات الرئيسة في أي حكومة مستقبلية. ومع دخول القوات الأميركية وإسقاط النظام السابق واعلانها احتلال العراق في ما بعد، وفقا لقرار مجلس الأمن رقم 1483 عام 2003، تمّ اعتماد هذا الترتيب ضمنيًا، ليصبح المعيار السائد لتشكيل السلطة السياسية، بغض النظر عن النصوص الدستورية لاحقا. رغم أن الدستور العراقي لعام 2005 يحظر التمييز الطائفي صراحة، ولا ينص على أي توزيع للمناصب على أساس ديني أو عرقي، فإن القوى السياسية تعاملت معه كقالب لتثبيت المحاصصة الفعلية. فتمّ تقاسم الرئاسات الثلاث: تولّى الكرد رئاسة الجمهورية، والشيعة رئاسة مجلس الوزراء، بينما نال السنّة رئاسة البرلمان. أما الوزارات والأجهزة الحكومية، فقد تحوّلت إلى مناطق نفوذ حزبية، تُستغل كأدوات للصفقات المالية والسيطرة السياسية، بما أسس لفساد منهجي مستمر.

على مدى أكثر من خمس دورات نيابية، ظلّ البرلمان العراقي عاجزًا عن بناء دولة المؤسسات، ولم تُستثمر السلطة في ترسيخ مبدأ فصل السلطات أو تعزيز المساءلة. واستمر اختيار الرئاسات العليا وفق أعراف المحاصصة الطائفية-الإثنية المعهودة كل أربع سنوات، مما أدى إلى تراجع الثقة الشعبية بالمؤسسات، كما تجلّى في الانتخابات البرلمانية لعام 2018، التي شهدت حالات تزوير وحرق صناديق اقتراع في بغداد ومحافظات أخرى، ما أثر على شرعية البرلمان.

وسط هذا المناخ، تصدّر المطالب الشعبية والسياسية تحجيم المحاصصة وتعزيز الكفاءة والمساءلة، لكن رغم الضغوط، بقيت ممارسات المحاصصة وأدواتها الأساسية صامدة داخل البنية السياسية العراقية،

محافظة على هيمنتها على صنع القرار وتأثيرها على حياة المواطنين اليومية.

الدورة النيابية الأولى (2005 – 2010)

انطلقت هذه الدورة في مناخ سياسي مضطرب اتّسم بتصاعد النزعة الطائفية والعرقية، ما أسّس لمرحلة من الانقسام المجتمعي العميق. فقد قاطع معظم العرب السنّة الانتخابات التشريعية والاستفتاء على الدستور، الأمر الذي انعكس مباشرة على موازين القوى داخل البرلمان.

توزّعت المناصب العليا وفق صيغةٍ طائفية - إثنية شبه ثابتة، حيث تولّى جلال طالباني رئاسة الجمهورية كونه كرديا، وأسند منصب رئيس الوزراء إلى إبراهيم الجعفري في الحكومة الانتقالية كونه شيعيا، قبل أن يخلفه نوري المالكي نهاية عام 2005، فيما نال السنّة رئاسة مجلس النواب.

أما على صعيد المفوضية والدوائر الانتخابية، فقد جرى توزيع المقاعد تبعًا للتقسيمات الجغرافية للمحافظات، مع تخصيص 25 % من المقاعد للنساء، وضمان تمثيل الأقليات القومية والدينية وفق ما نصّ عليه الدستور الجديد.

ورغم هذه الترتيبات التي كان يُفترض أن تؤسس لتوازن سياسي، فإنها تحوّلت عمليًا إلى محاصصة سلطوية كرّست مبدأ تقاسم النفوذ بدل بناء الدولة. لم تشهد الدورة إنتاجًا تشريعيًا فاعلًا، إذ طغت حسابات الكتل الكبرى على المصلحة العامة.

تفوق التحالف الشيعي المدعوم من المرجعية الدينية في النجف على منافسيه انتخابيًا، لكنه لم يحقق الأغلبية المطلقة، ما منح الأكراد ثلثًا معطلًا داخل البرلمان، وجعل تشكيل أي حكومة رهينًا بتوافق المكونات الرئيسية.

هذا التوازن الهشّ فتح الباب أمام احتكار الأحزاب الكبرى للسلطة والمناصب، وأضعف شرعية العديد من التشريعات، في حين زرع بذور الاحتقان الشعبي الذي سيتحوّل لاحقًا إلى موجات احتجاج واسعة في السنوات التالية.

الدورة النيابية الثانية (2010 – 2014)

جاءت الدورة النيابية الثانية لتكشف هشاشة النظام السياسي القائم على المحاصصة الطائفية - الإثنية، ولتختبر قدرته على الصمود أمام تناقضات المكونات العراقية؛ ففي انتخابات آذار 2010، تصدّر ائتلاف "العراقية" بزعامة إياد علاوي النتائج بفارق ضئيل عن ائتلاف "دولة القانون" بقيادة نوري المالكي. ومع ذلك، رفضت القوى الشيعية تمكين علاوي من تشكيل الحكومة، معتبرة أن رئاسة الوزراء من "الاستحقاقات الشيعية الثابتة" ضمن معادلة تقاسم السلطة.

وبعد جدل دستوري طويل حول تفسير الكتلة الأكبر، نجح المالكي في الاحتفاظ بمنصبه لولاية ثانية، لتستمر صيغة التوزيع الطائفي في المناصب العليا كما كانت، مع تكريس نفوذ أعمق لحزبه داخل مؤسسات الدولة. كما جرى تقسيم المحافظات ومراكز القرار على أسس الولاء الحزبي والمذهبي، مما عمّق الشرخ بين المكونات.

خلال هذه الدورة، عزّز المالكي تحالفاته مع بعض الفصائل الشيعية على حساب شركائه من القوى السنية والكردية. ولم يتمكّن البرلمان من القيام بإصلاحات جوهرية تُنهي نهج المحاصصة، بل ظلّ أسير التفاهمات السرّية بين زعماء الكتل الكبرى، حيث جرى

تمرير القرارات والتعيينات وفق مبدأ تقاسم النفوذ لا بناء المؤسسات. وهكذا رسّخت هذه الدورة سلطة المالكي المطلقة، وعمّقت الانقسام الذي مهد لانفجار الأزمات اللاحقة في البلاد.

الدورة النيابية الثالثة (2014 – 2018)

هذه الدورة جاءت في واحدة من أكثر المراحل خطورة في تاريخ العراق الحديث، إذ تزامن انطلاقها مع تمدد تنظيم داعش وسيطرته على مساحات واسعة من البلاد، ما فرض على القوى السياسية حالة طارئة من الوحدة الوطنية المؤقتة تحت ضغط التهديد الأمني الوجودي.

أُجريت انتخابات نيسان 2014 وسط استقطاب حاد بين معسكري دولة القانون بقيادة نوري المالكي وخصومه داخل البيت الشيعي نفسه، لتُسفر المفاوضات لاحقًا عن اختيار حيدر العبادي رئيسًا لمجلس الوزراء، في محاولة لامتصاص الاحتقان وإعادة التوازن السياسي بعد سنوات من التوتر بين المكونات.

ورغم الخطاب الداعي إلى تجاوز المحاصصة لصالح "حكومة الإنقاذ"، فإن التوزيع الطائفي للمناصب ظل على حاله، إذ استمر تقاسم الحقائب السيادية بين الشيعة والسنّة والأكراد ضمن القوالب القديمة ذاتها، من دون مراجعة حقيقية لآلية الحكم أو إصلاح مؤسسات الدولة. كانت الأولوية الأمنية هي العنوان الأبرز لتلك المرحلة، فجرى تهميش الملفات السياسية والخدمية لصالح الحرب ضد الإرهاب.

في عام 2016، أقرّ البرلمان قانون هيئة الحشد الشعبي، الذي ضمّ فصائل وميليشيات شيعية مسلحة تحت مظلة رسمية تابعة للدولة، مانحًا إياها امتيازات ورواتب مماثلة للقوات النظامية. شكّل هذا القانون تحولًا جوهريًا في بنية الأمن العراقي، إذ عزّز نفوذ القوى المسلحة الموازية، وأثار مخاوف المكوّن السني من ترسيخ عسكرةٍ طائفيةٍ جديدة تحت غطاء قانوني.

اقتصرت الإنجازات التشريعية في هذه الدورة على قوانين خدمية محدودة، بينما ظلّ الأداء النيابي أسير الانقسامات السياسية وتعطيل التوافقات. عانى المواطن العراقي خلال هذه السنوات من ضعف الخدمات وتفشي الفساد، في وقتٍ كانت فيه مؤسسات الدولة مثقلة بالصراع على النفوذ داخل الوزارات والهيئات.

وبذلك انتهت الدورة الثالثة من دون أن تحقق وعود الإصلاح أو أن تنهي نهج المحاصصة، بل تحولت "الوحدة الوطنية" التي فرضتها الحرب إلى غطاءٍ مؤقتٍ لاستمرار التوازنات ذاتها التي حالت دون بناء دولة مؤسسات حقيقية.

الدورة النيابية الرابعة (2018 – 2021)

دخلت الدورة النيابية الرابعة وسط آمالٍ عريضة بالتغيير بعد انتخابات أيار 2018، التي شهدت أدنى نسبة مشاركة منذ عام 2005، في دلالة واضحة على تراجع ثقة الشارع بالنظام السياسي القائم على المحاصصة. برز ائتلاف "سائرون" بزعامة مقتدى الصدر في صدارة النتائج، متقدمًا على تحالف "الفتح" المقرّب من فصائل الحشد الشعبي، ما أثار توقعات بولادة حكومة إصلاحية تتجاوز التوازنات التقليدية.

لكن تلك الآمال سرعان ما تلاشت، إذ فشلت

القوى السياسية في الاتفاق على آلية جديدة لتقاسم السلطة. تَحَوّلَ الخلاف بين الكتل الكبرى إلى مساومات مغلقة أفضت في نهاية المطاف إلى اختيار عادل عبد المهدي رئيسًا للوزراء بصفته مرشح تسوية توافقية لا ينتمي رسميًا لأي من التحالفين الرئيسيين. تشكّلت الحكومة على أساس المحاصصة نفسها، وتوزعت الحقائب واللجان البرلمانية وفق مبدأ التوازن الحزبي والطائفي، حتى إن تحديد اللجان الدائمة تأخّر لأشهر بسبب صراع الكتل على المناصب والنفوذ.

في ظل هذا الجمود، تصاعدت نقمة الشارع على الأداء السياسي والخدمات المتردية، إلى أن انفجرت احتجاجات تشرين الأول 2019، وهي أوسع حركة احتجاج مدنية في تاريخ العراق الحديث. خرج مئات الآلاف من الشباب في بغداد ومحافظات الجنوب، مطالبين بإنهاء الفساد والمحاصصة وتوفير فرص العمل، ورفعوا شعار "نريد وطن" في مواجهة الطبقة السياسية التي اتُهمت بالفساد والتبعية الخارجية.

قوبلت الاحتجاجات بعنفٍ مفرط خلّف مئات الشهداء وآلاف الجرحى، ما أدى إلى استقالة حكومة عبد المهدي في كانون الأول 2019 تحت ضغط الشارع. تولّت حكومة انتقالية برئاسة مصطفى الكاظمي مهمة التهيئة لانتخابات مبكرة وإصلاح قانون الانتخابات. وبالفعل، أُقِرَّ قانون انتخابي جديد يقوم على نظام "الدوائر المتعددة" و"المرشح الفردي"، في محاولة لتمكين المستقلين وتقليص نفوذ الكتل التقليدية. غير أن التنفيذ جاء محدود الأثر، إذ بقيت البنية السياسية خاضعة لنفس منظومة المحاصصة التي عطّلت الإصلاح وأبقت البرلمان عاجزًا عن محاسبة المتورطين بالفساد أو بجرائم قمع المتظاهرين.

وهكذا انتهت الدورة الرابعة وقد فشلت – مثل سابقاتها – في بناء دولة المواطنة، لكنها مثّلت نقطة تحول ووعي شعبي جديد عبّرت عنه ثورة تشرين، التي فتحت الباب أمام جيلٍ سياسي مختلف بدأ يتشكّل على هامش النظام القائم.

الدورة النيابية الخامسة (2021 – 2025)

انطلقت الانتخابات البرلمانية في تشرين الأول 2021 وسط أجواء من التطلّع إلى التغيير، بعد موجة الاحتجاجات الشعبية التي أعقبها حكم انتقالي. ورغم التعديلات الرمزية التي أدخلت على العملية الانتخابية، مثل خفض السنّ للمشاركة وإعادة تشكيل بعض الدوائر، أسفرت النتائج في نهاية المطاف عن تسوية سياسية مألوفة بدت وكأنها تعيد إنتاج نمط المحاصصة.

برز تحالف كتلة مستقبل الصدري بزعامة مقتدى الصدر كأكبر كتلة نيابية، إلا أنّه لم يتمكّن من تشكيل الحكومة منفرداً، فبدأت مفاوضات كثيفة أدّت إلى تكليف محمد شياع السوداني بتشكيل الحكومة، بينما تمّ انتخاب عبد اللطيف رشيد رئيساً للجمهورية، ومحمد الحلبوسي رئيساً لمجلس النواب. هذه التوزيعة أعادت تأكيد قاعدة تقاسم المناصب العليا بين المكونات القومية والطائفية ـ الشيعة، والسنّة، والأكراد.

خلال هذه الدورة، اشتدّ التركيز على ما يُسمّى "الإصلاحات التشريعية"، خصوصاً في النصف الثاني من الولاية. في 21 كانون الثاني 2025، صوّت البرلمان دفعة واحدة على ثلاثة مشاريع قوانين شائكة، هي: تعديل

قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959، وتعديل قانون العفو العام، وقانون إعادة العقارات إلى أصحابها في محافظة كركوك والمناطق المتنازع عليها.

جاء تمرير هذه المشاريع مثيراً للجدل ليس فقط لمضمونه بل لطريقة التصويت المجمّع التي اتّبعت، وهو ما دفعت به طعون إلى المحكمة الاتحادية العليا، التي اعتبرت أن بعض الإجراءات جاءت مخالفة للدستور.

في المقابل، وعلى الرغم من هذه الحراك التشريعي الظاهر، ظلّ أداء البرلمان محاطاً بانتقادات واسعة لعدم قدرته على محاسبة الفاسدين أو تقديم إصلاحات جوهرية في قطاعَي الخدمات العامة والاقتصاد، وقد بدا أنه أكثر انشغالاً بتوزيع المناصب وصراعات الكتل منه ببناء الدولة.

وفي المحصلة، انتهت الدورة الخامسة – كما سابقاتها – إلى استنساخ نهج المحاصصة وتحويل عملية الإصلاح إلى إعادة إنتاج للسلطة ضمن نفس القوالب، وإن كانت قد سجّلت بعض الحركات التشريعية التي تثير أسئلة حول مستقبل التوازن بين التغيير والمؤسسة.

أمثلة على القوانين الجدلية

شهد البرلمان العراقي في دورته الخامسة سلسلة من التشريعات التي أثارت جدلًا واسعًا داخل الأوساط السياسية والمجتمعية، لما حملته من دلالات على عمق الانقسام بين القوى المتنفّذة ومحدودية النقاش العام حولها:

- أبرز ما لفت الانتباه في هذه التشريعات هو التعديل على قانون الأحوال الشخصية، والذي يعيد بناء العلاقة القانونية بين المواطِن والدولة عبر إتاحة خيار الرجوع للمذهب الجعفري الشيعي في مسائل الزواج والطلاق والميراث، أو البقاء تحت قانون 1959، وهو ما اعتبره المعارضون تراجعاً خطيراً في حقوق المرأة والأسرة. ورأت منظمات مدنية ونسوية أنّ هذا التعديل يمثّل نكسة تشريعية لحقوق النساء بعد أكثر من نصف قرن على صدور القانون الأصلي الذي كان يُعدّ من أكثر القوانين المدنية تقدمًا في المنطقة.

- تعديل قانون العفو العام: واجه معارضة واسعة بدعوى أنه يفتح الباب أمام الإفراج عن مدانين في قضايا إرهاب وفساد، ويقوّض مبدأ العدالة والمساءلة الذي تطالب به الحركات الاحتجاجية. بينما دافعت عنه بعض الكتل بوصفه وسيلة لـ"المصالحة المجتمعية"، اعتبره آخرون محاولة لتبييض ملفات سياسية وأمنية حسّاسة.

- قانون إعادة العقارات إلى أصحابها في كركوك والمناطق المتنازع عليها: فجّر انقسامات بين القوى الكردية والعربية والتركمانية، إذ رأى فيه الأكراد خطوة لاستعادة ممتلكاتهم المصادرة في عهد النظام السابق، بينما اعتبره خصومهم تهديدًا للتوازن السكاني والإداري في المحافظة. وأثار هذا القانون مجددًا إشكالية تنفيذ المادة 140 من الدستور المؤجلة منذ عام 2005.

- قانون النفط والغاز الاتحادي: ظلّ حبيس الخلافات منذ عام 2007، إذ لم يتمكّن البرلمان حتى اليوم من تمريره بسبب الصراع المستمر بين بغداد وأربيل حول إدارة الثروات النفطية وتقاسم الإيرادات. يمثّل هذا التعطيل فراغًا تشريعيًا خطيرًا يكرّس فقدان الثقة بين المركز والإقليم، ويمنع وضع سياسة طاقوية وطنية موحّدة.

نظرة على الدورة السادسة المقبلة (2025 – 2029)

تتجه الأنظار نحو الانتخابات المقررة في تشرين الثاني 2025، وسط حالة من التشكيك العام في قدرة النظام السياسي على تجديد نفسه. تستعد الأحزاب التقليدية لخوض السباق بخطابات جديدة لكنها تحمل الوجوه نفسها التي هيمنت على المشهد طوال عقدين. في المقابل، تسعى قوى ناشئة، بعضها من رحم حركة تشرين، إلى كسر حلقة الاحتكار السياسي، غير أن فرصها محدودة بسبب قوانين انتخابية ترجّح كفة الكتل الكبرى وتمنحها الأفضلية في توزيع المقاعد.

تتسم الحملات الانتخابية بغياب البرامج التفصيلية، إذ تقتصر الشعارات على مفردات عامة مثل "محاربة الفساد" و"تحقيق العدالة الاجتماعية"، دون تقديم خطط تنفيذية واقعية. وفي ظلّ استمرار السيطرة الحزبية على مفوضية الانتخابات والتمويل السياسي، يبدو المشهد مهيّأً لإعادة إنتاج المنظومة القديمة بثوبٍ جديد.

خاتمة

على امتداد عشرين عامًا من التجربة البرلمانية، لم يتحوّل مجلس النواب العراقي إلى فضاء مؤسسي لصناعة التشريعات أو مراقبة السلطة التنفيذية، بل إلى ساحة مساومات طائفية وإثنية تحددها صفقات الكتل لا مصالح المواطنين. استُخدمت القوانين، بما فيها قوانين الانتخابات نفسها، أداةً لضمان التوازن بين القوى لا لبناء الدولة.

لقد فشلت المنظومة السياسية في ترسيخ مبدأ فصل السلطات، إذ ظلّ البرلمان خاضعًا لتأثير الأحزاب المتنفذة والمرجعيات الدينية، ما أفقده دوره التشريعي والرقابي الحقيقي. ولا يزال الإصلاح ممكنًا فقط عبر إعادة صياغة القواعد الدستورية والانتخابية على نحوٍ يضمن:

- قانون انتخابي عادل يُعيد الاعتبار للمواطنة لا للطائفة.
- مفوضية انتخابات مستقلة فعليًا.
- تشريعات تُعزّز الشفافية والمساءلة وتفصل بين النفوذ الحزبي ومؤسسات الدولة.

من دون هذه التحولات البنيوية، سيبقى البرلمان القادم استمرارا لدورة الانسداد السياسي، وسيظل الانقسام والجمود يعوقان قيام دولة قادرة على توجيه ثرواتها نحو التنمية والعدالة. وبين مطرقة المحاصصة وسندان الفساد، يظلّ العراق أمام فرصة ضائعة وأملٍ مؤجل لبناء مؤسسات تمثّل شعبه لا مكوناته.

الذكاء الاصطناعي
بين سطوة رأس المال وإمكانات التحرر

رزكار عقراوي
كاتب يساري مهتم بقضايا اليسار والتحولات الرقمية

مقدمة

الذكاء الاصطناعي إعادة إنتاج الهيمنة الطبقية بوسائل أكثر تطورًا وتحكما

يشكل الذكاء الاصطناعي اليوم أحد اهم ميادين الصراع الطبقي في العصر الرقمي، ولا يمكن التعامل معه كأداة تقنية محايدة او كإنجاز علمي مستقل عن البنية الاقتصادية السائدة. فكما أشار كارل ماركس في العديد من كتبه، فإن كل قفزة تكنولوجية تحدث داخل النظام الرأسمالي لا تؤدي إلى تحرير الإنسان، بل إلى إعادة إنتاج الهيمنة الطبقية بوسائل أكثر تطورًا. ولذلك فإن التطورات التكنولوجية الحالية، وعلى رأسها الذكاء الاصطناعي، ليست مجرد تطورات تقنية بلا خلفية طبقية، بل تتشكل داخل علاقات الإنتاج السائدة وتعمل على تعزيزها. ان كل تقنية جديدة يتم ادماجها في بنية الرأسمالية تتحول تلقائيا الى أداة بيد البرجوازية لتوسيع نفوذها وزيادة قدرتها على السيطرة على العمل والموارد والوعي، ما يجعل من الذكاء الاصطناعي احدى أكثر ادوات السيطرة الرقمية فاعلية في تاريخ النظام الرأسمالي.

ورغم ان الذكاء الاصطناعي يحمل في جوهره إمكانيات هائلة لخدمة البشرية وتقليل جهد العمل، وتحسين جودة الحياة وعلاج الأمراض وتطوير العلوم، وتسهيل الوصول إلى المعرفة، وتطوير التعليم الفردي، وتقليل الأخطاء البشرية في المجالات الحساسة مثل الطب والطيران، وتعزيز السلامة المهنية في الأعمال الخطرة، وتطوير تقنيات بيئية قادرة على مراقبة التلوث وإدارة الموارد الطبيعية بشكل أكثر كفاءة... الخ، إلا أنه داخل النظام الرأسمالي يتحول بشكل أساسي إلى سلاح طبقي يهدف إلى تكثيف الاستغلال والسيطرة. تماما كما حدث في الثورة الصناعية حين لم تُستخدم الآلات لتقليل ساعات العمل أو لتحسين شروط حياة الشغيلة، بل لتسريع وتيرة الاستغلال وتعظيم الأرباح على

حساب العمال. واليوم تتكرر العملية ذاتها، إذ تُستخدم الأتمتة والخوارزميات لتخفيض تكاليف الإنتاج، وتقليص الحاجة إلى العمالة البشرية، وفرض أنماط عمل أكثر هشاشة، وتسهيل السيطرة عبر نماذج تقييم ومراقبة رقمية مستمرة. ومن الممكن أن يتحول شغيلات وشغيلة اليد والفكر إلى جزء من منظومة تقنية لا يتحكمون فيها، بينما يجري استبدالهم تدريجيا بالأنظمة الذكية، ما قد يؤدي إلى تفاقم البطالة وتوسيع رقعة العمل غير المستقر من خلال دفعهم الى ايجاد اعمال بديلة، وخلق أشكال جديدة من الاغتراب والتهميش الاجتماعي والاقتصادي.

وفي الوقت نفسه، تتشكل علاقات إنتاج جديدة تُحكم فيها البرجوازية قبضتها على وسائل الإنتاج الرقمي ذاتها، بما يشمل البيانات، والبنى التحتية، والمنصات، والخوارزميات... الخ. وبذلك يصبح الذكاء الاصطناعي جزءا من عملية إعادة إنتاج الاستغلال في شكله الأكثر تطورًا وحداثة، اذ يجمع بين القدرة التقنية على إدارة العمل والتحكم في الوعي الجماهيري، وبين القدرة الاقتصادية على الاحتكار وتعظيم الأرباح، ما يجعل الفضاء الرقمي امتدادا طبيعيا لمعمل رأسمالي مفتوح يعمل على مدار الساعة.

ومن هنا، فإن فهم الذكاء الاصطناعي اليوم لا ينفصل عن تحليل البنية الطبقية للصراع الاجتماعي، ولا عن المهام اليسارية في مواجهة الهيمنة الرأسمالية. فالمسألة هي صراع سياسي طبقي حول من يمتلك التكنولوجيا، ومن يحدد اتجاهاتها، ولصالح من يتم توظيفها.

الذكاء الاصطناعي كأداة للسيطرة والقمع، ولغسل الوعي الجماهيري

لم تعد السيطرة الرأسمالية على الذكاء الاصطناعي تقتصر على إعادة إنتاج علاقات الإنتاج، بل أصبحت ايضا أداة مباشرة للسيطرة والقمع السياسي، ووسيلة فعالة لتثبيت بنية السلطة بكل اشكالها الناعمة والخشنة. إذ يُستخدم الذكاء الاصطناعي اليوم في أنظمة المراقبة الجماعية، والتعرف على الوجوه، وتحليل السلوك السياسي للأفراد والمجموعات، وبناء نماذج تنبؤية تحدد احتمالات الاحتجاج والتمرد، ما يسمح للأنظمة القمعية، وحتى تلك التي تُقدَّم كديمقراطية ليبرالية في الغرب وبدرجات مختلفة، بالتدخل المسبق لإحباط أو إضعاف أي مقاومة يسارية جذرية محتملة. فعندما تقترب حركة ما من تجاوز "الخطوط الحمراء" التي تهدد استقرار النظام الرأسمالي، تتحرك هذه المنظومات لتفكيكها بأشكال مختلفة قبل ان تتطور، عبر تقنيات متطورة قادرة على قراءة النوايا والسلوك وتصنيف البشر والمجموعات وفق معايير سياسية وأيديولوجية وأمنية.

الرقابة الرقمية اليوم تتجاوز بكثير حذف المحتوى أو حجب الحسابات، إذ تتخذ شكل "المراقبة الذاتية الطوعية"، حيث يبدأ المستخدمون والمستخدمات في التطبيقات الرقمية وحتى المجموعات بتعديل خطاباتهم وآرائهم خوفا من الحجب أو الاختفاء الخوارزمي أو العقوبات الرقمية. وتتحول الخوارزميات نفسها الى سلطة تأديبية، تدفع الافراد نحو الصمت أو الاخضاع والتدجين الفكري والسياسي المُخطّط له، وتقوّض قدرة التنظيمات اليسارية والتقدمية على التعبئة

والتحشيد الجماهيري. وبذلك ينزاح الفضاء الرقمي تدريجيا نحو سيطرة منطق السوق الرأسمالي وهيمنة الحكومات وبالأخص في الدول الاستبدادية، ويتحول الانترنت الى ساحة سيطرة ومراقبة لا تقل قسوة عن أجهزة الأمن التقليدية دون الحاجة الى الشرطة والجيوش.

ويظهر القمع الرقمي في صور متعددة، منها "الاحباط الرقمي"، حيث تعمل الخوارزميات على إضعاف إرادة الناشطين والناشطات عبر تقليل انتشار أصواتهم بشكل غير محسوس، وتضخيم فشل التجارب اليسارية، والترويج للخطابات المحبطة، من أجل زرع الشعور بالعجز واستحالة التغيير. ويصل القمع إلى حدود "الاغتيال الرقمي"، وهو محو كامل للبصمة الرقمية لأفراد أو مجموعات، عبر إغلاق الحسابات والمنصات وحجب المواقع وتدمير الروابط التنظيمية الرقمية، ما يؤدي إلى تقييد وتحجيم دور الأصوات اليسارية والتقدمية عن الجماهير وإضعافها في المجال العام. هذه الممارسات لا تختلف في جوهرها عن الاعتقال السياسي التقليدي، لكنها تعمل بطريقة ناعمة وغير محسوسة ومستمرة ولكن مؤثرة جدا، ضمن منطق السيطرة الخوارزمية المستمرة.

ولا يقتصر الذكاء الاصطناعي على القمع السياسي، بل يساهم ايضا في إعادة إنتاج التمييز الجندري والعرقي عبر خوارزميات تعكس انحيازيات البنى الاجتماعية الرأسمالية ذاتها. فالخوارزميات التي تُستخدم في التوظيف، والسكن، وتحديد الفرص والوظائف، والنظرة الى المرأة، غالبا ما تعيد إنتاج العقل الذكوري والعنصري والتمييز ضد النساء والفئات المهمشة، وتكرّس اختلال علاقات القوة في المجتمع، مما يجعل الذكاء الاصطناعي جزءا من سلسلة طويلة من الاضطهاد الاجتماعي والجندري.

ومثلما يُستخدم الذكاء الاصطناعي لمراقبة البشر، يُستخدم ايضا في تطوير الأسلحة الذكية، والطائرات المسيرة، والأنظمة العسكرية ذاتية القرار، التي توسع من قدرة الدول الرأسمالية الكبرى والاستبدادية على شن الحروب، وإخضاع الشعوب، وفرض توازنات دولية قائمة على العنف التكنولوجي. ويتحول الذكاء الاصطناعي بذلك إلى أداة لإدارة الصراعات السياسية والعسكرية بكلفة بشرية أقل للرأسمالية، وبكلفة اجتماعية وبيئية أعلى للشعوب، إذ تؤدي الأتمتة الى تسريع تدمير البيئة وتوسيع عمليات استخراج الموارد والمعادن اللازمة للصناعات التكنولوجية.

إلى جانب دوره في إعادة تشكيل علاقات العمل وتعزيز السيطرة والقمع، تُستخدم معظم تطبيقات الذكاء الاصطناعي، كما كان الحال مع الإعلام بمختلف أشكاله من قبل ولا يزال، كأداة للتحكم في الوعي والإدراك الجماهيري، وترسيخ القيم الرأسمالية في حياتنا اليومية. يتم ذلك من خلال الخوارزميات التي تتحكم في تدفق المعلومات، وتوجيه النقاشات العامة، وفرض واقع ثقافي أحادي يُكرّس هيمنة السوق والملكية الخاصة والاستهلاك الفردي باعتبارهما القيم الطبيعية الوحيدة الممكنة. الذكاء الاصطناعي اليوم هو أحد أكثر الأدوات فاعلية في تكريس هذه الهيمنة الفكرية، حيث يتم ضبط الخوارزميات لتوجيه الجماهير نحو قبول الرأسمالية كخيار ونظام أمثل بل ازلي، عبر خدمات تصنف مجانية وعمليات تأثير ناعمة وبطيئة

وغير محسوسة، تمنح الأفراد شعورا زائفا بالحرية والاختيار. وعلى المدى الطويل، قد تتحول الجماهير الى "قطيع خانع يُقاد بسهولة"، اذ يُضعف الذكاء الاصطناعي الوعي الطبقي عبر تسطيح الفكر اليساري والتقدمي، وتفريغ النقاشات السياسية من مضمونها، وتحويل الصراعات الكبرى الى قضايا جانبية بسيطة، بعيدا عن تحليل البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة على الاستغلال والنهب. وهكذا يتحول الذكاء الاصطناعي إلى جهاز ايديولوجي شامل، يعيد إنتاج السيطرة الطبقية بطريقة أكثر عمقًا وتغلغلًا وفاعلية من أي أداة استخدمتها الرأسمالية عبر تاريخها.

البديل اليساري الممكن والمطلوب في مواجهة العبودية الرقمية وتحرير التكنولوجيا

إنّ إعادة توجيه الذكاء الاصطناعي نحو خدمة الجماهير بدلا من رأس المال تتطلب تغييرا جذريا في الطريقة التي تُصنع وتُدار بها التكنولوجيا، وفي موقعها داخل الصراع الطبقي الدائر اليوم. فالرأسمالية لم تعد تكتفي باستغلال العمل اليدوي والفكري، بل توسعت نحو خلق نوع جديد من التبعية والعبودية البشرية. ولذلك، فإن مواجهة هذه البنية لا يمكن أن تتم عبر إصلاحات سطحية أو عبر الوعود البراقة للشركات حول اخلاقيات الذكاء الاصطناعي، إذ أثبتت التجارب ان هذه الأخلاقيات غالبا ما تُستخدم كغطاء لتجاوزات أعمق، وكآلية لاحتواء النقد لا لمعالجة جوهر المشكلة.

ما نحتاجه هو بناء بديل ونموذج تقدمي بديل قائم على أنظمة مفتوحة المصدر وشفافة كبديل ممكن الآن، تُدار ديمقراطيا وتخضع لرقابة وضوابط مجتمعية حقيقية، بحيث يشارك المجتمع في تحديد اتجاهات التطوير واهدافه وقيوده. هذا البديل الممكن يشكل نقطة بداية واقعية في ظل ميزان القوى الحالي، لأنه يسمح بخلق فضاءات رقمية مستقلة نسبيا عن هيمنة الشركات الاحتكارية، ويمنح الحركات اليسارية والقوى التقدمية قدرة على التحرّك وبناء أدواتها الخاصة دون انتظار تغيير جذري في البنية السياسية العالمية. هذه الأنظمة المفتوحة تتيح تبادل المعرفة بشكل أفقي ومحايد، وتعزز التعاون المجتمعي، وتحمي المستخدمين والمستخدمات من الخوارزميات السرية التي تتحكم في الوعي و السلوك والبيانات، وتفتح الباب أمام تطوير تقنيات تتوافق مع مواثيق حقوق الانسان العالمية وقيم العدالة والمساواة. وفي هذا الإطار يصبح العمل على فرض تشريعات محلية وعالمية صارمة تحد من سلطة الشركات التكنولوجية وتقيّد قدرتها على الاحتكار والتحكم في البيانات والخوارزميات جزءًا أساسيًا من أي مشروع تقدمي يسعى إلى تحرير الفضاء الرقمي.

لكن هذا البديل الممكن لا يكفي لتحقيق التحرر التكنولوجي الكامل، لذلك يظهر "البديل المطلوب" كأفق ضروري لا مفر منه، وهو الانتقال نحو ملكية مجتمعية للموارد الرقمية: البيانات، الخوارزميات، البنى التحتية، والمعرفة التقنية. إن تحرير التكنولوجيا من قبضة الشركات الاحتكارية لا يمكن أن يتحقق دون تحويل هذه الموارد الرقمية إلى ملكية جماعية فعليا، تُدار وفق مبادئ الديمقراطية التشاركية وتخضع لرقابة شعبية، بحيث تصبح التكنولوجيا

ثروة اجتماعية تُستخدم لصالح الجميع. هذا البديل المطلوب يشكل قلب مشروع يساري معاصر، لأنه يعيد تعريف التكنولوجيا بوصفها حقا إنسانيا ووسيلة للتحرر.

بهذا المعنى، يصبح البديل الممكن خطوة انتقالية ضرورية لفتح الطريق نحو البديل المطلوب. الاول يخلق هامشا للتحرك داخل النظام القائم، والثاني يطرح مشروع التحول الشامل لتفكيك البنية الرقمية الرأسمالية واستبدالها ببنية مجتمعية تحررية. ولا يمكن الوصول إلى البديل المطلوب دون المرور بالبديل الممكن. كلاهما يشكلان معا الأساس العملي والنظري لبناء استراتيجية يسارية معاصرة لمواجهة الرأسمالية الرقمية والعبودية التكنولوجية التي تفرضها.

وفي هذا السياق، يُعدّ تطوير القدرات اليسارية في المجال التقني ضرورة استراتيجية لا تقل أهمية عن تطوير القدرات السياسية والفكرية والتنظيمية والإعلامية والعمل الجماهيري. فكما لا يمكن لقوى اليسار الاعتماد على الإعلام الرأسمالي وتكتفي بنقده دون بناء إعلامها المستقل، وكما تطوّر فكرها وأدواتها التنظيمية خارج قوالب الهيمنة السائدة، فإن عليها أيضًا بناء بدائلها التكنولوجية المستقلة، وعلى رأسها الذكاء الاصطناعي، بما يخدم مشروعها التحرري الشامل.

ولا يمكن فصل الصراع حول الذكاء الاصطناعي عن الصراع الطبقي الأوسع، إذ لم تعد التكنولوجيا أدوات هامشية، بل أصبحت قلب العملية الإنتاجية ومنظومة تعيد إنتاج القوة الطبقية على مستوى عالمي. ولذلك فإن مواجهة استغلال الذكاء الاصطناعي وعموم التكنولوجيا هي جزء أساسي من النضال التاريخي ضد الرأسمالية. إن انتزاع التكنولوجيا من يد رأس المال وتحويلها إلى قوة تحرر جماعي هو شرط لتحقيق العدالة الاجتماعية والبديل الاشتراكي، وضرورة تفرضها التحولات الجارية أمامنا. وإذا لم تتشكل بدائل يسارية واضحة قادرة على كسر الاحتكار التكنولوجي، فقد نواجه مرحلة جديدة من العبودية الرقمية، بل يمكن القول إننا نعيش بداياتها بالفعل. مرحلة تتحول فيها التكنولوجيا إلى بنية هيمنة شاملة تتحكم بإيقاع الحياة، وتحدد ما يجب التفكير به واستهلاكه والعمل عليه، وحتى تفرض حدود النضال اليساري نفسه. لذلك يصبح تحرير التكنولوجيا ضرورة وجودية، ومهمة مركزية للقوى اليسارية والتقدمية الساعية لبناء مجتمع يقوم على المساواة والعدالة والملكية الجماعية للموارد الرقمية والمادية معًا.

بناء أمميات يسارية رقمية

كما أشرت، تواجه البشرية اليوم سيطرة عالمية غير مسبوقة من قبل الشركات التكنولوجية الكبرى، والدول الرأسمالية، والأنظمة الاستبدادية على الذكاء الاصطناعي وعموم التكنولوجيا، مما يجعل تشكيل تحالفات وأمميات رقمية يسارية عالمية ضرورة حتمية لمواجهة هذه الهيمنة. وفي مواجهة هذا المستوى من السيطرة، لم يعد بإمكان أي تنظيم يساري أو تقدمي محلي التصدي منفردًا لإمبراطوريات التكنولوجيا العملاقة التي تمتد عبر القارات وتمتلك نفوذا ماليا وسياسيا وإعلاميا يجعلها بمثابة دول عظمى فوق قومية ودون أطر أو قوانين.

لذلك يجب أن تتجاوز الأمميات اليسارية الجديدة الخلافات السياسية والفكرية والتنظيمية التي

شتّتت جهود القوى اليسارية والتقدمية لعقود طويلة، وأن تتبنى رؤية وحدوية تستند إلى الدفاع عن الإنسان وحقوقه وقيم المساواة والعدالة في مواجهة العبودية الرقمية التي تُفرض عليه بشكل ناعم ومتدرج. إن بناء جبهة يسارية عالمية في مجال التكنولوجيا هي ضرورة سياسية ووجودية لضمان ألا تتحول البشرية الى مجرد وقود للخوارزميات التي تديرها الشركات الاحتكارية والدول الرأسمالية الكبرى. ويتطلب هذا العمل التحالفي تطوير تقنيات بديلة مفتوحة المصدر، أو نماذج يسارية للتحكم بالتكنولوجيا، تعكس قيم العدالة الاجتماعية والمساواة.

وتحتاج هذه المواجهة إلى سياسات وبرامج فعالة تدار من قبل أطر تنظيمية أممية، تبدأ بتأمين موارد مالية مستقلة عبر التمويل التعاوني، وحملات الدعم الجماهيري، وإنشاء صناديق تضامن رقمية عابرة للحدود، بعيدًا عن التمويل المشروط من الحكومات الرأسمالية والمؤسسات التي تعمل على احتواء أي مشروع يساري تقدّمي. إنّ الاستقلال المالي شرط سياسي يحمي المبادرات اليسارية من الوقوع في فخ التبعية، ويضمن قدرة هذه المشاريع على اتخاذ قرارات جذرية دون ضغط خارجي. كما ينبغي النضال من أجل فرض سياسات ضريبية تصاعدية على الشركات التكنولوجية الكبرى، وتوجيه جزء من أرباحها الهائلة لدعم مشاريع مجتمعية وتعاونية تعزز البنية التحتية الرقمية العامة. فهذه الشركات تعتمد على عمل غير مدفوع، وعلى استغلال بيانات وسلوك ومحتوى المستخدمين والمستخدمات، مما يؤدي إلى خلق فائض قيمة رقمي ضخم يُنتَج يوميًا من قبل الجماهير دون أن يحصلوا على أي مقابل. ومن الطبيعي إذن أن يُعاد توزيع جزء من هذه الأرباح الاحتكارية لخدمة المجتمع الذي تُبنى عليه إمبراطورياتها الرقمية.

ولا يمكن تجاهل ردّ الفعل الرأسمالي المتوقع، اذ ستعمل الشركات الاحتكارية والدول الكبرى المهيمنة على فرض عقبات قانونية وتقنية وسياسية لإحباط أي بدائل تكنولوجية يسارية وتقدمية. ولن تتردد هذه القوى في استخدام أدوات الرقابة والضغط الاقتصادي والسياسي وشيطنة المبادرات التقدمية، بل وحتى تخريبها عبر الهجمات السيبرانية أو تشويه سمعتها في الإعلام الرأسمالي السائد. ولذلك يصبح من الضروري تبني استراتيجيات استباقية تقوم على تطوير أنظمة مقاومة للقمع التكنولوجي، وأنظمة لامركزية قادرة على العمل رغم الضغوط، بما يضمن الاستقلالية الرقمية، واستمرارية المشاريع التقدمية، وكذلك القدرة على المنافسة التكنولوجية الفعلية في مواجهة الشركات الاحتكارية. وفي هذا السياق، تصبح الأمميات اليسارية الرقمية مساحة لتشارك المعرفة والتنسيق والعمل المشترك في المجال الرقمي، وتطوير المهارات التقنية، وبناء شبكات تضامن حقيقية تعمل من اجل خلق توازن قوى جديد داخل الفضاء الرقمي.

جذب الشباب وتطوير الكفاءات ومحو الأمية الرقمية داخل التنظيمات اليسارية

تستثمر الرأسمالية بشكل مكثف ومتواصل في الأدوات الرقمية لتعزيز هيمنتها. وفي المقابل، تعاني معظم التنظيمات اليسارية من فجوة رقمية واضحة تشل قدرتها على

التأثير في الفضاء العام وتحد من حضورها في المجتمع، رغم كون هذا الفضاء اليوم أحد أكبر مسارح الصراع الاجتماعي والسياسي.
لم يعد الوجود الرقمي مقتصرًا على إدارة صفحات التواصل الاجتماعي أو المواقع الإلكترونية ونشر البيانات التقليدية، وإنما أصبح ضرورة استراتيجية مرتبطة ببناء بنية تحتية تكنولوجية مستقلة تملكها وتديرها التنظيمات اليسارية والتقدمية، وتسمح لها بممارسة دورها السياسي دون تبعية لمنصات رأسمالية تتحكم بخوارزميات الانتشار والتفاعل. وفي هذا السياق، تبدو المواجهة الرقمية اليوم أقرب إلى معركة الفيل والنملة :رأسمالية تمتلك شركات عملاقة وموارد لا محدودة وخوارزميات مهيمنة، في مقابل يسار محدود الموارد ولكنه قادر، عبر التنظيم والوعي والابتكار، على إحداث تأثير فعلي وتغيير مسار الفضاء الرقمي نفسه.
ولضمان بقاء اليسار في هذا العصر، يصبح التركيز على محو الأمية الرقمية ضرورة تنظيمية وفكرية، لذلك يجب تطوير برامج تدريبية تُمكن القيادات والأعضاء ومن مختلف المستويات من فهم الأدوات الرقمية واستخدامها بشكل فاعل، بل والمساهمة في تطويرها ايضا، بما يشمل الاستخدام الفاعل للذكاء الاصطناعي، إدارة البيانات، الأمن الرقمي، فهم الخوارزميات، تحليل الجمهور، وانشاء المحتوى التقدمي المؤثر... الخ. ان امتلاك المعرفة الرقمية اليوم هو جزء من امتلاك أدوات الإنتاج نفسها، وكل تنظيم يفشل في تحقيق هذا التحول الرقمي سيجد نفسه خارج الصراع السياسي الفعلي، مهما كانت شعاراته تقدمية ويسارية.
ويلعب الشباب دورا محوريا في هذا التحول، فهم الفئة الأكثر قدرة على استيعاب التطورات التكنولوجية الحديثة، والأكثر تفاعلا مع أدوات الذكاء الاصطناعي وشبكات التواصل والمنصات الرقمية الجديدة. ومن خلال مهاراتهم في مجالات مثل اليوتيوب، الأمن الرقمي، البرمجة، تحرير الفيديو، تحليل البيانات، والتعامل مع الخوارزميات..... الخ، يمكنهم ليس فقط سد الفجوة الرقمية داخل التنظيمات اليسارية، بل قيادتها نحو بناء سياسات رقمية مستقلة تتجاوز روتين العمل التقليدي. ويصبح دور الشباب هنا ليس تنفيذيا فقط، وإنما قيادي، اذ يمتلكون القدرة على إدخال اليسار إلى فضاءات جديدة كانت حكرا على القوى الرأسمالية لعقود، والمشاركة في صياغة سياسات أكثر علمية وواقعية، تستند إلى ما هو قابل للتحقق الآن، لا إلى ما هو مرغوب نظريًا فقط، وبما يضمن انتقال اليسار من مستوى الشعارات إلى مستوى الفعل القادر على تغيير موازين القوى وفق التوازنات الطبقية القائمة.
ويتطلب ذلك ايضا جذب الكفاءات التقنية نحو الفكر اليساري، وتوفير بيئات تنظيمية مرنة تتناسب مع طبيعة العمل التكنولوجي، وتتيح للمهندسين والمبرمجين والمصممين والمهتمين بالتكنولوجيا العمل على مشاريع تقدمية مستقلة، بعيدا عن ضغوط ومتطلبات الشركات الاحتكارية.
يجب ان يشعر هؤلاء بأن التنظيمات اليسارية ليست كيانات جامدة وبيروقراطية، بل فضاءات حية تستطيع احتضان الإبداع الرقمي وتقديره بوصفه جزءا من النضال الاجتماعي، ويتطلب ذلك اشكالا مرنة من التنظيم والعمل الحزبي. ويجب أن تشمل هذه الجهود إنشاء مدارس رقمية وورشا تعليمية

مفتوحة محليا وعالميا، تُقدم تدريبات متقدمة في الاستخدام الفاعل للتكنولوجيا، الأمن الرقمي، تحليل البيانات، بناء المنصات الرقمية، تطوير البرمجيات التعاونية، وتدريب كوادر على إنتاج إعلام يساري قادر على المنافسة في فضاء تهيمن عليه الرأسمالية.

كما ينبغي تعزيز التأثير اليساري داخل الشبكات المهنية والمنصات التقنية الكبرى، لتوسيع نطاق الأفكار التقدمية في الأوساط التكنولوجية، وجذب المزيد من الكفاءات إلى صفوف اليسار، بحيث يصبح اليسار فاعلا حقيقيا داخل البنية الرقمية بدل ان يبقى متفرجا وبعيدا عنها.

إن تحويل الشباب إلى قوة يسارية رقمية مؤثرة، وتطوير كفاءات تقنية داخل التنظيمات اليسارية، يشكلان جزءًا أساسيًا من مواجهة الرأسمالية الرقمية، وشرطًا ضروريًا لبناء بديل تقدمي قادر على الصمود والمنافسة وخلق رؤى جديدة للتحرر والعدالة الاجتماعية في زمن أصبحت فيه التكنولوجيا جزءًا أساسيًا من البنية التحتية للوعي ذاته.

وفي هذا السياق يبرز اليسار الإلكتروني بوصفه امتدادًا مكملًا ومطوِّرًا لليسار التقليدي، يستفيد من الأدوات الرقمية والمعرفة التكنولوجية لبناء منصات مستقلة، وصياغة خطاب أكثر تأثيرًا، وتعزيز قدرته على التنظيم والحشد في الفضاء الرقمي.

إن هذا اليسار الرقمي، بمرونته الفكرية والتنظيمية وقدرته على الوصول إلى جمهور واسع، يشكل رافعة مهمة لتجديد الفكر والممارسة اليسارية وربط النضال الاجتماعي بأدوات العصر ووسائله.

الموقف من تطبيقات الذكاء الاصطناعي الحالية، هل نستخدم أدوات العدو؟

السؤال المهم هنا: هل يمكن للقوى اليسارية الاستفادة من الذكاء الاصطناعي الحالي رغم كونه منتجا رأسماليا غير محايد؟؟!

هذا السؤال يعكس الازدواجية الصعبة بين الحاجات الآنية للنضال وبين الرؤية الاستراتيجية طويلة الأمد لبناء بدائل رقمية يسارية تقدمية. فالذكاء الاصطناعي، كما يُنتج ويوجه اليوم، ليس أداة تقنية محايدة يمكن استخدامها دون ثمن سياسي. هو جزء من بنية السيطرة الرأسمالية، ومحصلة لجهود شركات احتكارية ودول عظمى تهيمن على البيانات والبنية التحتية والمعايير التقنية. لذلك فإن الجواب لا يمكن أن يكون بسيطا أو مباشرا بنعم أو لا، بل يجب أن ينطلق من إدراك أن أي استخدام لهذه الأدوات يجري داخل فضاء طبقي منحاز بطبيعته.

ومع ذلك، ورغم الطابع الرأسمالي للذكاء الاصطناعي الحالي، يمكن للحركات اليسارية والتقدمية استغلاله تكتيكيا والاستفادة منه وبحذر مدروس ووعي نقدي لتوسيع نطاق تأثيرها في مواجهة الهيمنة الرأسمالية وأنظمة الاستبداد. فالتكنولوجيا، وإن كانت منتَجًا رأسماليًا، يمكن أن تُعاد قراءتها وتوظيفها في سياقات مقاومة، بحيث نستخدم أحد أقوى أسلحة الرأسمالية في مواجهتها نفسها. حيث يمكن توظيف هذه التكنولوجيا في تحليل البيانات السياسية والاجتماعية، وفهم أنماط التغيرات الاقتصادية، وتحديد القضايا الأكثر إلحاحا بالنسبة للطبقات الكادحة، مما قد يتيح رؤية تحليلية أكثر عمقا، ويمنح التنظيمات اليسارية قدرة على صياغة سياسات واقعية تستند الى قراءة أكثر علمية ومادية للواقع.

كما يمكن دراسة توجهات الرأي العام باستخدام تقنيات النمذجة والتحليل التنبئي والتغذية العكسية، مما يساعد على تطوير برامج سياسية تتوافق مع الاحتياجات الفعلية للجماهير، ويجنب اليسار الوقوع في فخ التجريد أو الانفصال عن الواقع الاجتماعي.
إضافة إلى ذلك، يمكن للذكاء الاصطناعي أن يكون أداة فعالة لكشف التضليل الإعلامي الذي تمارسه المؤسسات الرأسمالية والأنظمة الاستبدادية، وتحليل الخطاب الإعلامي السائد لتفكيك سياسات التلاعب والهيمنة الفكرية. والاستفادة منه في تطوير خطاب يساري تقدمي قادر على فضح البنى الطبقية والآليات الدعائية للرأسمالية، وتعزز من حضور اليسار في الفضاء العام. حيث يمكن لهذه الأدوات ان تعزز الإعلام اليساري الذي يعكس مصالح شغيلات وشغيلة اليد والفكر، من خلال إنتاج محتوى دقيق وبلغات عديدة، سريع، منخفض الكلفة، وأكثر قدرة على الوصول الى الجماهير. فالخوارزميات، رغم انحيازها الهيكلي للرأسمالية، يمكن استخدامها في تحديد الفئات المستهدفة، وتحسين الاستراتيجيات الإعلامية، وتوسيع نطاق التأثير السياسي لليسار.
وعلى المستوى التنظيمي، يمكن للذكاء الاصطناعي ان يسهم في تحسين آليات التنسيق والتفاعل داخل التنظيمات اليسارية، عبر تحليل ديناميكيات العمل التنظيمي ورصد مكامن القوة والضعف وتعزيز الانسجام بين الأعضاء والكتل، وتحسين إدارة الصراعات الداخلية بطريقة علمية، بالإضافة الى دعم اتخاذ القرار عبر تحليل البيانات التاريخية والتنظيمية. كما يمكن ان يساعد في إدارة المعلومات داخل التنظيمات، وتحليل مدى فاعلية السياسات الحالية، وتحديد أنماط العمل الأكثر نجاحا، مما يسهل تحسين الأداء الجماعي وتقليل البيروقراطية وتعزيز التفاعل الداخلي بشكل أكثر سلاسة وفعالية.
ومع ذلك، لا بد من التعامل مع هذه التكنولوجيا بحذر ووعي نقدي صارم وحس أمني دقيق، بحيث تظل أداة مساندة لا قوة مهيمنة، ويُمنع تماما ان تتحول الى بديل عن النضال السياسي والجماهيري والميداني على الارض. فالاعتماد المفرط على التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي يمكن ان يؤدي الى إعادة تشكيل أولويات الحركات اليسارية وفق منطق تقني محكوم ببيئة رأسمالية معادية بالجوهر، مما قد يفرغ العمل اليساري من مضمونه الطبقي ويحوّله إلى نشاط تقني منفصل عن جذوره الاجتماعية. كما يجب ان تكون جميع هذه الأنشطة تحت رقابة بشرية واعية، مع تطوير معايير أخلاقية وتنظيمية داخلية تمنع تحول التكنولوجيا الى سلطة فوقية داخل التنظيم نفسه. فالخطر لا يكمن فقط في الخوارزميات التي تهيمن عليها الرأسمالية، بل ايضا في انتقال هذه الهيمنة الى داخل الحركة اليسارية دون وعي وبشكل غير مباشر. ولذلك يجب ان تبقى التكنولوجيا اداة تُستخدم ضمن أهداف سياسية واضحة، لا صاحبة القرار ولا محددة لوجهة النضال.

الخاتمة والاستنتاجات

إنّ تحرير الذكاء الاصطناعي والتكنولوجيا الرقمية من قبضة رأس المال وتحويلهما إلى أدوات في خدمة الجماهير هو ضرورة نضالية ملحّة في مواجهة النظام الرأسمالي، الذي يُسخّر هذه التقنيات لتعزيز الهيمنة

الطبقية وتعميق الفجوات الاجتماعية. لا يمكن أن تُترك التكنولوجيا تحت سيطرة الشركات الاحتكارية والدول المهيمنة والاستبدادية، بل يجب أن تكون تحت رقابة شعبية ديمقراطية تُعيد توجيهها نحو تحقيق العدالة والمساواة، وتفكيك علاقات الإنتاج القائمة على الاستغلال، وبناء مجتمع اشتراكي ديمقراطي قائم على الملكية الجماعية والإدارة المجتمعية للموارد الرقمية. كما يجب أن يكون الاستخدام التكنولوجي خاضعًا لمعايير بيئية صارمة، بحيث يُوظَّف الذكاء الاصطناعي في الحد من الأضرار البيئية، بدلًا من أن يكون أداة جديدة لاستنزاف الموارد وتفاقم التغير المناخي.

ولكن مقاومة هذه الهيمنة لا يمكن أن تتم بشكل فردي أو معزول، بل تتطلب بناء أمميات يسارية وتحالفات تقدمية رقمية قادرة على فرض بدائل تقنية تقدمية، وتعزيز التعاون والتنسيق بين التنظيمات اليسارية والتقدمية، والنقابات العمالية، والمنظمات الحقوقية، والمهتمين بالتكنولوجيا.

ومن الضروري أيضًا تأمين موارد مالية مستقلة تدعم هذه الجهود، عبر آليات تمويل جماعية وتعاونية.

إضافة إلى ذلك، يجب سدّ الفجوة الرقمية داخل التنظيمات اليسارية عبر تعزيز محو الأمية الرقمية، واستقطاب الكفاءات التقنية. لا يمكن لليسار أن يظل متفرجًا على تطورات التكنولوجيا، بل عليه اختراق القلعة الرقمية، ليس فقط عبر نقد النظام القائم، بل من خلال إنتاج بدائله التقنية اليسارية.

وفي المرحلة الحالية، ينبغي على التنظيمات اليسارية التعامل مع الذكاء الاصطناعي بحذر ووعي نقدي، مستثمرةً إمكانياته في التحليل السياسي، والحشد الجماهيري، والإعلام، وغيرها. إنّ النضال من أجل تحرير التكنولوجيا هو جزء لا يتجزأ من النضال الطبقي ضد الرأسمالية، ولا يمكن تحقيق تحرر حقيقي دون السيطرة الجماعية على أدوات الإنتاج الرقمية.

في النهاية، لا يتعلق الأمر بالتكنولوجيا وحدها، وإنما بالصراع على مستقبل المجتمع الإنساني نفسه: على من يحدّد اتجاه المعرفة، ومن يتحكم في تدفق المعلومات، ومن يصوغ الوعي الجماعي، ومن يقرر شكل المستقبل.

إنّ السؤال الجوهري يبقى معلّقًا بإلحاح: هل نحن، كقوى يسارية وتقدمية في العالم أجمع، مستعدون فعلًا لخوض غمار هذه الحرب الرقمية المعقّدة والطويلة والمتعددة الجبهات؟ بعد أن تراجعنا وخسرنا معارك عديدة أمام الرأسمالية، محليًا وعالميًا، هل نملك الجرأة على إعادة بناء اليسار فكريًا وتنظيميًا وسياسيًا ليكون على مستوى التحديات التي يفرضها العصر الرقمي؟ اللحظة التاريخية لا ترحم، والمستقبل لن ينتظر أحدًا. فإما أن نلتحق به ونشكّله بوعي ونضال، أو نُترك على هامشه خاضعين لصيغ جديدة ومتطورة من الاستغلال والقهر.

ليس أمامنا خيار سوى المواجهة. ولتكن هذه المعركة الرقمية لحظة ولادة جديدة ليسار أكثر شجاعة، أكثر جذرية، أكثر علمية، وأكثر قدرة على قيادة عصره.

للمزيد راجع:

1. اصلاح اجتماعي أم ثورة - روزا لوكسمبورغ – نسخة الكترونية
https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=37504

2. العمل المأجور ورأس المال - كارل ماركس – نسخة الكترونية
https://www.noor-book.com/%D9%83%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A3%D8%AC%D9%88%D8%B1-%D9%88%D8%B1%D8%A3%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%84-pdf

3. السيطرة على الإعلام - نعوم تشومسكي – نسخة الكترونية
https://www.noor-book.com/%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%B7%D8%B1%D8%A9-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%85-pdf

4. الذكاء الاصطناعي الرأسمالي، تحديات اليسار والبدائل الممكنة: التكنولوجيا في خدمة رأس المال أم أداة للتحرر؟ رزكار عقراوي – نسخة الكترونية
https://rezgar.com/books/i.asp?bid=3

5. الرأسمالية الرقمية من منظور ماركس - إبراهيم يونس
https://www.al-akhbar.com/Capital/364495

6. دانيال مورلي: الذكاء الاصطناعي: هل هو خطر على البشرية أم على الرأسمالية؟
https://marxy.com/?p=8218

7. يونس الغفاري: شبكات التواصل الاجتماعي والقيمة المضافة
https://revsoc.me/technology/46891/

8. حسن إسميك: "الذكاء الاصطناعي: بين خدمة البشرية أو التفوق عليها" - مركز ستراتيجيكس للدراسات.
https://strategiecs.com/ar/analyses/artificial-intelligence-serving-humans-or-surpassing-them

9. Tony Burns: Marx, automation and the politics of recognition within social institutions
https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/03017605.2024.2391619#d1e107

10. Nigel Walton: Rethinking of Marxist perspectives on big data, artificial intelligence (AI)
https://www.sciencedirect.com/science/article/abs/pii/S0040162521000081

11. Rezgar Akrawi: The most prominent intellectual and organizational foundations of the electronic left (E-Left)
https://libcom.org/article/most-prominent-intellectual-and-organizational-foundations-electronic-left-e-left

أوراق في التأمين
تصورات سريعة حول الحرب على غزة والتأمين

مصباح كمال

قبل ما يقرب من سنتين نشرت مقالاً مترجمًا مع هوامش وإضافات بعنوان "تأمين أخطار الحرب" كتبت فيه الآتي:

ليس لدي معلومات كافية عن وضع التأمين في قطاع غزة، وآمل أن تثير هذه الورقة اهتمام القراء المتابعين لتقديم ما لديهم. يمكن القول عمومًا إن الأعمال الحربية تؤدي بشكل عام الى انخفاض في النشاط التأميني وارتفاع أسعار التأمين كما حصل بعد الحرب الأوكرانية - الروسية، وكما هو حاصل الآن بالنسبة لتأمين الملاحة البحرية في البحر الأحمر، بسبب هجوم قوات الحوثي على السفن المتجهة إلى إسرائيل. وبالنسبة لقطاع غزة فإن الإبادة البشرية والتدمير المادي، غير المسبوق في العالم العربي، من قبل نظام الاحتلال والأبارتايد الإسرائيلي المدعوم من الولايات المتحدة، والذي هو متأثر أساساً بالركود الاقتصادي بسبب الحصار الإسرائيلي الطويل، قد أوقف النشاط التأميني. ومع القتل المنهجي اليومي المستمر وتدمير البنى التحتية وتفكيك النسيج الاجتماعي والاقتصادي، وعلى مرأى العالم الغربي المتقدم، فإن نشاط التأمين في غزة سيظل معلقًا لحين وقف الأعمال الحربية. ويوفر لنا الغزو والاحتلال الأمريكي للعراق (2003) مثالاً لما يعنيه الغزو والتدمير وتفكيك الدولة من آثار سلبية على النشاط التأميني، فقطاع التأمين العراقي اليوم يراوح في مكانه ومقارنته بالفترة ما قبل 2003 تثير الحزن.[1]

واليوم أعيد القول: ليس لدي معلومات كافية عن وضع التأمين في قطاع غزة، وآمل أن تثير هذه الورقة اهتمام القراء المتابعين لتقديم ما لديهم. وليس هناك ما يسعف البحث والكتابة ولذلك فإن هذه الورقة ليست إلا محاولة لإثارة قضايا أساسية ذات علاقة بالنشاط التأميني، لعلها تحفز الغير على البحث.[2]

نظرة عامة

في العادة لم تكن أوضاع التأمين في غزة موضوعًا للتداول العام إلا لمامًا، مستورًا

داخل الحديث عن قطاع التأمين الفلسطيني، ولكن مع بدء حرب الإبادة في غزة توقف الحديث عن قطاع التأمين في غزة بالكامل. لم نعد نقرأ في الصحافة التأمينية، حسب علمي، أي خبر أو تحليل للواقع التأميني في غزة. هذا مفهوم لأن قطاع التأمين هنا ليس بأهمية قطاعات التأمين العربية الأخرى وحتى قطاع التأمين في الضفة الغربية. فليس هناك أرقام عن حجم أقساط التأمين المكتتبة في غزة حتى قبل أكتوبر 2023 لكن التقديرات التي نسمعها أنه ربما لا يتجاوز 2% من الأقساط المكتتبة في الضفة الغربية (حسب المعلومات المتوفرة للنصف الأول من سنة 2023 بلغ حجم الأقساط 395 مليون دولار،[3] وهو ما يعني أن مساهمة أقساط غزة هي بحدود 8% تقريبًا، وهذه النسبة التخمينية لم يعد لها وجود بعد السابع من أكتوبر 2023).

يعود سبب هذه المساهمة المتدنية إلى ضعف الاقتصاد الغزّي بسبب الحصار الاقتصادي (البري والبحري والجوي) الذي يشمل جميع مناحي الحياة، وهذا الوضع يترجم نفسه بمحدودية النشاطات الاقتصادية الإنتاجية، وضعف القوة الشرائية (الدخل المتاح للأفراد والأسر منخفض للغاية لدرجة أنهم لا يستطيعون تحمل تكلفة شراء الحماية التأمينية الذي يعتبر ترفًا بالنسبة لهم). أما من منظور أنواع التغطية التأمينية المتاحة في غزة فهي محدودة إذ أنها لا تضم التأمين البحري أو الصناعي (بسبب الحصار وما جلب معه من حرمان التطور الصناعي) وضعف الأنواع الأخرى ومنها التأمين الصحي والتأمين على الحياة.

بناءً على هذا العرض السريع يمكن القول إن حرب الإبادة والدمار الواسع (90% من الأموال المنقولة ومنها البنية التحتية)، وتوقف شركات إعادة التأمين عن توفير حماية إعادة التأمين (تشترط عقود إعادة التأمين وقف العمل أو إلغاء العقود في حال نشوب الحرب، كما حصل في العراق سنة 1990)، أدى إلى التدهور الكلي للنشاط التأميني في غزة، كبقية النشاطات الاقتصادية. ونجازف بالقول ان التأمين قد توقف وتم تجميد العمل به، إذ أنه صار من المستحيل تنفيذ عقود التأمين (تعليق التعويضات أو عدم قبول شركات التأمين بالمسؤولية عنها وفق شروط القوة القاهرة أو استثناء الخسائر الناتجة من الحرب والأعمال الحربية، وإلغاء أو تجميد العقود التأمينية). إضافة إلى ذلك فإن انقطاع (توقف) إمدادات الكهرباء وإسالة المياه، والإنترنت، وتدمير مقرات الشركات والبنوك، أدى إلى توقف القدرة التشغيلية (عدم قدرة الموظفين على الوصول إلى المكاتب، بافتراض أنها لم تتعرض للتدمير الإسرائيلي). وهكذا لم يعد بإمكان شركات التأمين إصدار وثائق جديدة (بافتراض وجود طلب فعّال عليها).

قبل 7 أكتوبر 2023 كان سوق التأمين الصغير في غزة "مكتظًا" بفروع لشركات التأمين الفلسطينية وشركات أخرى مقرها الرئيسي في القطاع توفر تأمين المركبات، وتأمين الممتلكات (الحريق والحوادث)، وتأمين السفر خارج القطاع، والتأمين على الحياة، والتأمين الصحي وغيرها. وكانت بعض هذه الشركات تمارس التأمين وفق مبادئ الشريعة الإسلامية. وفق ما استطعنا الاطلاع عليه كان السوق يضم الشركات التالية:

- شركة الأراضي المقدسة للتأمين التكافلي
- الشركة الأمريكية للتأمين على الحياة (أليكو)
- شركة البركة للتأمين الإسلامي (مقرها

الرئيسي في غزة)
• شركة التأمين الوطنية
• الشركة العالمية المتحدة للتأمين
• شركة المشرق للتأمين
• شركة ترست العالمية للتأمين
• شركة تمكين الفلسطينية للتأمين
• شركة فلسطين للتأمين (مقرها الرئيسي في غزة)
• المجموعة الأهلية للتأمين

هل لهذه الشركات القدرة على استئناف نشاطها بعد وقف إسرائيل لعملياتها العسكرية ومغادرة قواتها للقطاع واستقرار الوضع الأمني؟ هذا سؤال تخميني يصعب الجواب عليه دون توافر بعض المعلومات الأساسية عن الموارد المالية المتبقية لدى شركات التأمين وكوادر العاملين وتوافر حماية إعادة التأمين واستعادة درجة من النشاط الاقتصادي الذي يسمح للأفراد والوحدات الإنتاجية والخدمية بتوجيه جزء من دخلها نحو شراء الحماية التأمينية. قد تستطيع بعض شركات التأمين استئناف نشاطها بمرور الوقت من خلال برامج تعويض دولية أو دعم مالي من الشركات الأم في الضفة الغربية.

هل إسرائيل مسؤولة عن تعويض تدمير الممتلكات والحياة في غزة؟

من منظور القانون الدولي الصرف فإن الجواب على هذا السؤال هو نعم، لكن الواقع القائم في السياسة والعلاقات الدولية والدعم الأمريكي اللامحدود لدولة الفصل العنصري تعطل، والأصح تلغي مسؤولية إسرائيل. تتأسس المسؤولية القانونية لإسرائيل على إثبات ارتكابها لأفعال (جرائم) تشكل انتهاكًا للقانون الدولي الإنساني (اتفاقيات جنيف) أو جرائم الحرب أو الإبادة الجماعية، وهو المهمة التي تقوم بها الهيئات الدولية لحقوق الإنسان ومجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية والمحكمة الجنائية الدولية.

لو تحقق الإجماع الدولي على قرارات المحاكم الدولية وإذا ثبتت مسؤولية إسرائيل عن جرائمها كقوة احتلال (خرق اتفاقيات جنيف) يمكن عندها إلزام إسرائيل بجبر الأضرار من خلال إعادة الوضع إلى ما كان عليه والتعويض المالي لضحاياها.

من المهم التوثيق الدقيق لانتهاكات إسرائيل للقوانين الدولية، وهو ما قامت به العديد من مؤسسات الأمم المتحدة، وتشكيل ضغط دولي لتنفيذ أية قرارات صادرة ضد إسرائيل رغم أن المسار القانوني سيكون طويلاً.

ما هو البديل في حال "تبرئة" إسرائيل من المسؤولية؟

الجواب المضمر في السؤال هو إنكار مسؤولية إسرائيل والدفع باتجاه عدم مسؤولية جهة محددة عن جبر الأضرار. الوجه الآخر لهذا الموقف هو التوجه نحو استنهاض الجهود الدولية المتعددة الأطراف لتقديم المساعدات تحت راية أو ربما بقيادة الأمم المتحدة، من خلال وكالاتها المختلفة، وبشراكة البنك الدولي (لتنسيق التمويل الدولي من الدول المانحة)، ومنظمات الإغاثة الإنسانية (الصليب الأحمر الدولي وأطباء بلا حدود وغيرها)، بهدف إعادة الإعمار (إزالة الأنقاض كأولوية وتأمين المأوى للنازحين وتأهيل المرافق التعليمية والصحية). يعني هذا أن التعويض الفردي المباشر للأفراد والشركات سيطالها النسيان، وفي أحسن الحالات فإن وصول الأموال إليهم مباشرة سيكون متعثرًا ومعقدًا.

لكن مشروعًا كهذا ربما سيتعارض مع مشاريع منافسة كتلك التي يقدمها رئيس الولايات المتحدة من خلال أفراد بعينهم هنا أو هناك، لإدارة بعض الأمور وليس من خلال المؤسسات الرسمية، بما فيها مؤسسات الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى أي حال فإن الأوضاع ليست مستقرة وهي عرضة للتقلبات خاصة وأن مشروع التطهير العرقي والقتل بالتقسيط مستمر في غزة وحتى في الضفة الغربية والقدس الشرقية مع التواطؤ الغربي على ما تقوم به دولة الفصل العنصري.

هل بالإمكان الاعتماد على وثائق التأمين للمطالبة بالتعويض عن نتائج الحرب؟

تتجه الأنظار في العادة إلى شركات التأمين للتعويض عن الخسائر لكن وثائق التأمين تستثني الخسائر المترتبة على الحرب والأعمال الحربية والنزاعات المسلحة. وهذا الاستثناء ينطبق على فروع التأمين المختلفة إلا في حالات محددة (كالتأمين البحري وبشروط).[4] لذلك لا يمكن للأفراد والشركات الرجوع إلى شركات التأمين للمطالبة بتعويض خسائرهم المترتبة على الحرب. يضاف إلى ذلك، وكما ذكرنا سابقًا، وقف شركات التأمين لأعمالها ووقف العمل بوثائق التأمين السارية. وحتى لو افترضنا أن بإمكان الأفراد والشركات المطالبة بالتعويض فإن آلية التعامل والتنفيذ معطلة (تجميد عمل شركات التأمين مما يجعلها غير قادرة على استقبال المطالبات والتحقيق فيها، ولا تمتلك الموارد المالية لتسديد التعويضات)، وعلى الأفراد والشركات إثبات الخسارة (أي إثبات أن الخسارة تحققت لأسباب غير الحرب وخارج العمليات العسكرية). يعني هذا أن تخريب نظام الفصل والتفوق العرقي الإسرائيلي للبنية التحتية للاقتصاد الغزّي ومنه قطاع التأمين يحول دون التعامل مع كل ما يتعلق بالنشاط التأميني.

من باب التحوط، يتعين على الأفراد، بقدر ما تسمح به الشروط الحياتية التي دمرتها إسرائيل، الاحتفاظ بوثائق التأمين، لأنها قد تكون مفيدة مستقبلاً، في حال تأسيس برامج دولية أو عربية، لإثبات حقوق الملكية في الأموال المنقولة أو لإثبات قيمة الخسارة. إن مفردات مثل هذا التحوط يمكن أن تستخدم أيضًا ضمن الملفات الحقوقية العامة للمطالبة بالتعويض المقدمة إلى المؤسسات الدولية التي ربما ستنظر في إنصاف المتضررين. وعلى أي حال فإنها تشكل إسهامًا في توثيق التدمير الإسرائيلي للممتلكات والأرض والأرواح، على شاكلة إنصاف المتضررين من المحرقة اليهودية (مع تجنب تحويل الموضوع إلى صناعة لتخليق الناجين من الهولوكوست).[5]

التجربة البريطانية في التعامل مع نتائج الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية والدروس المستفادة

من المنظور التاريخي، ومع اختلاف الظروف، من المفيد استعادة ملامح من التجربة البريطانية في التعامل مع الأضرار المترتبة على الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918) والحرب العالمية الثانية (1939 - 1945).

الحرب العالمية الأولى

دون الدخول في التفاصيل، وهي متوافرة في كتب التاريخ وبعض المواقع الإلكترونية، فإن بريطانيا لم تعوض الأفراد والشركات

المتضررة بعد الحرب العالمية الأولى إلا في حالات محددة تركّزت على تعويض الجنود المصابين والأرامل والشركات ذات العلاقة بالمجهود الحربي. صدر أول قانون لتعويضات الحرب Injuries in War (Compensation) Act 1914 (لتوفير تعويضات ومعاشات للجنود البريطانيين الذين أصيبوا أثناء الخدمة في الحرب، ولأسرهم في حال الوفاة) وتلاه قانون آخر موسّع -In juries in War (Compensation) Act 1915 (لتعويض العاملين المدنيين المرتبطين بالخدمات البريدية والبرقية أثناء الحرب، ووسع نطاق التعويضات لتشمل الإعاقات الناتجة عن العمليات الحربية).

رغم أن القانونين لم يتضمنا تعويضات شاملة للأضرار المادية التي لحقت بالممتلكات المدنية أو الشركات، إلا أن المؤرخين يعتبرون هذين القانونين جزءًا من التحول الاجتماعي نحو دولة الرعاية الاجتماعية.

بعد الحرب صدر قانون تعويضات الحرب War Compensation Acts لتغطية بعض الأضرار التي لحقت بالممتلكات نتيجة القصف أو المصادرة، لكنه لم يكن شاملاً. وكبديل أنشئت وزرة إعادة الإعمار لتنسيق جهود إعادة البناء، ركزت على البنية التحتية العامة وليس التعويضات الفردية المباشرة التي اقتصرت على تعويض الجنود المصابين من خلال معاشات تقاعدية أو تعويضات حسب درجة الإصابة؛ وأسر القتلى من الأرامل والأيتام من خلال دعم مالي شهري يخضع لشروط صارمة. اما العمال المدنيون فإنهم لم يحصلوا على تعويض مباشر عن الأضرار سوى أن البعض منهم استفاد من برامج التدريب وإعادة التأهيل المهني.

في ما يخص تعويض الشركات المرتبطة بالإنتاج الحربي فإنها حصلت على عقود حكومية مربحة خلال الحرب، وبعد انتهائها تم تقديم بعض التعويضات لها عن خسارة العقود أو تحويل النشاط. أما الشركات المتضررة من القصف أو المصادرة فقد تم تعويضها جزئيًا، لكن كثيرًا من المطالبات رُفضت أو تأخرت بسبب نقص الموارد.

وفيما يخص دور شركات التأمين البريطانية فإنه كان محدودًا، إذ أن معظم وثائق التأمين تستثني الأضرار الناتجة عن الحرب، ما دفع بعض الشركات الصناعية للمطالبة بتعويضات حكومية.

لقد كان النظام الاقتصادي الاجتماعي في بريطانيا قائمًا على تفاوت وتمييز طبقي فبعض الفئات، مثل أرامل الجنود من الطبقة العاملة، واجهت صعوبات أكبر في الحصول على الدعم مقارنة بالأرامل من الطبقة العليا.

الحرب العالمية الثانية

بعد الحرب العالمية الثانية، اعتمدت بريطانيا نهجًا مزدوجًا للتعويض عن أضرار الحرب: من خلال إنشاء هيئة تعويضات الأضرار الحربية War Damage Commission 1941-1978))، واجتماعيًا عبر تأسيس دولة الرفاه الحديثة التي ضمنت الرعاية الصحية، والسكن، والتعليم للمتضررين.

كانت المهام الأساسية للهيئة: تعويض الأفراد والشركات عن الأضرار التي لحقت بالمباني والممتلكات بسبب القصف الجوي والغارات، وتقديم تعويضات مالية أو إعادة بناء الممتلكات المتضررة.

ولتمويل هذه التعويضات لجأت الحكومة إلى فرض ضريبة خاصة تُدفع من قبل مالكي

العقارات، تُعرف باسم Contributions to the War Damage Fund

وقد ميّزت هيئة تعويضات الأضرار الحربية بين نوعين من الأضرار: (1) تعويضات مباشرة عن الأضرار الفورية Immediate Damage. 2) تعويضات تُصرف لاحقًا بعد انتهاء الحرب، خاصة في حالات إعادة البناء Deferred Damage.

كان أبرز وأهم استجابة هو الإجراءات لتأسيس دولة الرفاه اعتمادًا على التقرير الذي قدمه الاقتصادي والمصلح الاجتماعي وليم بيفرج (1879–1963) William Beveridge عام 1942 وكان الحجر الأساس، حيث اقترح القضاء على "الشرور الخمسة": الفقر، المرض، الجهل، البطالة، السكن السيئ. وعلى أثرها تم تأسيس الخدمة الصحية الوطنية National Health Service- NHS عام 1948 وهو نظام صحي مجاني وشامل، من المهد إلى اللحد كما يقال. استفاد المتضررون من الحرب من الحصول على العلاج دون تكلفة.[6] وضمت هذه الإجراءات برامج بناء مئات الآلاف من الوحدات السكنية لتعويض من فقدوا منازلهم وكذلك قيام الحكومات المحلية ببناء مساكن تؤجر بأسعار رمزية[7] Council Housing) كما شملت الإجراءات صرف إعانات للأرامل، والأيتام، والجنود المصابين، وتوسيع نظام التأمين الوطني ليشمل البطالة، والمرض، والإعاقة. وكذلك إعادة الإعمار الصناعي من خلال تقديم مساعدات لإعادة بناء المصانع، خاصة في القطاعات الحيوية مثل الطاقة والصناعات الثقيلة. وقد خضعت هذه وغيرها إلى التأميم وظلت جزءًا من ملكية الدولة لحين خصخصتها من قبل حكومة تاتشر منذ أوائل ثمانينيات القرن الماضي، واستمرت بعد ذلك. مجموعة الإجراءات هذه بعد الحرب العالمية الثانية شكّلت تحولاً بنيويًا للتكوين الاقتصادي الاجتماعي، حيث تحولت بريطانيا من دولة ليبرالية إلى دولة رفاه اجتماعي.

الدرس المستفاد من التجربة البريطانية

قد يكون هذا الدرس قابلاً للنقاش وهو المطلوب في ضوء المتغيرات في الأوضاع العامة وفي اجتراح الحلول التي صارت تجمع ما بين القطاعين العام والخاص ودور الاستثمارات الأجنبية المباشرة.

إن مقارنة النموذج البريطاني لتعويض المتضررين من الحربين العالميتين بآليات محتملة لتعويض المتضررين في غزة بعد حرب أكتوبر 2023 تكشف عن اختلافات جوهرية في السياق السياسي، القانوني، والاقتصادي، لكنها تقدم دروسًا مهمة يمكن الاستفادة منها في بناء نموذج تعويضي عادل ومستدام.

يمكن تلخيص الدرس المستفاد من النموذج البريطاني بالآتي:

بدلاً من التركيز على التعويضات الفردية من الأفضل التأكيد على التعويضات الجماعية (بناء المؤسسات والخدمات ذات الطابع الاجتماعي كالخدمات الصحية والرعاية والضمان الاجتماعي). مثل هذا البرنامج يقتضي وجود "دولة" قوية وهو ما لا يتوفر في غزة أو الضفة الغربية. وهنا تثار مسألة تمويل مثل هذا البرنامج في غياب الدولة (هناك دولة احتلال عنصري تمنع حتى السلطة الوطنية الفلسطينية من الحصول على حصتها من الضرائب). إن التمويل القائم والمرتقب على مساعدات من الدول المانحة بشروط

سياسية، لو كان بإمكان "دولة فلسطين" وغزة والضفة الغربية والقدس الشرقية، الحصول على تعويضات الحرب من إسرائيل، عندها يمكن تمويل البرنامج أو بعض مكوناته من هذه التعويضات، وهو ما حصل في بريطانيا، وغيرها من الدول الأوروبية التي حصلت على تعويضات من ألمانيا استفادت منها لإعادة البناء. ليس معروفًا إن كان هناك مشروع فلسطيني لتعويض المتضررين من أهل غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية، وحتى أن فكرة التعويض تبدو وكأنها ليست ضمن اهتمامات الدوائر الفلسطينية.

لو كان مثل هذا المشروع موجودًا حتى في خطوطه العامة لكان، كما نعتقد، موضوعًا للنقاش العام. وليس هذا فحسب، بل ليس هناك مشروع لتأسيس هيئة فلسطينية مستقلة تتولى مهام توثيق الخسائر المترتبة على الاحتلال وترسم السياسات المناسبة لتقديم المطالبات القانونية للتعويض. من رأينا أن عقدًا اجتماعيًا جديدًا يعتمد العدالة الاجتماعية والرعاية الصحية سيكون تعويضًا غير مباشر للمعاناة المستمرة منذ 1948.

6 تشرين الثاني 2025

الهوامش:

1 - "تأمين أخطار الحرب" ترجمة وتقديم مصباح كمال، موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين:
https://iraqieconomists.net/ar/2023/12/24/%d8%aa%d8%a7%d8%b1%d9%8a%d8%ae-%d8%aa%d8%a3%d9%85%d9%8a%d9%86-%d8%a3%d8%ae%d8%b7%d8%a7%d8%b1-%d8%a7%d9%84%d8%ad%d8%b1%d8%a8/
https://iraqieconomists.net/ar/wp-content/uploads/sites/2/2023/12/War-Insurance-History-IEN-002.pdf

2 - حتى الجانب الاقتصادي لم يلق عناية كافية ليكون الإطار العام لفهم اقتصاديات التأمين في غزّة. هناك دراسات قيمة يمكن الرجوع إليها، على سبيل المثل:
Junaid B. Jahangir, "Economics of Gaza", real-world economics review, issue no. 110, March 2025, pp.55–66, http://www.paecon.net/PAEReview/issue110/Jahangir110

والكتاب الفخم:
Sara Roy, The Gaza Strip: The Political Economy of De-Development, Third Edition, (Institute of Palestine Studies, 2016)

3 - General Arab Insurance Federation, Arab Insurance Statistics Book, 2017-2023 (Cairo: GAIF, n.d.), Table 1- Total Written Premium (Life & Non-Life), p 22.

4 - راجع الهامش رقم 1.
تنص معظم وثائق التأمين على استثناء الخسائر والأضرار الناتجة عن الحرب أو الأعمال العدائية أو التمرد أو الثورة أو الاحتلال العسكري أو الكوارث الناتجة عن استخدام الأسلحة أو القصف الجوي وغيرها من المسببات المماثلة.

5 - Norman G Finkelstein, The Holocaust Industry: Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering (Verso, 2000).
يمكن التعرف على مواقف نورمان فينكلشتاين في فيديوهات اليوتيوب ومنها هذا اللقاء:
https://www.youtube.com/watch?v=5g0IC1ZlcIg
الذي ذكر فيه أن عدد الناجين من المحرقة كان بحدود 100,000 وكيف جرى تعظيم هذا العدد ليتحول إلى "صناعة" للحصول على تعويضات دون وجه حق في العديد من الحالات حتى من قبل أفراد لم يكونا أصلاً من الناجين، وتحول مع مرور الوقت إلى عملية ابتزاز.

6 - للتعرف على تاريخ سريع لأصول دولة الرفاه في بريطانيا راجع:
Derek Fraser, The Welfare State (Sutton Publishing, 2000)

7 - ستقوم حكومة مارغريت تاتشر في أوائل ثمانينيات القرن الماضي بتخويل مجالس الحكومات المحلية ببيع المساكن التي قامت ببنائها لمستأجريها.

اشتراكية ماركس الإيكولوجية

رأس المال، الطبيعة، والنقد غير المكتمل للاقتصاد السياسي

لكوهيه سايتو*.. عرض تحليلي

ثامر الصفار

ولد كوهيه سايتو في اليابان عام 1987، وحصل على الدكتوراه من جامعة هامبولت في برلين في مجال الإيكولوجيا والإقتصاد السياسي عام 2015. بعد تخرجه عمل أستاذا مساعدا في جامعة مدينة أوساكا اليابانية ثم أنتقل الى جامعة طوكيو منذ عام 2022. بعد تخرجه انضم الى فريق محرري المجلد 18 من القسم الرابع من الأعمال الكاملة لماركس وأنجلز المعروفة بإسم $MEGA^2$، وصدر المجلد باللغة الألمانية عام 2019. جميع مؤلفاته باللغة اليابانية بإستثناء الكتاب الذي نعرضه اليوم حيث صدر باللغة الإنجليزية عام 2017. وهو مستمد من إطروحته للدكتوراه. وقد سنحت لي الفرصة للقاء به خلال المؤتمر الدولي الذي استضافته جامعة يورك الكندية بمناسبة الذكرى 150 لصدور المجلد الأول من «رأس المال» في أيار 2017. (أنظر الثقافة الجديدة، العدد 392 - 393، أيلول 2017) وكان حينها يستعد لنشر هذا الكتاب بالتعاون مع دار نشر منثلي رفيو ورئيس تحريرها جون بيلامي فوستر.

كتب الباحث الأميركي كيفين أندرسون واصفا كتاب سايتو « يُضيف هذا العمل مصدراً جديداً هاماً إلى النقاش: دفاتر ماركس التي ستنشر قريبا حول علم الإيكولوجيا. والنتيجة هي تفسير جديد لماركس، تفسيرٌ مناسبٌ في ظل الأزمات الاقتصادية والإيكولوجية التي تُعاني منها الرأسمالية المعاصرة». أما الباحث الألماني ميخائيل هاينريخ فهو يرى « أن سايتو يُعدّ أول من تعمّق في دفاتر ملاحظات ماركس، مُناقشًا منهجه البحثي. فهو لا يمتلك معرفة ممتازة بأعمال ماركس حسب، بل يهتم أيضًا بمصادرها. ويُقدّم رحلةً شيّقة، مُبيّنًا مدى ارتباط القضايا الإيكولوجية بمشروع ماركس غير المكتمل في **نقد الإقتصاد السياسي**».

خلفية الجدل حول إيكولوجيا ماركس

يبدأ كوهيه سايتو كتابه باستعراض الجدل التاريخي حول علاقة ماركس بالقضايا

الإيكولوجية. فقد كان يُنظر إلى "إيكولوجيا ماركس" لفترة طويلة على أنها تناقض لفظي، حيث اتُهم ماركس من قبل منتقديه وحتى من بعض الماركسيين بأنه تجاهل حدود الطبيعة لصالح التقدم التكنولوجي غير المحدود، وأنه تبنى رؤية إنتاجوية تضع الإنسان في مواجهة الطبيعة، وتدفع نحو السيطرة الكاملة عليها.

يستشهد سايتو بنقد الباحث الأميركي جون باسمور الذي اعتبر أن "ليس ثمة شيء مدمر إيكولوجياً أكثر من العقيدة الهيغيلية – الماركسية"[1]، ويستعرض كيف أن هذا النقد ظل شائعًا حتى ظهرت أعمال حديثة أعادت قراءة نصوص ماركس وكشفت عن أبعاد إيكولوجية عميقة في نقده للرأسمالية.

ويشير سايتو إلى أن هذا الجدل لم يكن مقتصرًا على الدوائر الأكاديمية الناطقة بالإنجليزية، بل كان حاضرًا أيضًا في ألمانيا، موطن ماركس، حيث كرر باحثون مثل توماس بيترسون ومالته فابر النقد الشائع ضد النزعة الإنتاجوية عند ماركس، رغم عدم وجود تحليل نصي دقيق لهذا التكرار. فوفقاً لهذين الباحثين الألمانيين، كان ماركس "متفائل جدًا بافتراضه أن أية عملية إنتاجية يمكن ترتيبها بطريقة لا ينتج منها أي مواد مضرة أيكولوجياً.... وهذا التفاؤل بالتقدم والتطور هو بالتأكيد نتيجة لتقديره العالي للبرجوازية الرأسمالية، الموثق بشكل واضح في بيان الحزب الشيوعي."[2]

ينتقد سايتو القراءات التقليدية التي تجاهلت البعد الإيكولوجي في مشروعه. ويورد مثالاً على ذلك من نقد هانز إملر، المعروف بكتابه الموسوم "الطبيعة في النظريات الإقتصادية" وهو من أولى الدراسات حول الإيكولوجيا السياسية في المانيا، حيث يجدد رفضه النزعة الإنتاجوية غير المقبولة عند ماركس. ووفقاً لإملر، "أن موقف ماركس اللاإيكولوجي متجذر في نظريته عن القيمة التي تحمل صبغة مركزية البشر، حيث تضيف طابعاً مطلقاً على العمل البشري باعتباره المصدر الوحيد للقيمة ويُلغي مساهمة الطبيعة في إنتاج القيمة". وهو يحاجج بقوله "بسبب التركيز الأحادي الجانب على القيمة وتحليل القيمة، وبسبب الاهمال الأساسي للمحيط الفيزيائي والطبيعي (القيمة الاستعمالية، الطبيعة، والحسيّة)" فان النقد الماركسي "ظل قاصراً على مواجهة وتحليل... هذه التطورات التي تحصل في الممارسة الاجتماعية والتي تنتج لا من التهديدات الجوهرية للحياة، بل تمثل أيضاً ردود فعل حاسمة تجاه تحويل الواقع الاجتماعي – الاقتصادي، كما هو الحال في السياسة الإيكولوجية"[3]. ويخلص إملر بالتالي الى: "أنسوا ماركس"[4].

ويشير سايتو أيضا الى باحث ألماني آخر هو رولف بي. سايفيرل، الذي رفض أيضاً إمكانية وجود نزعة إيكولوجية عند ماركس، لأن الأخير آمن بشكل خاطئ، واعتماداً على فهمه التاريخي للرأسمالية، بأن "حدود

نمو العوامل الطبيعية ستكون مستمرة" في المستقبل. وأن ماركس انسجم مع الفكرة المهيمنة، عهد ذاك، في السيطرة على الطبيعة واخضاعها، وبالتالي "استسلمت نزعته البروموثيوسية الى فكرة مركزية البشر[5]". ويتفق كلاهما، سايفيرل وإملر، مع الانتقادات الأخرى الموجهة ضد ماركس في تأكيدهما على أن مؤسس المادية التاريخية كان، قطعا، لا إيكولوجياً في إيمانه بالتأثيرات الإيجابية للنمو التكنولوجي والاقتصادي اللامحدود، وهو رأي لا يمكن أن يكون مقبولاً في القرن الحادي والعشرين.

ويرد سايتو بأن هذه القراءات "تتجاهل التطور المنهجي في فكر ماركس حول العلاقة بين الإنسان والطبيعة"، ويؤكد أن "فهم نقد ماركس للاقتصاد السياسي لا يكتمل دون إدراك البعد الإيكولوجي فيه".

في نفس السياق، نجد ان سايتو يقسم الاشتراكيين البيئيين الى رعيل أول يضم باحثين ماركسيين من أمثال تيد بينتون، أندريه غورز، ميخائيل لوي، جيمس أوكنور، و ألين ليبيتز، ورعيل ثان من أمثال بول بوركيت، جون بيلامي فوستر وآخرين، وحسب رأيه فأن الرعيل الأول وبسبب عدم إطلاعهم، بل وإهمالهم، لدفاتر الملاحظات العلمية لماركس، خلقوا نظرة خاطئة عن الماركسية عموما وإيكولوجيا ماركس بشكل خاص.

من هنا يرى سايتو "أن أهمية القراءة المنهجية ستغدو أكثر وضوحاً إذا ما نظرنا الى التفسيرات النموذجية للاشتراكيين البيئيين من الرعيل الاول". على سبيل المثال، الإيمان بأن عمل ماركس، في أحسن الحالات، يمكن الاستفادة منه في اقتطاف بعض الاقتباسات التي تنسجم مع الاهتمامات البيئية المعاصرة، كما هو الحال مع الماركسي الألماني هوبرت لايتكو الذي يحاجج بأن إيكولوجيا ماركس "تفتقر الى المنهجية والدقة، وربما تكون قادرة فقط على توفير بعض المحفزات للأعمال النظرية، ولكن ليس أكثر من ذلك"[6]. ويضيف سايتو "من الواضح أن ماركس لم يكن "نبيًا" بأي حال من الأحوال، وبالتالي لا يمكن تطبيق نصوصه حرفيًا ومباشرة على الوضع الراهن أو تحديده بها. ومع ذلك، فإن هذه الحقيقة البسيطة لا تبرر حكم لايتكو. إذا كان كتاب "رأس المال" لماركس لا يُستخدم إلا للاستشهادات، فلماذا إذن الرجوع إلى ماركس لإجراء بحث بيئي عن الرأسمالية المعاصرة؟ في الواقع، هذا هو المضمون الخفي عندما يشير الاشتراكيون البيئيون من الرعيل الأول إلى عيب قاتل في إيكولوجيا ماركس، وهذا هو على وجه التحديد السبب في ضرورة أن نكون حذرين ونحن نرى العديد من الاشتراكيين البيئيين يقدرون هذا "التراث الثمين للإيكولوجيا السياسية" دون تقديم أي سبب إيجابي فعلي للعودة إلى ماركس".

الباحث آلان ليبيتز يزعم صراحة أن "البنية العامة، والإطار الفكري للنموذج الماركسي، إلى جانب الحلول الرئيسية التي يقترحها، يجب التخلص منها؛ ويجب إعادة فحص كل مجال من مجالات الفكر الماركسي تقريبًا بدقة حتى يكون مفيدًا حقًا"[7]. وعلى نحو مشابه، نجد أندريه غورز، أحد الشخصيات البارزة ضمن الرعيل الأول، يتفوق على ليبيتز ليعلن جهارا "موت الاشتراكية"[8]. ويتساءل سايتو "إذا كان المطلوب نبذ او هجر البنية العامة للفكر الماركسي، كنظرية الطبقات، ونظرية القيمة، والاشتراكية، باعتبار ان "الاشتراكية قد ماتت" لماذا إذن يقوم أولئك المهتمين

بالأزمة الإيكولوجية المعاصرة في إضاعة وقتهم بقراءة النصوص الماركسية ''البالية'' في الوقت تكون الحاجة فيه الى أفعال حاسمة على صعيد الكوكب ككل، أليس هذا مدعاة للتعجب؟ ان الرعيل الأول من الاشتراكيين البيئيين وهم يقوضون أعمدة النقد الماركسي للاقتصاد السياسي فانهم ينفون كامل أهمية التنظير الماركسي لنمط الانتاج الرأسمالي.

الإطار النظري والمنهجي: مركزية البعد الإيكولوجي في مشروع ماركس

يركز سايتو على ضرورة إعادة بناء نقد ماركس الإيكولوجي للرأسمالية بشكل منهجي ومتكامل، بعيدًا عن القراءات المجتزأة أو الاقتباسات المنفصلة. ويؤكد أن البعد الإيكولوجي ليس هامشيًا في مشروع ماركس، بل هو جزء جوهري من نقده للاقتصاد السياسي، خاصة من خلال مفاهيم مثل ''الأيض – التبادل المادي'' (Stoffwechsel) التي تربط بين الإنسان والطبيعة وتكشف عن التناقضات البنيوية في النظام الرأسمالي.

يقول سايتو: ''سأقوم بتبيان أن النقد الإيكولوجي الماركسي يمتلك طابعاً منهجياً ويشكل لحظة جوهرية ضمن كامل مشروعه 'رأس المال'. إن الإيكولوجيا لا توجد ببساطة في الفكر الماركسي – وأطروحتي أقوى من هذا الطرح بكثير. فانا أؤكد ان ليس من الممكن استيعاب كامل النقد الماركسي للاقتصاد السياسي إذا ما اهمل الواحد منا البعد الإيكولوجي لهذا النقد.'' ويضيف «أن مفهومي ''القيمة'' و''التشيؤ'' (Versachlichung) عند ماركس يكشفان عن أن الطبيعة ليست مجرد خلفية محايدة، بل هي جزء من التناقضات البنيوية للرأسمالية،

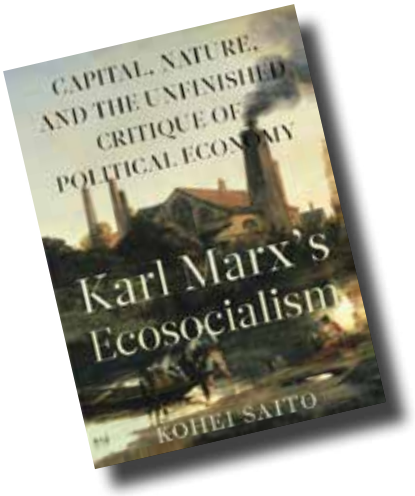

حيث تتمظهر هذه التناقضات بشكل أكثر وضوحًا في العلاقة بين الإنسان والعالم المادي''.

تطور الفكر الإيكولوجي عند ماركس: مراحل وتحولات

المرحلة الأولى: الوعي المبكر بالعلاقة بين الإنسان والطبيعة

يشير سايتو إلى أن ماركس لم يكن ''إيكولوجيًا'' منذ البداية، بل كان في بعض الأحيان يميل إلى الإنتاجوية. إلا أن الحافز الإيكولوجي الأساسي ظهر في دفاتر ملاحظاته لعام 1844، المعروفة باسم ''المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام 1844''. في هذه المرحلة، تعامل ماركس مع العلاقة بين البشرية والطبيعة باعتبارها موضوعة مركزية في نظريته حول الاغتراب، حيث يرى أن الانحلال في الوحدة الأصلية بين البشر والطبيعة هو سبب الحياة المغرّبة المعاصرة. حيث ''يرى ماركس أن السبب وراء نشوء الحياة

المغرّبة المعاصرة في الانحلال الذي حصل في الوحدة الأصلية بين البشر والطبيعة، وعلى هذا الأساس يعيد صياغة فكرة التحرر 'الإنسانية = الطبيعياتية' كمشروع لإعادة بناء الوحدة بين الإنسانية والطبيعة ضد الاغتراب الرأسمالي''. بمعنى آخر، في هذه المرحلة، كان ماركس يطرح فكرة أن التحرر الإنساني لا يمكن أن يتحقق إلا بإعادة بناء العلاقة العضوية بين الإنسان والطبيعة، وأن الاغتراب الرأسمالي هو الذي أدى إلى انفصال الإنسان عن بيئته الطبيعية. ولقد أشرت في دراسات سابقة عن ''بيان الحزب الشيوعي'' الذي أشار الى أن واحدة من مهام المجتمع الجديد ''الجمع بين العمل الزراعي والصناعي، واتخاذ التدابير المؤدية الى محو الفرق بين المدينة والريف ''[9].

لا بد من الإشارة هنا الى موقف سايتو مما يعرف باسم ''المخطوطات الإقتصادية والفلسفية لعام 1844'' إذ يكتب أن ''ماركس كتب عام 1844 العديد من دفاتر الملاحظات التي تضم ملاحظات ومقتطفات من الكتب التي كان يقرأها بنهم، وهي تعرف بـ **''دفاتر ملاحظات باريس''**. ولم يكن ماركس حينها يقرأ الإنجليزية فأعتمد على المترجم منها الى الفرنسية، ولم يكن في نيته نشر هذه الملاحظات إذ لم تكن سوى ملاحظات لاستخدامه الشخصي ضمن دراسته للاقتصاد السياسي. لكن الذي حدث، في القرن العشرين، هو نشر قسم من هذه الدفاتر المكتوبة في الفترة ما بين أيار/ مايس وآب/ أغسطس من عام 1844، تحت عنوان ''المخطوطات الإقتصادية والفلسفية لعام 1844'' وتمت معاملتها، خطأ، باعتبارها عملا مكتملا من أعمال ماركس، ومن هنا تبنى العديد من المهووسين بهذا ''المخطوطات'' صورة خاطئة عن الاختلاف بين ماركس الشاب وماركس الناضج، مستخدمين هذا التصور لمواجهة دوغما المادية الديالكتيكية بنسختها السوفيتية''.

ويخلص سايتو إلى: ''باختصار، لا ينبغي النظر إلى مخطوطات ماركس لعام 1844 ككيان منفصل، بمعزل عن دفاتره في تلك الفترة. فأجزاؤها المختلفة لا تُشكّل عملاً متكاملاً مدروساً، قائماً على دراسات سابقة، بل تعكس مراحل مختلفة من تطور أفكاره، التي كانت تتطور بوتيرة سريعة آنذاك، مدفوعةً بالقراءة المتواصلة.

كان ماركس يُدوّن أفكاره في الوقت نفسه، مُختاراً مُلخصاته، ومُدوّناً أفكاره بالتناوب بين دفاتره ومخطوطاته. ولا يُمكن فهم كيفية تطور آرائه إلا من خلال النظر إلى مجمل تلك الملاحظات، باعتبارها سلسلة من المُلخصات والتعليقات والتلخيصات والتأملات والمزيد من المُلخصات''.

المرحلة الثانية: التحول المنهجي واستخدام مفهوم "الأيض – التبادل المادي"

مع تطور فكر ماركس، انتقل من المقاربة الفلسفية إلى التحليل العلمي والمنهجي للعلاقة بين الإنسان والطبيعة. في كتاب ''الأيديولوجيا الألمانية''، بدأ ماركس باستخدام مفهوم ''الأيض – التبادل المادي'' لنقد حالة الانحطاط البيئي باعتبارها تجسيدًا لتناقضات الرأسمالية. ثم طور طروحاته حول هذا المفهوم في ''الغروندريسة'' و''رأس المال''. ويؤكد سايتو أنه ''نتيجة لابتعاده عن المخطط الفلسفي للودفيغ فيورباخ، وصل ماركس إلى معاينة

وفحص العلاقة بين البشر والطبيعة مستخدمًا مفهوم 'الأيض – التبادل المادي'' لنقد حالة الانحطاط التي تعاني منها البيئة الطبيعية باعتبارها تجسيدًا لتناقضات الرأسمالية''.

في هذه المرحلة، أصبح ماركس أكثر اهتمامًا بتحليل كيف أن النظام الرأسمالي يشوه العلاقة الطبيعية بين الإنسان والبيئة، ويخلق حالات عدم انسجام وتدمير إيكولوجي متزايد نتيجة لمنطق التراكم الرأسمالي.

المرحلة الثالثة: التعمق في العلوم الطبيعية وتطوير النقد الإيكولوجي

خلال فترة إعداد كتاب ''رأس المال''، أظهر ماركس اهتمامًا متزايدًا بالعلوم الطبيعية، خاصة الكيمياء الزراعية. قرأ أعمال علماء مثل يوستوس فون ليبيخ، ما ساعده على تطوير نقد أكثر تطورًا للزراعة الحديثة، وتحليل تناقضات الإنتاج الرأسمالي باعتبارها اضطرابًا عالميًا في الأيض الطبيعي والاجتماعي. ويوضح سايتو أن ماركس ''قرأ بنهم عددًا من كتب العلوم الطبيعية خلال تحضيره لنظرية الريع في ''رأس المال''، خصوصًا كتاب يوستوس فون ليبيخ 'الكيمياء الزراعية'، الذي وفر له أساسًا علميًا جديدًا لنقده ''قانون تناقص العوائد' لريكاردو''، ويضيف ''بدأ ماركس في تحليل تناقضات الإنتاج الرأسمالي باعتباره اضطرابًا عالميًا في الأيض (التبادل المادي) الطبيعي والاجتماعي''.

في هذه المرحلة، أصبح ماركس أكثر وعيًا بحدود الطبيعة، وبدأ يطالب بتنظيم واعٍ ومستدام لعملية التبادل المادي بين البشر والطبيعة، وجعل من ذلك مهمة جوهرية للاشتراكية.

المرحلة الرابعة: مراجعة نقدية وتجاوز النموذج الإنتاجوي

بعد اطلاعه على نقد ليبيخ ونظريات علماء آخرين، تخلى ماركس عن النموذج البروميثيوسي (الإنتاجوي) وبدأ يؤسس لنظرية نقدية تتماشى مع رؤيته للتنمية البشرية المستدامة. أصبح أكثر وعيًا بحدود الطبيعة، واعتبر أن تنظيم العلاقة بين الإنسان والطبيعة هو مهمة جوهرية للاشتراكية. ويذكر سايتو: ''إن تعرّف ماركس على نظرية ليبيخ في الفترة 1865 - 1866 دفعه إلى التخلي بوعي عن أي نموذج بروميثيوسي اختزالي للتطور الاجتماعي وإلى تأسيس نظرية نقدية تتماشى مع رؤيته للتنمية البشرية المستدامة.'' وفي رأس المال ''خلص ماركس إلى المطالبة بتنظيم واعٍ ومستدام لعملية التبادل المادي بين البشر والطَّبيعة باعتبار ذلك مهمة جوهرية للاشتراكية''.

في هذه المرحلة، أصبح ماركس يدرك أن الرأسمالية ليست فقط نظامًا اقتصاديًا، بل هي أيضًا نظام يهدد الشروط المادية للحياة البشرية، وأن الاشتراكية يجب أن تسعى إلى إعادة بناء العلاقة بين الإنسان والطبيعة على أسس أكثر استدامة وعدالة.

المرحلة الخامسة: دفاتر الملاحظات كمصدر لتطور الفكر الإيكولوجي

يولي سايتو أهمية كبيرة لدفاتر ملاحظات ماركس حول العلوم الطبيعية، التي تكشف عن منهجه البحثي وتطور أفكاره الإيكولوجية، خاصة في السنوات الأخيرة من حياته. هذه الدفاتر، حسب رأي سايتو ''تتيح للباحثين تتبع نشوء وتطور النقد الماركسي الإيكولوجي للرأسمالية بشكل أكثر وضوحًا وحيوية''.

ويؤكد سايتو "في كثير من الأحيان تكون هذه المقتطفات هي المصدر الوحيد الذي يتيح لنا تتبع التطور النظري لماركس بعد عام 1868، باعتبار أنه لم ينشر الكثير بعد نشر المجلد الأول من "رأس المال". وما يلفت النظر، أنه وخلال آخر خمسة عشر عامًا من حياته أنتج ماركس ثلث دفاتر ملاحظاته. علاوة على ذلك، فإن نصف هذا الثلث يتعامل مع العلوم الطبيعية، البايولوجيا، الكيمياء، علم النبات، الجيولوجيا، وعلم المعادن، التي يتميز نطاقها باتساع مذهل".

هذه الدفاتر تكشف عن مدى جدية ماركس وتفانيه في دراسة الميدان الغني للنظرية الإيكولوجية في القرن التاسع عشر، وكيفية تكامل الرؤى الجديدة مع تشريحه للمجتمع الرأسمالي.

نقد الرأسمالية من منظور إيكولوجي

يحلل سايتو كيف أن الرأسمالية، بدافع التراكم غير المحدود، تؤدي إلى تدمير الشروط المادية للحياة البشرية، وهو ما أسميته في دراسات سابقة بـ "ظروف الإنتاج" وتواجه في النهاية حدود الطبيعة. يرى ماركس، بحسب سايتو، **أن الأزمة الإيكولوجية ليست مجرد نتيجة جانبية للرأسمالية، بل هي تناقض مركزي في نمط الإنتاج الرأسمالي**. ويضيف "من المهم هنا أن نفهم أن الإشارة إلى حدود الطبيعة لا تعني أن الطبيعة "ستنتقم" تلقائيًا من الرأسمالية وتضع حدًا لنظامها. بل على العكس، من الممكن للرأسمالية أن تربح من الاستغلال الجائر للثروات الطبيعية إلى ما لا نهاية، مدمرةً البيئة الطبيعية إلى درجة تجعل جزءًا كبيرًا من الأرض غير صالح للسكن البشري".

وتبرز هنا أهمية مفهوم "الأيض – التبادل المادي"، الذي يوضح كيف أن الرأسمالية تشوه العلاقة الطبيعية بين البشر والبيئة، وتخلق حالات عدم انسجام وتدمير إيكولوجي متزايد نتيجة لمنطق التراكم الرأسمالي.

أود أن أشير هنا الى ما سبق وأن طرحته في الإطروحة 24 من البحث الذي نشرته صفحة أفكار في طريق الشعب، مع التأكيد ان ما يطرحه سايتو اعتمادا على دفاتر الملاحظات الذي ساهم في تحريرها لا يؤكد ما طرحته حسب، بل ويتجاوزه الى الأمام. في الإطروحة 24 ذكرت:

« برأي، ان هذا التناقض الرئيسي (قوى الانتاج ↔ علاقات الانتاج) يجب تكملته بفهم جيد لتناقض ثانٍي: بين قوى وعلاقات الانتاج من جهة وبين ظروف الانتاج من جهة اخرى (قوى الانتاج ↔ علاقات الانتاج) ↔ ظروف الانتاج

..... التناقض الثاني المطروح هنا يحاكي الاول في ميله الى توليد الازمات **وحركة اجتماعية عريضة** (منظمات بيئية، حقوق انسان، وغيرها من منظمات المجتمع المدني) تصبح هي الاخرى عائقا آخر بوجه التراكم الرأسمالي، وستطالب باعادة تشكيل **ظروف الانتاج** باتجاه اضفاء طابع اكثر اجتماعية عليها. وعليه يمكن القول بوجود طريقين الى المجتمع الجديد، الاشتراكي: طريق العمال وفق التناقض الاول، وطريق الحركات الاجتماعية في اطار التناقض الثاني. وهذا، ما سعيت الى تبيانه في المقالات السابقة خصوصا موضوعة التفاعل بين التناقضين، في علاقة التعاون والمشاركة بين قوى التناقض الاول وقوى التناقض الثاني.

المسألة المهمة هنا هي عدم التعامل مع مفهوم

الرأسمالية على أنها مجموعة من العلاقات الاقتصادية فقط، بل ثمة تأثير كبير للثقافة والحضارة بشكل عام على قوى وعلاقات الإنتاج، وبالتالي فان تعريف "ظروف الإنتاج" المستخدم ينطوي على جملة من العلاقات الاجتماعية والسياسية، بما في ذلك أشكال العائلة، العمليات المدينية، وسائل الاتصال، مؤسسات الدولة خصوصا تلك المعنية بتهيئة ظروف الإنتاج.

ان ما ينتج إيكولوجيا (في المجتمع وفي الطبيعة المحيطة بنا) من التناقض الثاني لا يؤثر على عملية التراكم الرأسمالي فقط، بل ان له أهمية أخرى، فنشاطاتنا وممارساتنا اليومية، كبشر، خارج نطاق عملية الانتاج، لها "ظروفها" أيضا كما هو حال الإنتاج وظروفه: الشوارع الامينة والهادئة والخالية من التلوث، توفر الأماكن للعب الأطفال خارج المنازل، حرية الحركة للنساء داخل المدينة، توفر فرص للجيران كي يلتقوا ببعض في أماكن عامة، توفر أماكن التنزه للعوائل. بمعنى آخر ان إهمال رأس المال لظروف الإنتاج يمكن ان يجر ايضا الى إهمال الممارسات الاجتماعية اللاانتاجية الأخرى، وغالبا ما تشكل هذه التأثيرات غير المباشرة، للتناقض الثاني، على حياة الناس "المادة الخام" لقضايا الصراع.

علينا ان نعيد صياغة فهمنا للقوى المحركة للثورات وادراك أن الطبقة العاملة هي ليست صاحبة المصلحة **الوحيدة**، في التحول الى المجتمع الجديد. فماركس نفسه وبرغم تأكيده على حتمية التناقض الرئيسي إلا انه **لم يقل انه التناقض الوحيد** وفسح المجال للمزيد من الأبحاث حسب تطور التاريخ والحياة – النظرية رمادية.... لكن شجرة الحياة خضراء - لاكتشاف ما هو جديد ويصب في مصلحة التحول الى المجتمع الجديد.

ان علينا كماركسيين ان ننظر للأمر على أساس المنهج التحليلي التركيبي الماركسي، وإن كنا نؤمن بصحة ويقينية التناقض الرئيسي للرأسمالية فهذا لا يعني أبدأ التوقف عنده والإيمان بحتمية الانتصار (خصوصا في بلداننا حيث الضعف الواضح في تركيبة الطبقة العاملة كميا ونوعيا) فماركس نفسه لم يقل ذلك بل اكد ضرورة اتباع المنهج ضمن التطورات التاريخية لكي نستطيع ان نطرح خطابا ينسجم مع المعطيات".

يكتب سايتو **"أزعم أن ماركس كان سيؤكد بقوة أكبر على قضية الأزمة الإيكولوجية باعتبارها التناقض المركزي لنمط الإنتاج الرأسمالي، لو تمكن من إكمال المجلدين الثاني والثالث من رأس المال"**.

دفاتر الملاحظات وأهميتها

يخصص سايتو في كتابه حيزاً كبيراً للحديث عن دفاتر الملاحظات وأهميتها باعتبارها "مصدرا أصليا قيّما يسمح للباحثين برؤية إيكولوجيا ماركس باعتبارها جزءًا أساسيا من نقده للاقتصاد السياسي". فمنذ أن اتخذ ديفيد ريازانوف (1870 - 1938)، عالم اللغة الماركسي البارز ومدير معهد ماركس - إنجلز في موسكو، قرارًا بشأن خطة النشر لمؤلفات ماركس – إنجلز الكاملة والتي تعرف باسم MEGA[1]، كان يُدرك التأكيد أن "حوالي 250 من دفاتر الملاحظات والمقتطفات التي تم حفظها... تشكل بالتأكيد مصدراً مهماً للغاية لدراسة الماركسية بشكل عام، وللعرض النقدي لأعمال ماركس الفردية على وجه الخصوص"[10]. وبرغم تصريحه هذا، نجد أن خطته قد تضمنت نشر جزء من

دفاتر الملاحظات الخاصة بماركس دون أن تشمل قسما خاصاً بالمقتطفات. بمعنى، أن ريازانوف لم ير قيمة لدفاتر الملاحظات؛ معتقدا أن معظمها "مجرد" نسخ لفقرات مأخوذة من كتب أو مقالات وبالتالي ستكون مفيدة فقط لكُتاب "سيرة ماركس"[11].

يذكر سايتو أنه " في عام 1930 انتقد بينديكت كاوتسكي قرار ريازانوف بنشر جزء من دفاتر ملاحظات ماركس مؤكدا أن نشر "مقتطفات من مقتطفات لن ينفع أحد بشيء"[12]. كما نجد بول ويلر، وزميل ريازانوف في معهد ماركس-أنجلز، وأحد المحررين البارزين في مشروع MEGA، يقترح لاحقا إنشاء قسم مستقل ضمن مشروع MEGA[1]، يضم خمسة عشر مجلداً ويكون مخصصا لنشر دفاتر ملاحظات ماركس وانجلز. وللأسف لم يتحقق المقترح بسبب الإرهاب الستاليني حيث توقف العمل بمشروع MEGA[1]، بعد اعتقال ريازانوف عام 1937 وإعدامه في العام التالي، أما بول ويلر، الذي نجا من حملة ستالين الإرهابية، وأكمل بالفعل عمله في تحرير الغروندريسة، فقد قُتل في الحرب بعد نشوب المعارك في الجبهة الشرقية. وبعد فترة طويلة تم إثبات صحة رأي بول ويلر في أن دفاتر ملاحظات ومقتطفات ماركس توثق بدقة منهجه في البحث، لهذا قام مجلس تحرير MEGA[2] بإتباع نصيحة بول ويلر ونشر كامل دفاتر الملاحظات والمقتطفات لماركس وأنجلز لتحتل 32 مجلداً".

ولتأكيد أهميتها أيضا يقتبس سايتو ما طرحه هانس - بيتر هارستك حول أهمية القسم الرابع من مشروع MEGA الذي يضم المخطوطات خلال مؤتمر عُقد في آذار 1992 في مدينة إيكس أون بروفانس الفرنسية: "إن مجموعة المصادر التي تضمها المقتطفات، وثبت المراجع، والتعليقات الهامشية، تشكل **أساسا ماديا** للعالم الفكري ولأعمال ماركس وإنجلز، أما بالنسبة لأعمال البحث والتحرير لماركس وإنجلز، فهي **المفتاح** الذي يفتح الباب أمام ورشة العمل الفكرية لكل المؤلفين والباحثين، وبالتالي **توفر فرصة للوصول** إلى السياق التاريخي لعصر ماركس وإنجلز خلال عملية إعادة البناء المنسجمة للمحررين"[13]. ويرى سايتو أن "كل باحث تعامل سابقا مع MEGA سيتفق مع ما ذكره هارستك". ويشير أيضا الى ما ذكره مارتن هوندت، وهو محرر آخر في MEGA، "أن القسم الرابع هو "الأكثر إثارة للاهتمام" لأن دفاتر الملاحظات التي تحتوي على تغييرات في ترتيب الجمل الأصلية والاختصارات والخطوط الهامشية تقدم عددًا من التلميحات حول ما كان ماركس مهتمًا به، وما كان يحاول انتقاده أو تعلمه"[14]. ويطرح سايتو "إذا كان ثمة ضعف في الدراسات الماركسية بعد مرور ربع قرن تقريبا على ما ذكره هارستك، فإن السبب يمكن في الاستمرار بتهميش دفاتر ملاحظات ماركس". ويضيف "من المؤكد أن هناك حاجة ملحة لتغيير هذا الوضع، لنبين للعامة أهمية استمرار العمل في مشروع MEGA[2]".

وهكذا فإن دفاتر الملاحظات حول العلوم الطبيعية تبين لنا "كيف اكتسبت الإيكولوجيا وبثبات أهمية كبرى في مشروعه. فمع مرور الزمن، تخلى ماركس عن وعي تام عن تقييمه المبكر والمتفائل حول إمكانية الانعتاق والتخلص من الرأسمالية.

وكما وضحنا سابقا، فإن مادية ماركس التاريخية قد تم نقدها مرارا وتكرارا بسبب

فرضياتها التكنوقراطية الساذجة. لكن قراءة متأنية لدفاتر ملاحظاته تكشف أن ماركس لم يكن يحلم، فعليا، برؤية طوباوية عن مستقبل اشتراكي مستند الى زيادة لا نهاية لها في قوى الإنتاج والتلاعب اللامقيد بالطبيعة. على العكس من ذلك، فقد أقر بجدية بالحدود الطبيعية، وتعامل مع العلاقة المعقدة والشديدة بين رأس المال والطبيعة باعتبارها تناقضًا مركزيًا للرأسمالية''.

في الأخير يقدم كتاب اشتراكية ماركس الإيكولوجية لكوهيه سايتو قراءة منهجية عميقة لفكر ماركس الإيكولوجي، ويعيد الاعتبار للبعد الإيكولوجي في مشروعه النقدي للرأسمالية.

يكشف سايتو، عبر تحليل نصوص ماركس ودفاتر ملاحظاته، عن تطور تدريجي في وعي ماركس الإيكولوجي، من المقاربة الفلسفية إلى التحليل العلمي، ومن النموذج الإنتاجوي إلى إدراك حدود الطبيعة وأهمية التنمية المستدامة.

*** حصل كوهيه سايتو على الدكتوراه من جامعة هامبولت في برلين في مجال الإيكولوجيا والاقتصاد السياسي عام 2015. بعد تخرجه انضم إلى فريق محرري المجلد 18 من القسم الرابع من الأعمال الكاملة لماركس وأنجلز المعروفة باسم MEGA²، وصدر المجلد باللغة الألمانية عام 2019. جميع مؤلفاته باللغة اليابانية باستثناء الكتاب الذي نعرضه هنا، حيث صدر باللغة الإنجليزية عام 2017. وهو مستمد من أطروحته للدكتوراه.**

يقع الكتاب في 308 صفحة، ويضم جزءين إضافة إلى المقدمة، وصدر عن دار نشر منثلي رفيو.

الهوامش:

1 - جون باسمور، (مسؤولية الإنسان على الطبيعة: المشاكل الإيكولوجية والتقاليد الغربية) نيويورك: سكرايبنر، 1974، ص185.

2 - ثوماس بيترسون ومالته فابر، (كارل ماركس وفلسفة الإقتصاد) (بالألمانية)، فريبيرغ: كارل ألبر، 2014، ص 139.

3 - هانز إملر و ولف ديتريخ شميد – كوارزك، (ماركس ومسألة الطبيعة: خلاف علمي) (كاسيل: جامعة كاسيل، 2011)، ص 36.

4 - المصدر نفسه، ص 12.

5 - رولف بي. سايفيرل، (كارل ماركس المقدمة) (بالألمانية) (هامبروغ: يونيوس، 2011)، ص 215.

6 - هوبرت لايتكو، (الإرث النظري لماركس وفكرة التنمية المستدامة)، في مساهمات في أبحاث ماركس - إنجلز، السلسلة الجديدة 2006: كارل ماركس والعلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر (هامبروغ: أرجيومنت فيرلاغ، 2006) ص 81-63، 65. بالالمانية.

7 - آلان ليبيتز، (الإيكولوجيا السياسية ومستقبل الماركسية،) ص 74.

8 - غورز، (الرأسمالية، الاشتراكية، والإيكولوجيا)، ص vii.

9 - البيان الشيوعي، البروليتاريون والشيوعيون، ص 67.

10 - ريتشرد سبيرل، حول مبادئ الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز (هامبورغ، دار نشر أرجيومنت،2000) (بالألمانية) ص 69-68.

11 - ديفيد ريازانوف، ''أحدث المعلومات حول الإرث الأدبي لكارل ماركس وفريدريك إنجلز''، أرشيف تاريخ الاشتراكية وحركة العمال، 11 (1925)، ص 385 - 400، 392، 399.

12 - بيندكت كاوتسكي، ''المؤلفات الكاملة لماركس وأنجلز''، مجلة المجتمع 2/7 (1930): ص 260 - 270، 261 - 262.

13 - كارل ماركس وفريدريك أنجلز، الأعمال الكاملة، القسم الرابع، المجلد 32 (برلين: غرويتر، 1976)، ص 21.

14 - مارتن هوندت، ''تقدم مشروع MEGA وبعض المناقشات الحالية حول أعمال ماركس''، مجلة Z. للتجديد الماركسي 85 (آذار 2011): ص 121-105، في ص 116. (بالألمانية).

« » الاقتباسات الخالية من رقم الهامش وردت على لسان كوهيه سايتو في نص الكتاب.

« » الاقتباسات التي تحمل رقم الهامش هي اقتباسات أوردها كوهيه سايتو من باحثين آخرين.

نصوص قديمة

النص والتاريخ إذ يلتقيان *

كامل شياع

في مقابلة بثّها تلفزيون BBC WORLD نهاية العام الماضي مع الشيخ زكي بدوي، أستاذ الفكر الإسلامي في مدرسة الدراسات الإفريقية والآسيوية التابعة لجامعة لندن، قال الشيخ انه يرفض ان تكون للإسلام أية صلة مع الدول الإسلامية. واعتبر ان هذه الدول وتلك الحركات نتاج ثقافات الشعوب التي تظهر فيها، ولا شأن للإسلام "الصحيح" أو الحقيقي بها.

هذه الملاحظة أثارت انتباهي مباشرة ودعتني للتفكير العميق بمدلولها. فإذا كان الإسلام يختلف تماما عن جميع الاستخدامات الأيديولوجية والتوظيفات السياسية التي تدعي الانتساب اليه، فهل في ذلك دليل على قوة الإسلام أم على ضعفه بالمعنى العلمي للكلمة؟

سأتطرق الى إجابتين ممكنتين:

أولاً: إن تخليص الإسلام مما تنسبه إليه تلك النُظم والحركات سيضعنا أمام معضلة حقيقية اذا ما حاولنا تفسير تلك الحركات الاكثر سلفية وطهرانية التي ترتكز على الاسلام كعقيدة وشريعة لتنأى بنفسها عن ملموسية التاريخ وعن فعل القوانين الوضعية للمجتمع. فاذا اتفقنا مع ملاحظة الاستاذ زكي بدوي سنتوصل ربما الى ان الحركات السلفية الأصولية، حتى الاكثر تشدداً، اي الاكثر نصية بينها، ما هي إلا تفسير محرف للاسلام، اي ان الاسلام، بصورته الملموسة، هو مجال تتقاطع فيه منظورات أو قراءات مختلفة (تمثل كل واحدة منها ثقافة وتاريخاً محددين)، لا تلتقي مع جوهر الاسلام، ولا تعبر عن

رسالته الروحية.
هل هناك إسلام آخر غير الاسلام الحركي المتطرف؟ نعم، انه يتجسد في الاسلام الرسمي المعتدل (مثلا مؤسسة الأزهر في مصر). لكن من يستطيع ان يجزم بأن الاسلام الرسمي يتطابق مع جوهر الاسلام وحقيقته الاخيرة؟ هل نستطيع ان نخالف الاستنتاج بان الاسلام المتطرف والاسلام المعتدل، وكل نسخة اخرى تجد لها مكانا بينهما، هي ليست اكثر من تفسيرات جزئية وقراءات ذاتية وتجسيدات آنية لحقيقة الدين المتعالية عن التمثيل التام والتحقق التاريخي الناجز؟
ثانياً: ان القول بأن الاسلام غريب عن جميع التموضعات الفعلية او التجسيدات الملموسة المنسوبة إليه والتي تتفاوت في درجة تحضرها وتسامحها وعقلانيتها، يدفع الى الاستنتاج بأن الاسلام الحقيقي محكوم بعلاقة اغتراب مع التاريخ كحقيقة معاشة، لا كفكرة متخيلة. لكن يلزمني ان اضيف ايضاً ان هذا الاغتراب هو في صالح الاسلام لا ضده. أعود لأسأل: كيف يمكن ان نحدد الاسلام ايجابا بعد ان حددناه سلباً؟ اي كيف نحدد الاسلام بمنطق الهوية لا بمنطق المغايرة؟ الاسلام من الداخل وليس من الخارج، ومن هو الحامل الحقيقي للاسلام؟ للفرد ام للجماعة؟ الضمير الاخلاقي أم الفعل السياسي؟ وحدة الأمة أم المصلحة المادية؟
إذا ادعينا انه قابل للتجسيد في طرفي المعادلة، فلن يكون لدينا حينئذ سوى خيار واحد هو نفس الخيار الذي يتمسك الأصوليون وفحواه: ان الاسلام جامع للشأنين الديني والدنيوي، الروحي والعملي. لكننا رأينا من ملاحظة الاستاذ بدوي ان هذا الخيار لا يمثل الاسلام تمام التمثيل، بل انه يتعارض معه بدرجة أو بأخرى. بعبارة ثانية، ان المقدمة لا تسمح لنا منطقياً بالاستنتاج ان روح الاسلام متحققة في أي من التجارب الاسلامية المعاصرة.
أما إذا ادعينا انه متجسد فعلاً في طرف أكثر من آخر، او في الحالات القصوى، في طرف دون آخر (كما في حالة الاسلاميين في افغانستان او الجزائر)، فسنواجه بحتمية تقليص كلية الاسلام الى خصخصته، أو حصره في الجانب الروحي فقط.
هذا يعني نزع الرداء المقدس الذي يعبر عن فكرة الاسلام ورسالته الروحية، عن الحركات الاسلامية وتفسيرها من زاوية وضعية كظواهر سياسية وحقائق اجتماعية.
إن القول بأن الاسلام دين ودولة ينم في الواقع عن تناقض لا يمكن تداركه بين القصد والنتيجة، أو بين الفكرة والتطبيق. هذا التناقض لا يقتصر على الاسلام، بل يظهر في كل فكرة شمولية، حتى لو كانت مستندة الى فلسفة موضوعية، مواكبة للتاريخ لا متعالية عليه، كالماركسية مثلاً.
إن تبرير هذا التناقض يبدو متشابهاً بين الاسلام والماركسية، فإذا اقصى ناطق باسم الاول الحركات الاسلامية المتطرفة عن تمثيل حقيقة الدين، فهناك دائماً من يخرج باسم الثانية لينتقد الممارسة والتطبيق باسم النظرية الصحيحة والنقية.
بعد ان قررنا وجود مسافة تجعل من تكرار الفكرة اختلافاً معها، ومن تمثيل الأصل افتراقاً عنه، يمكننا ان ندفع النقاش الى مستوى آخر.
كانت مجلة "مواقف" قد نشرت في عددها المرقم 45 لعام 1988، حواراً بين أدونيس ومحمد أركون، تحت عنوان مثير هو: النص الأول/ النص الثاني. وكان المقصود بالنص الأول هو "الوحي القرآني" حسب عبارة

أدونيس. أما النص الثاني فالمقصود به الشروح والتفسيرات التي أطرت النص الأول، ضمن حدود ضيقة، اغلقت الاحتمالات اللانهائية للمعنى. ان النص الثاني اجمالاً كما توصل المتحاور فقد أسهم في انتاج فوضى دلالية (أي فوضى في علاقة الاسماء بالمسميات) وهذه الفوضى كان يمكن تفاديها لو عرف النص الثاني (النص الشارح والمفسر)، تاريخيته والتزم بها مقارنة بلا تاريخية النص التأسيسي الأول، وكيف كان ادعاء التطابق مع النص الأول واحتكار حقيقته.

بل ان نظرتنا الى حقيقة النص الأول تحتاج هي أيضاً الى اعادة فهم من أجل كشف النواة المشتركة بين النصوص الأولى الأخرى للأديان التوحيدية. يعني هذا الأمر تحديداً النظرة المنغلقة للدين للتعبير عن نفسه عندما يتعلق الأمر بالدول الحديثة في المجتمعات العربية الاسلامية. يلاحظ أركون انهاء أي الدول، "انما هي تجارب براغماتية تحاول ان تواجه مشكلات جديدة بوسائل تقتبسها من أمم سياسية واقتصادية غربية، أكثر مما تقتبسها من تجربة اسلامية ماضية" (ص10).

ويضيف أركون ان هذا "يدل على القطيعة الجذرية التي نعيشها...(فـ) ليس هناك أية علاقة بين اسلامية هذه الدول والدول الاسلامية في الماضي"(ص10).

من خلال التفكير بطريقة تاريخية، لا نتعلم فقط تقدير التمايزات الحاسمة بين هذه الاسلامية أو تلك، دولة المدينة مثلاً مقارنة بالدولة العباسية في بغداد، الدولة البويهية مقارنة بالجمهورية الاسلامية في ايران، بل وأيضاً تشخيص التباين أو عدم التطابق بين النص والواقع. فالدول الاسلامية التي قامت في التاريخ كانت أكثر من مجرد نسخ أو تنويعات على النص، سواء كان مصدره القرآن أم الحديث، لأنها بالاساس نسيج لعوامل غير نصيّة، عوامل دنيوية بحتة. (وهي عوامل صنفها الجابري الى نوعين: القبيلة (العصبية) والغنيمة (الفائدة الاقتصادية): هذان العاملان يضافان الى العقيدة (الايمان المنزه لوجه الله)، ليشكلا الركائز الاساسية لديناميكية الحضارة الاسلامية عبر التاريخ).

استناداً الى ما تقدم، نستطيع ان نقول:

أولا: ان التفكير في النصوص وحدها يحجب رؤية التاريخ الفعلي مثلما يغلق المعنى المفتوح للنص الأصلي التأسيسي الذي له امتدادات خارج النصوص حيث تحاول هذه الأخيرة اللحاق بها وتغطيتها.

ثانياً: ان خلف كل تصور ديني يوجد واقع غير ديني يستحق أن يفسر بأسباب دنيوية.

وثالثا: ان ما يمكن أن نصطلح عليه بيوتوبيا الاسلام، أي تلك المثالات العليا للأمة الاسلامية، لم تتحقق في الواقع، وان الرهان على تحققها هو ضرب من التفكير الخلاصي الذي له ما يناظره في الطوائف المسيحية التبشيرية كشهود يهوا والمرمون مثلاً.

هناك إذن بعد دنيوي تاريخي لا يعثر على تفسيره في النص مباشرة، بعدّ أشار إليه كما تقدم الذكر د. زكي بدوي بأنه خصوصية ثقافية، وأشار اليه محمد أركون وأدونيس بالنص الثاني، اللذان اعتبراه نصاً أيديولوجياً (يعبر عن مصالح ومطامح الصراع على السلطة وتبرير شرعيتها).

علينا اذن الاعتراف بوجود قطبية ثنائية يقف الدين في طرف منها، والواقع الاجتماعي في الطرف الاخر، وكذلك البحث عن حدود الاتصال والانفصال بينهما.

هنا أصل الى النقطة الثالثة والأخيرة من هذه

المداخلة والتي هي مشكلة المشاكل بالنسبة للفكر الديني، أعني مشكلة العلمانية.

تقوم فكرة العلمانية، كما هو معروف، على فصل الكنيسة عن الدولة، أو عالم الدين عموماً عن عالم السياسة. انها ليست حربا على الدين كما يتصور البعض، وانما تنظيم علاقته بالمجتمع والسياسة. انها إقرار نظر وتسوية عملية للبعد الدنيوي والتاريخي، ذلك البعد الناتىء، أو السائب خارج إطار الفكرة المنسجمة مع نفسها بصورة مجردة. فمن خلال العلمانية، كإطلاق للاختلاف وتسوية له، نجحت الأمم الغربية في دفع العلاقة بين الدين والدنيا الى نهايتها الحاسمة، ففتحت لنفسها ممكنات الاستقرار والتطور والإبداع.

أما في مجتمعاتنا، فقد أدى موقف الممانعة منها والمعارضة لها والذي هو في حقيقته موقف من حرية التفكير وحق الاختلاف والاجتهاد، الى خلق حالة من عدم الحسم تظهر بمستويات مختلفة من الازدواجيات (اصالة/ معاصرة، حرية/ تسلط، تشبث بالهوية/ تمادي في الاستهلاك...الخ).

معروف ان حالة عدم الحسم لا تنتج بدائل، بل هي لم تنتج فعليا اي بديل حتى الان، لكنها تنتج تأجيلات والتفافات على الضرورات الموضوعية، ونسخا لا تحصى من التلفيقات: بين العلم والايمان، بين امتلاك افضل ما في هذا العالم وافضل ما في العالم الاخر.

لكن مع هذا ينبغي الاعتراف انه ليس من السهولة على الاسلام، كمنظومة اعتقاد وكثقافة، ان يقبل العلمانية كما يقبل اي بضاعة وافدة من الخارج. واكتفي بسببين لتفسير هذه الظاهرة:

اولا: سبب نظري يتجلى في التعارض بين النظرة الشمولية، الاخلاقية والنظرة التجزيئية الوضعية، وفي التعارض بين المرجعية العمودية للثقافة والمرجعية الوضعية لها؛ فلاسلام يقدم نفسه كنظام شامل لكل مناحي الحياة المادية والروحية. وهذه فكرته الاصلية بغض النظر عن نجاح الفقهاء المسلمين في مواكبة التغيرات الكبيرة الحاصلة في العالم، والتي تواجه المسلمين فعليا في العلم والمعرفة، كما في الاقتصاد والسياسة والاخلاق والسلوك.

واذا شكل الاسلام، بهذا المعنى، نظاما شموليا، فإن العلمانية تدعو الى نظام يقوم على التمايز والانفصال بين المجال الخاص والعام، الدين والسياسة، القضاء والسلطة، الدولة والمجتمع... الخ.

او بعبارة اخرى العلمانية تعترف بوجود "مجال عام محايد، مفتوح ومضمون من قبل حكومة شرعية، من اجل ضمان تعايش سلمي، قدر الامكان، بين المكونات الفكرية والروحية المختلفة داخل المجتمع المدني او الامة" (Paul Valadier,Le Monde Diplomatique) حزيران، 1989.

العلمانية تطلق حريات إنسانية، وتشرح حقوقا دنيوية من منطلق وضعي، انها تضمن حريات الأفراد من حيث هم أفراد، وتعترف بها بغض النظر عن المعتقدات الدينية والعرقية والمنزلة الاجتماعية. يرسي الإسلام نظرته على شرعية تراتبية، بينما ترسي العلمانية نظرتها على شرعية افقية.

إن التعارض بين الاسلام والعلمانية هو تعارض بين نظرتين مختلفتين حول الانسان والتاريخ، والتاريخ والمجتمع والمعرفة. وهو تعارض تاريخي بنيوي؛ فالإسلام ثمرة سياق ثقافي تاريخي يبدو في علاقة انقطاع مع العلمانية التي هي ثمرة سياق تاريخي حديث

نسبياً.
ثانيا: سبب تاريخي، إذ لا يقتصر تحدي العلمانية على الجانب النظري الهادف الى تقليص وتحييد الدور الشمولي للإسلام، بل يتخطاه الى قضايا عملية ذات تداعيات تمس مباشرة التاريخ والسياسة. فالعلمانية هي جزء من ترسانة الغرب الاستعماري، ومصدر لما يسمى بالثقافة المستوردة، والفساد الأخلاقي لأنماط الحياة الغربية التي يستهجنها رجال الدين على اختلاف مشاربهم، وميولهم ودرجات انفتاحهم أو انغلاقهم على العالم.
وإزاء تبعية مجتمعاتنا الغنية منها والفقيرة للغرب كقوة اقتصادية، علمية – تكنولوجية، ومعرفية – ثقافية، والاختلالات النفسية والاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن ذلك، يتم طرح الإسلام كمشروع حضاري بديل.
لدينا في هذه المسألة مثال لدور الدين في إصلاح المجتمع، بعد ان عجز المجتمع عن اصلاح الدين، أو في إصلاح الدين لنفسه من الداخل، ليتكيف مع تغير أحوال التاريخ.
وبمقدارٍ ما يتعلق الأمر بالأصولية الإسلامية تحديداً، ويدعونا هذا الدور الإصلاحي للدين إلى تأمل علاقة الإيمان بالعمل.
الإيمان الديني هو كالضوء الذي يملأ كيان النفس، وكالدليل الذي يهدي النظر والعقل، وكالوسيط اليقيني الى الحقيقة النهائية للوجود. انه مرجع يفسر موجودات العالم ولا يفسر بها. لكن الايمان هو تأجيل لا التحقق، التعويض لا الامتلاك، الامتحان لا الحكم والغياب لا الحضور.

وأكبر خطأ يرتكبه أصوليو الأديان السماوية هو تجاهل حقيقة الإيمان، وتحويله إلى ملكية وسلطة. لا أريد هنا ان أطري على العلمانية وأتغافل عن نواقصها ومشاكلها، لكنني لا استطيع أن أنكر، في المقابل، فضلها في تخليص التاريخ من سطوة النظرات اللاهوتية، والسياسة من احتكار رجال الدين.
فإذا أدركنا ان العقيدة لم تكن إلا واحدا من محركات تاريخ الحضارة العربية – الاسلامية، بجانب محركات أساسية أخرى ذات طابع اجتماعي واقتصادي، واذا اتفقنا على ان السياسة العادلة المنطلقة من روح الإسلام لم تشكل إلا استثناء (لم يتجاوز الاثنتين والعشرين سنة حسب ملاحظة الاستاذ محمد سعيد العشماوي في كتابه "الإسلام السياسي والدولة") في التاريخ المديد للدولة الاسلامية؛ يصبح من اللازم الاعتراف بأن الفهم الأنسب لتاريخ التجربة الإسلامية في الحكم، يمر عبر مدخل السلطة الزمنية وليس عبر مدخل الإيمان والنصوص، عبر المرتكزات الموضوعية وليس عبر التبريرات الأيديولوجية التي خلعتها كل دولة حاكمة على نفسها.
ومن هذه الزاوية، فالإسلام الحقيقي لا يمكن أن يلعب في زمننا سوى الدور الذي تلعبه أية فكرة كلية ومعيارية، فكرة لا تستطيع بحكم تعاليها وسموها إلا أن تقبل بقدر أو آخر من الاغتراب عن التاريخ الفعلي والسياسة العملية، وتكون في نفس الوقت قوة مؤثرة فيهما.

*** (الثقافة الجديدة) ، العدد 295 – تموز- آب 2000.**

نصوص مترجمة

ماركس وإنجلز متعددي اللغات

كان كانجال*

ترجمة: د. سعدي عواد السعدي

يبدأ كارل ماركس كتابه "الثامن عشر من برومير لويس بونابرت" الصادر عام 1852 بمقولته الشهيرة: "البشر يصنعون تاريخهم بأنفسهم، لكنهم لا يصنعونه كما يشاؤون" (كارل ماركس وفريدريك إنجلز، الأعمال الكاملة، المجلد 11، 103). ويواصل ماركس القول إن كل ما يحدث ينبع من الماضي السياسي، وهو رد فعل عليه.

تذَكُر الماضي وتفسيره لأغراض الحاضر يتطلب لغة. واللغة ليست مُكتسبة فطريًا، بل هي بناء اجتماعي، تنبع مفرداتها وقواعدها من الموروثات اللغوية للأيديولوجيات السابقة. يقول ماركس: "المبتدئ الذي يتعلم لغة جديدة يُعيد ترجمتها دائمًا إلى لغته الأم، لكنه يكون قد استوعب روح اللغة الجديدة، ولا يستطيع التعبير عن نفسه بحرية بها إلا عندما يجد طريقه فيها دون أن يتذكر القديم، وينسى لغته الأم عند استخدام اللغة الجديدة". (ماركس وإنجلز، الأعمال الكاملة، المجلد 104).

كانت هذه السطور مُعبّرة عن استثمار ماركس النظري وحساسيته الفكرية تجاه بنية أي لغة أيديولوجية. كان ماركس يُدرك أن أي فهم سليم للمجتمعات البرجوازية يتطلب اهتمامًا وثيقًا بكيفية تصوير الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية نظريًا، ونشرها سياسيًا، وبلورتها لغويًا وفقًا لمصالح طبقية مُحددة.

مع ذلك، كان هناك بُعد شخصي أيضًا للتشبيه

السابق: اهتمام ماركس الشديد باللغات. في تلك السطور، نسمع ليس فقط ماركس المنظّر، بل أيضًا ماركس المُلِمّ باللغات. عندما كتب ماركس ان "المبتدئ الذي يتعلم لغة جديدة يُعيد ترجمتها دائمًا إلى لغته الأم"، كان يتحدث عن تجربة شخصية.

ان على ماركس الشاب، الطالب في منهج المدرسة الثانوية الألمانية في القرن التاسع عشر، أن ينغمس في دراسة اللغات اليونانية واللاتينية والفرنسية القديمة. وكجزء من امتحان تخرجه، كان عليه ترجمة نصوص من الألمانية إلى الفرنسية، ومن اليونانية القديمة إلى الألمانية، ومن الألمانية إلى اللاتينية. إضافة إلى كتابة مقال مستقل باللغة اللاتينية. (مايكل هاينريش، كارل ماركس وولادة المجتمع الحديث: حياة ماركس وتطور عمله "1818 - 1841"، المجلد 1، 101).

لوحظ أن ماركس اظهر اجتهاداً جيداً "في اللغات القديمة" في شهادة الأبيتور.. واجتهاداً طفيفاً في الفرنسية. أما في اليونانية واللاتينية، "فإنه حتى دون تحضير، كان يترجم ويشرح المقاطع الأسهل من الكلاسيكيات التي تُقرأ في المدرسة الثانوية بسهولة وحذر". (ماركس وإنجلز، الأعمال الكاملة، المجلد 1، 643).

خلال سنوات دراسته الجامعية، واصل ممارسة الترجمة؛ ففي رسالة إلى والده عام 1837، كتب يقول إنه "ترجمت جزئيًا كتاب أرسطو في البلاغة"، و"ترجمت كتاب جرمانيا لتاسيتوس، وكتاب تريستريالأوفيد، وبدأت تعلم الإنجليزية والإيطالية بمفردي، أي من خلال كتب القواعد، مع أنني لم أنجز شيئًا من هذا حتى الآن". (ماركس وإنجلز، الأعمال الكاملة، المجلد 1، 17).

تطلبت مقرراته الجامعية في "أساطير الإغريق والرومان" مع فريدريش غوتليبويلكر، بالإضافة إلى "أسئلة حول هوميروس" و"مراثي بروبرتيوس" مع أوغست فيلهلم فون شليغل، استخدامًا فعالًا للغتين اليونانية واللاتينية. ويتضح أيضًا شعوره بالراحة في اللغات القديمة من أطروحته حول فلسفتي ديمقريطس وأبيقور.

وفي سبعينيات القرن التاسع عشر، كان على ماركس إعداد مقتطفات من كتاب أرسطو "الميتافيزيقا" حول فلسفة الطبيعة، ومن كتاب ديوجيناللايرتي عن ليوكيبوس وأبيقور وديموقريطس بالأصل اليوناني لكتاب فريدريك إنجلز "ديالكتيك الطبيعة".

عاد ماركس إلى دراساته الإيطالية عام 1844 أو بعده. وباستخدام الصفحات الفارغة من دفاتر ملاحظاته عن باروخ سبينوزا من عام 1841، أعد مقتطفات مطولة من كتاب كارل لودفيج كانيغيسر "القواعد الإيطالية"، دارسًا كل محاضرة من الكتاب المدرسي. كما تضمن كتاب كانيغيسر مواد للقراءة من كتّاب إيطاليين مثل توركواتوتاسو، ولودوفيكو أريوستو، وكارلو جولدوني، وبيترو ميتاستاسيو. ويشير كتالوج مكتبة ماركس الخاصة، ومعظمها باللغة الفرنسية، والذي جمعه صديق ماركس ورفيقه رولان دانييلز في عام 1850، إلى أن ماركس كان لديه أعمال هؤلاء المؤلفين الأربعة في الأصل الإيطالي. يوثق كتالوج دانييلز أيضًا أن ماركس كان يمتلك كتاب نيكولوبياجيولي عن قواعد اللغة الإيطالية مترجمًا إلى الفرنسية، وقاموس جوزيبي فيليبو باربيري الفرنسي-الإيطالي، وكتاب بونيفاسيوسوتوس أوشاندو "القواعد الكاملة للغة الإسبانية"، وقاموس أدريان بيربروجر الفرنسي-الإسباني، وكتاب فرانسوا دي

سالیناك دي لا موث-فینیلون للدراسة الذاتیة للغة الإسبانیة، وكتاب یوهان كریستیان مولر "تدریس اللغة البرتغالیة"، وكتاب جون بیرین "عناصر المحادثة الإنجلیزیة"، وكتاب یوهان أوغست جوك "دلیل تدریس اللغة الإنجلیزیة"، وقاموس جیب إنجلیزي-ألماني، وقاموس إنجلیزي-ألماني-فرنسي كامل.

یبدو أن ماركس كان یدرس الإسبانیة في أربعینیات القرن التاسع عشر، ولكنه لم یُكرّس نفسه لها بشكل منهجي إلا في أوائل الخمسینیات. في عام 1853، ذكر أنه استعار كتابًا موجزًا في قواعد اللغة الإسبانیة من صدیق. وفي عام1854، أبلغ إنجلز عن قراءاته بالإسبانیة والإیطالیة:

أحیانًا أتجه إلى الإسبانیة. بدأتُ بقراءة كالدیرون... أقرأ بالإسبانیة ما وجدتُه مستحیلًا بالفرنسیة، أتالا ورینیه لشاتوبریان، وبعض أعمال برناردان دي سانت بییر. أنا الآن في منتصف دون كیخوت. أجد أن القاموس في الإسبانیة أكثر ضرورة من الإیطالیة في البدایة. بالصدفة، حصلتُ على "أرشیف ثلاث سنوات للشؤون الإیطالیة من عهد بیوس التاسع حتى هجران البندقیة" وما شابه. إنه أفضل ما قرأتُه عن الحزب الثوري الإیطالي.

ساعد انغماس ماركس في الإسبانیة على استغلال المصادر الأصلیة المتعلقة بالماضي السیاسي الحدیث لإسبانیا. مُركزًا على النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان یُعِدّ لكتابة سلسلة مقالات لصحیفة نیویورك تریبیون. وبالنظر إلى انشغاله باللغة الإسبانیة في الأشهر السابقة، كتب "لقد بدأت في الوقت المناسب مع دون كیخوت... على الأقل یمكن اعتبار ذلك خطوة إلى الأمام في هذه اللحظة حیث یتم دفع تكالیف الدراسة".

ومن بین هذه المكافآت أنه استطاع، في المصادر الإسبانیة، العثور على أدلة كافیة على مؤامرة جمهوریة في الجیش الفرنسي عندما كان نابلیون قائدًا في إسبانیا خلال الحرب الفرنسیة ـ الإسبانیة. وبعد ذلك بكثیر، كانت اللغة الإسبانیة مفیدة في دراساته للتاریخ الاستعماري للأمریكتین. (انظر، على سبیل المقارنة، هانز بیتر هارستیك، محرر، كارل ماركس حول أشكال الإنتاج ما قبل الرأسمالي 1977).

من اللافت للنظر أیضًا أن ماركس كان في ذلك الوقت تقریبًا یكتب وینشر باللغة الإنجلیزیة. فبینما اعتمد اعتمادًا كبیرًا على الترجمات الفرنسیة لكتابات الاقتصادیین السیاسیین الإنجلیز في منتصف أربعینیات القرن التاسع عشر في باریس، أصبح إتقان اللغة الإنجلیزیة أمرًا ملحًا بالنسبة له خلال فترة إقامته في لندن في الخمسینیات. في رسالة عام 1851، كتب إنجلز أن "ماركس لا یجید الإنجلیزیة". أبلغ ماركس إنجلز في ینایر 1853 أنه أخیرًا "جرّب ولأول مرة كتابة مقال باللغة الإنجلیزیة". فریدریش لودفیج فیلهلم بییر، عالم لغوي ألماني، وعضو في رابطة الشیوعیین، ومترجم إنجلیزي لكتاب ماركس الثامن عشر من برومیر، "أجرى بعض التصحیحات، وبمجرد أن أتقن القواعد النحویة وأكتب بشجاعة، سأنجح [بشكل مقبول]". في مارس 1853، كتب إلى إنجلز "یبدو أنني أمتلك بعض الموهبة في الكتابة باللغة الإنجلیزیة، لو كان لدي فلوجل [قاموس جیه جي فلوجل الإنجلیزي الألماني]، وقواعد نحویة، ورجل أفضل من السید بییر لتصحیح عملي".

فوجئ إنجلز بالتقدم السریع الذي أحرزه

ماركس، فأجاب: "لم أكن لأصدق أبدًا أنك أرسلت سبع مقالات باللغة الإنجليزية في مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن؛ عندما تأتي إلى هنا... ستتعلم المزيد من اللغة الإنجليزية في أسبوع مما ستتعلمه في ستة أسابيع مع السيد بيبر". في يونيو 1853، كتب إنجلز بحماس إلى ماركس: "قرأت مقالتك في صحيفة التايمز بالأمس اللاجئين (مع اقتباس من دانتي) في عدد قديم من صحيفة تريبيون نُشر في بداية أبريل. Je t'en faismon com- pliment [أهنئك]. اللغة الإنجليزية ليست جيدة فحسب؛ بل رائعة. بين الحين والآخر، توجد كلمة رئيسية لا تتناسب تمامًا مع -cool ant [بسلاسة] كافية، ولكن هذا أسوأ ما يمكن قوله عن المقال. بالكاد يوجد بيبر، ولا أستطيع أن أفهم سبب حاجتك إليه.

أجاب ماركس بتواضع أن "الثناء الذي تقدمه لغتي الإنجليزية "الناشئة" أجده مشجعًا للغاية. ما ينقصني بشكل رئيسي هو أولًا، الثقة في القواعد وثانيًا، المهارة في استخدام مختلف المصطلحات الثانوية التي تمكن المرء بمفرده من الكتابة بأي حدة". هنا، كان ماركس يقيس تقدمه في اللغة الإنجليزية ربما مقابل خبرته السابقة في الكتابة والنشر باللغة الفرنسية. وأشهر مثال على ذلك هو كتيبه عام 1847 عن بيير جوزيف برودون، فقر الفلسفة. في تلك الفترة، انجذب أيضًا إلى علم فقه اللغة المقارن، واقتبس مقتطفات من كتاب ويليام بارنز الصادر عام 1854 بعنوان "النحو اللغوي: مبني على اللغة الإنجليزية، ومُشكَّل من مقارنة أكثر من ستين لغة".

عندما بدأ تعلم اللغة الروسية في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، لم يكن مهتمًا بالكتابة بقدر اهتمامه بالقراءة. في رسالته الشهيرة عام 1877 إلى صحيفة أوتيشيستفينيز ابيسكي، كتب قائلًا: "من أجل الوصول إلى حكم مُستنير حول التطور الاقتصادي لروسيا المعاصرة، تعلمتُ اللغة الروسية، ثم قضيتُ سنوات طويلة في دراسة المنشورات الرسمية". كان عمل ن. فليروفسكي عن الطبقة العاملة الروسية من أوائل الكتب التي قرأها. بعد ذلك، انشغل بعمل نيكولاي تشيرنيشيفسكي عن جون ستيوارت ميل. كان لدى ماركس نسخة من هذا العمل في مكتبته، كما أشاد بتشرنيشيفسكي في الملحق الثاني للمجلد الأول من رأس المال. (تعليق تحريري، "نيكولاي غافريلوفيتشتشيرنيشيفسكي: رسائل بلا عنوان [مخطوطة غير منشورة]"، في مجلة ميجا، المجلد الرابع/18، 1142).

كما قرأ واقتبس وترجم كتاب تشيرنيشيفسكي "رسائل بلا عنوان". وبغض النظر عن تشيرنيشيفسكي وغيره من الكتاب الروس، قرأ ماركس سلسلة من المقالات لألكسندر هيرزن. واستعار من إنجلز سيرة هيرزن الذاتية "ماضي وأفكاري" باللغة الروسية. احتوى المجلد على عدد كبير من الحواشي الجانبية، معظمها قوائم طويلة من المفردات والترجمات التي دونها ماركس وإنجلز. (هانو شتراوس، "حول بعض مسائل دراسة الظروف المعاصرة في روسيا من قبل ماركس وإنجلز في خمسينيات القرن التاسع عشر"، في مساهمات في أبحاث ماركس وإنجلز، العدد 13 (1982)، 56). وأخيرًا وليس آخرًا، كان عمل مكسيم كوفاليفسكي حول تاريخ الملكية المشتركة عزيزًا على ماركس (وإنجلز)؛ قرأ ماركس هذا المجلد من الغلاف إلى الغلاف في الأصل، وترجم مقتطفاته من الكتاب باللغة الألمانية. (انظر هارستيك،

المحرر، كارل ماركس حول أشكال الإنتاج ما قبل الرأسمالي). بعد أن شهد اكتساب ماركس للإسبانية والروسية، كتب فيلهلم ليبكنخت في مذكراته عن ماركس أن الأخير أولى أهمية كبيرة للقراءة من أجل إتقان اللغة. الرجل ذو الذاكرة الجيدة - وقد كانت ذاكرة ماركس فائقة الإخلاص لدرجة أنها لم تنسَ شيئًا قط - يجمع بسرعة المفردات والعبارات. ومن ثم يُكتسب الاستخدام العملي بسهولة. وصف كوفاليفسكي ماركس بأنه "متعدد اللغات"، إذ إنه "لم يكن يتحدث الألمانية والإنجليزية والفرنسية بطلاقة فحسب، بل كان يقرأ أيضًا الروسية والإيطالية والإسبانية والرومانية".

في عام 1852، كلّف ماركس بيبر بإعداد ترجمة نموذجية للفصل الأول من كتاب "الثامن عشر من برومير". وكما أبلغ ماركس إنجلز، فإن "الترجمة تعجّ بالأخطاء والسهو. ومع ذلك، فإن تصحيحها لن يكون عبئًا عليك كمهمة الترجمة المملة". كان إنجلز سيشكو بعد بضعة أيام قائلًا: "أواجه صعوبة بالغة في ترجمة بيبر". التدقيق في ترجمة بيبر دفع إنجلز إلى كتابة مذكرة، يتعمق فيها، من بين أمور أخرى، في نظرية وممارسة الترجمة. هنا، استعان بالفرق بين الترجمة الاحترافية والكتابة العفوية في اللغة الهدف، وقيود استشارة القاموس، ومخاطر الارتباك في إيجاد أسلوب مناسب، والاستخدام المبالغ فيه للكلمات المشتقة من الفرنسية التي غالبًا ما تجعل اللغة غير مفهومة للمتحدث الأصلي باللغة الإنجليزية. تتمثل المهمة الشاقة للمترجم في التوصل إلى أفضل التعبيرات التي تجسد الصور الحية والحسية للنص الأصلي، وفي الوقت نفسه تجعل الأمور مفهومة للقراء.

كما دفعه انشغال إنجلز بأخطاء بيبر إلى إجراء تمييزات مفاهيمية تتعلق مباشرة بالنظرية الاجتماعية بدلاً من ممارسة الترجمة. فقد اعترض، على سبيل المثال، على ترجمة "bürgerliche Gesellschaft" (المجتمع البرجوازي) على أنها "مجتمع الطبقة الوسطى". وكان هذا الخطأ مشابهًا لخلط "feudale Gesellschaft" (المجتمع الإقطاعي) مع "مجتمع النبلاء". وتابع:

بالمجتمع البرجوازي، نفهم تلك المرحلة من التطور الاجتماعي التي تكون فيها البرجوازية، الطبقة الوسطى، طبقة الرأسماليين الصناعيين والتجاريين، هي الطبقة الحاكمة اجتماعيًا وسياسيًا؛ وهذا هو الحال الآن تقريبًا في جميع البلدان المتحضرة في أوروبا وأمريكا... [يشير المجتمع البرجوازي] إلى حقيقة أن الطبقة الوسطى هي الطبقة الحاكمة، في معارضة إما للطبقة التي حلت محلها (النبلاء الإقطاعيين)، أو للطبقات التي نجحت في إبقائها تحت سيطرتها الاجتماعية والسياسية (البروليتاريا أو الطبقة العاملة الصناعية، سكان الريف...).

ومن الواضح تمامًا أن ماركس اعتبر إنجلز مرجعًا في مسائل الترجمة. لكنه كان يعلم أيضًا أن إنجلز كان متعدد اللغات في حد ذاته، حيث انغمس في لغات أكثر مما فعل ماركس. كان المنهج الدراسي الذي درسه إنجلز مماثلاً، إن لم يكن مطابقاً تماماً، لمنهج ماركس. ومثل ماركس، كان عليه أن يتعلم اليونانية واللاتينية والفرنسية، ولكن على عكس ماركس، فقد درس أيضاً اللغة العبرية (في الفترة 1834-1835).

كان جزء كبير من دورات اللغة اليونانية (التي حضرها في الفترة 1837-1836) يتألف من قراءات من الإلياذة لهوميروس،

والمأدبة لأفلاطون، وتاريخ الحرب البيلوبونيسية لثوسيديدس. ويبدو أنه قرأ أيضًا هسيود، وأرسطو، وسوفوكليس، وفيرجيل بمفرده وبالاستعانة بمجموعة متنوعة من المصادر، مثل Handwörterbuch der griechischen Sprache [قاموس الجيب للغة اليونانية] لفرانز باسو، و-Vollständiges Griechisch-Deutsches Wörterbuch Über Die Gedichte Des Homeros Und لجوتلوب كريستيان كروسيوس. Der Homeriden [معجم يوناني ألماني كامل لقصائد هوميروس و Homeridae]، و-Ausfuhrliche grie chische Sprachlehre [تعليم موسع للغة اليونانية] لفيليب بوتمان.

في أحد دفاتر ملاحظاته عن التاريخ القديم، كتب إنجلز مقتطفات عن الثقافات الشرقية، بما في ذلك مصر القديمة، والتي كانت مصحوبة برسوماته للمسلات والأهرامات مع تقليد للكتابات الهيروغليفية.)إنجلز، "دفتر التاريخ الأول. التاريخ القديم"، في مجلة ميجا، المجلد الرابع/1، ص 459(.

ومن الواضح أنه كان متحمسًا لتعلم اللغات. من رسالةٍ عام 1839 كتب فيها، ربما مُبالغًا فيه، أنه بدأ بقراءة "العديد من الصحف - الهولندية والإنجليزية والأمريكية والألمانية والتركية واليابانية. هذا أتاح لي فرصة تعلم التركية واليابانية، فأصبحتُ الآن أفهم 25 لغة"، لكنه ربما سمع عددًا مماثلًا من اللغات تُحكى في قاعة محاضرات فريدريش شيلينغ في برلين. واستنادًا إلى ملاحظاته الشخصية، كتب مقالًا قصيرًا عن التنافس بين شيلينغ وجورج فيليب هيغل في أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر، مُشيرًا عرضًا إلى الطابع العالمي للجمهور: "الألمانية والفرنسية والإنجليزية والمجرية والبولندية والروسية واليونانية الحديثة والتركية، يُمكن للمرء سماعها جميعًا تُحكى معًا - ثم تُسمع إشارة الصمت ويصعد شيلينغ إلى المنصة."

في النصف الأول من أربعينيات القرن التاسع عشر، كان، بفضل زياراته المتكررة إلى إنجلترا، متمكنًا من اللغة الإنجليزية بما يكفي للكتابة والنشر عن الأحداث في بروسيا لمجلتي New Moral World وThe Northern Star. وفي خمسينيات القرن التاسع عشر، وسع نطاقه بإضافة لغات جديدة إلى خطط دراسته. في أبريل 1853، كتب إلى جوزيف فايدماير قائلًا: "لقد أحرزت تقدمًا كبيرًا في الشتاء الماضي في اللغات السلافية والشؤون العسكرية، وبحلول نهاية العام، ستكون لدي معرفة جيدة باللغة الروسية والسلافية الجنوبية". (ماركس وإنجلز، الأعمال الكاملة، المجلد 39، ص 305. للاطلاع على قائمة إنجلز المختصرة للظروف الروسية، انظر أوراق ماركس وإنجلز في المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي، المجلد 62. كما أعد إنجلز بعض الملاحظات حول فقه اللغة المقارن، للاطلاع عليها، انظر H 170).

قبل عام واحد فقط من ذلك، اشتكى إلى ماركس من أنه لم يول الاهتمام الواجب للغات السلافية. كانت اللغة الروسية موضع اهتمام خاص لدى إنجلز، ليس فقط لفهم "نظام الملكية المشتركة السلافي القديم" ولكن أيضًا لتولي موقف ضد ميخائيل باكونين، الذي "توصل إلى أي شيء لأن لا أحد يعرف اللغة الروسية". علاوة على ذلك، "خلال الأسبوعين الماضيين، كنتُ أدرس اللغة الروسية بجدّ، وأصبحتُ الآن أتقن قواعدها النحوية إلى حدٍّ كبير؛ وفي

غضون شهرين أو ثلاثة أشهر أخرى، سأكون قد اكتسبتُ المفردات اللازمة، وسأتمكن حينها من الخوض في موضوع آخر. يجب أن أنتهي من اللغات السلافية هذا العام... على الأقل يجب أن يكون أحدنا على دراية بها".

إلى جانب الروسية، درس إنجلز أيضًا الصربية والسلوفينية والتشيكية. حتى أنه فكّر في تأليف كتاب قواعد نحوية مقارن عن اللغات السلافية، إلا أنه تخلى عن ذلك عندما اكتشف كتاب فرانز فون ميكلوشيتش حول هذا الموضوع. وبينما كان يتعلم الروسية بنفسه حتى عام 1852، التحق لاحقًا بدروس محادثة مع المهاجر الروسي إدوارد بيندار، وقرأ أعمال ألكسندر بوشكين (بالإضافة إلى ترجمة بعض المقاطع من يوجين أونجين والفارس البرونزي)، وألكسندر غريبويدوف، وألكسندر هيرزن بالأصل الروسي، وأعدّ قوائم متنوعة من المفردات بناءً على ذلك. قرأ كتاب جون بورينغ "نماذج من الشعراء الروس"، واقتبس منه شعراء وكتاب روس مثل ميخائيل لومونوسوف، وغافريلاديرزهافين، ونيكولاي كارامزين. كما طلب إنجلز من ماركس البحث عن مصادر مختلفة حول التاريخ السلافي وعلم فقه اللغة. وبناءً على ذلك، دوّن ماركس ملخصات وقوائم ببليوغرافية مفصلة لإنجلز.

أما بالنسبة للغات الشرق أوسطية، فقد كان إنجلز طموحًا بما يكفي لتعلم اللغة الفارسية، على الرغم من أنه وجد صعوبات اللغة العربية مُثبطة بعض الشيء. في يونيو 1853، أبلغ ماركس أنني انتهزت الفرصة لتعلم اللغة الفارسية. أشعر بالنفور من اللغة العربية، ويعود ذلك جزئيًا إلى كراهيتي الفطرية للغات السامية، وجزئيًا إلى استحالة الوصول إلى أي مكان، دون إنفاق كثير من الوقت، في لغة واسعة النطاق كهذه - لغة لها 4000 جذر ويعود تاريخها إلى أكثر من 3000-2000 عام. بالمقارنة، فإن اللغة الفارسية سهلة للغاية. لولا تلك الأبجدية العربية اللعينة التي تبدو فيها كل نصف دزينة من الحروف وكأنها كل نصف دزينة أخرى ولا تُكتب فيها الحروف المتحركة، لكنت تعهدت بتعلم القواعد النحوية كاملةً في غضون 48 ساعة... لقد حددت لنفسي ثلاثة أسابيع كحد أقصى للغة الفارسية... إنه لمن دواعي السرور، بالمناسبة، أن تقرأ حافظ العجوز الفاسق باللغة الأصلية... في قواعده [الفارسية]، يحب السير ويليام جونز العجوز أن يستشهد كأمثلة بالنكات الفارسية المشكوك فيها، والتي تُرجمت لاحقًا إلى الشعر اليوناني في كتابه Commentariispoeseosa-siaticae، لأنها تبدو له فاحشة للغاية حتى في اللاتينية. ستُسليك هذه التعليقات، أعمال جونز، المجلد الثاني، De poesi erotica. النثر الفارسي، من ناحية أخرى، ممل للغاية. على سبيل المثال، كتاب Rauzât-us-safâ للنبيميرخوند، الذي يروي الملحمة الفارسية بلغة منمقة للغاية ولكنها فارغة. يقول عن الإسكندر الأكبر إن اسم إسكندر، في اللغة الأيونية، هو أكشيد روس (مثل إسكندر، وهو نسخة محرفة من ألكسندروس)؛ ويعني تقريبًا نفس معنى كلمة فيلوسوف، المشتقة من فيلا، أي الحب، وسوفا، أي الحكمة، وبالتالي فإن "إسكندر" مرادف لـ "صديق الحكمة".

دوّن إنجلز مقتطفات من كتاب جونز "قواعد اللغة الفارسية"، مركّزًا بشكل رئيس على خمسة أقسام من الكتاب (الأبجدية، والحروف الساكنة، والأصوات، والصفات)، مستخدمًا

اللاتينية لترجمة الحروف الفارسية بطريقة أصلية.

كان الدافع وراء اهتمام إنجلز بالفارسية سياسيًا وتاريخيًا بالأساس. وكما أشار لاحقًا في عام 1857، كانت هناك توترات متزايدة بين إنجلترا وروسيا للحفاظ على الهيمنة في الخليج العربي وبحر قزوين وشرق آسيا، مما ولّد مقاومة فارسية ومعارضة صينية. تطلب هذا الوضع فهمًا أعمق للهياكل الاجتماعية المحلية والظروف التاريخية. في محادثة سابقة له مع ماركس عام 1853، أفاد أنه قرأ كتاب تشارلز فورستر "الجغرافيا التاريخية لشبه الجزيرة العربية"، وقدّم لماركس ملخصًا موجزًا لحجج الكتاب حول الثقافات القبلية بالإضافة إلى أهمية الدين في الشرق. أجاب ماركس بأنه "فيما يتعلق بالعبرانيين والعرب، وجدت رسالتك مثيرة للاهتمام للغاية" وسأل: "لماذا يبدو تاريخ الشرق كتاريخ للأديان؟" أجاب إنجلز بأن "غياب الملكية العقارية هو في الواقع مفتاح الشرق بأكمله". وهكذا، كتب: "هنا يكمن تاريخها السياسي والديني. ولكن كيف نفسر حقيقة أن الشرقيين لم يبلغوا مرحلة ملكية الأرض، ولا حتى الإقطاعية؟ أعتقد أن هذا يعود إلى حد كبير إلى المناخ، إلى جانب طبيعة الأرض، وخاصةً المساحات الصحراوية الشاسعة الممتدة من الصحراء الكبرى عبر شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس والهند وتارتاري، إلى أعلى المرتفعات الآسيوية. هنا، يُعد الري الاصطناعي الشرط الأساسي الأول للزراعة، وهذه مسؤولية إما البلديات أو الأقاليم أو الحكومة المركزية."

لاحقًا، صاغ إنجلز هذه الملاحظات بأعم المصطلحات الأنثروبولوجية في كتابه "جدلية الطبيعة" في سبعينيات القرن التاسع عشر، مع ربطها أحيانًا بأهمية اللغة في التسلسل الزمني التطوري للتاريخ. اقترح، على سبيل المثال، فهم أصل اللغة في السياق الاجتماعي لعملية العمل، لأن اللغة في عملية الإنتاج الاجتماعي تُعتبر وسيلة للتواصل بفضلها يمكن للبشر "تحقيق أهداف أسمى فأعلى". يصاحب تزايد تعقيد النشاط الإنتاجي "التطور التدريجي للكلام" و"تحسين مماثل لجميع الحواس".

وكانت تأملات إنجلز النظرية حول علاقات الملكية الاجتماعية وأنماط الإنتاج في خمسينيات القرن التاسع عشر مصحوبة بدراساته لتاريخ ولغات أوروبا الوسطى والشمالية. في عام 1859، أخبر ماركس أنه يقرأ في تلك اللحظة ترجمة الأسقف أولفيلاس القوطية للكتاب المقدس في القرن الرابع. وعليه، كان عليه أن "يصقل تلك القوطية اللعينة" وفقًا لذلك. ثم سأنتقل إلى اللغات النوردية القديمة والأنجلو ساكسونية... حتى الآن، كنت أعمل قاموس أو مرجع آخر، النص القوطي وكتاب غريم... ما أحتاجه بشدة هنا هو كتاب غريم "تاريخ اللغة الألمانية". هل يمكنك إعادته لي؟ في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر، عاد إلى اللغات المذكورة آنفًا، مع التركيز بشكل خاص على اللهجة الفرانكونية، في تحقيقاته حول علاقات الملكية التوتونية. في أوائل ستينيات القرن التاسع عشر، كان يقرأ مجموعة من الأغاني الملحمية الدنماركية القديمة، ويترجم منها أحيانًا. أرسل إحدى هذه الترجمات (ربما "السيد جون") إلى زميله كارل سيبل، مع أنه أضاف قائلاً: "لم أستطع أن أنصف النبرة الحيوية والمبهجة للأصل... سيتعين عليك الاكتفاء بالترجمة (حرفيًا تقريبًا، بالمناسبة). لا أعتقد أن هذا العمل قد تُرجم إلى الألمانية من قبل".

بعد انتهاء الحرب الألمانية الدنماركية عام 1864 بفترة وجيزة، ذهب إنجلز إلى سوندربورغ في شليسفيغ، التي كانت سابقًا جزءًا من الدنمارك وضُمت لاحقًا إلى بروسيا، ليرى بنفسه الظروف المحلية في ذلك الوقت. في رسالة قال فيها إنه كان مؤخراً "يقوم ببعض الأعمال المتعلقة بعلم اللغة وعلم الآثار للفريزيين والأنجليز والجوتيين والإسكندنافيين"، وانه شارك بعض ملاحظاته مع ماركس حول اللغة اليومية.

في فلنسبورغ [ميناء دنماركي حتى حرب شليسفيغ]، حيث يزعم الدنماركيون أن الجزء الشمالي بأكمله دنماركي، وخاصةً قرب الميناء، كان جميع الأطفال، الذين كانوا يلعبون قرب الميناء بأعداد كبيرة، يتحدثون الألمانية الدنيا. من ناحية أخرى، شمال فلنسبورغ، لغة السكان هي الدنماركية - أي اللهجة الدنماركية الدنيا، التي بالكاد كنت أفهم منها كلمة واحدة. أما الفلاحون في حانة سوندفيت، فكانوا يتحدثون الدنماركية والألمانية الدنيا والألمانية العليا بالتناوب، ولم أُجب هناك ولا في سوندربورغ، حيث كنت أخاطب الناس دائمًا باللغة الدنماركية، بأي لغة سوى الألمانية.

بالإضافة إلى الدنماركية، كان إنجلز يدرس أيضًا الهولندية والفريزية والسلتية والأيرلندية بحلول نهاية ستينيات القرن التاسع عشر، وكانت الأخيرة منها ذات أهمية خاصة لفهم علاقات القرابة القديمة والعادات والهياكل القانونية في شمال أوروبا.

إلى جانب الدراسات العلمية، اعتبر ماركس وإنجلز أن تعدد اللغات مفيد سياسيًا أيضًا. عند مناقشة القضايا التنظيمية لمؤتمر جنيف لجمعية العمال الدولية، أخبر ماركس يوهان فيليب بيكر عام 1866 أن "الأمين العام يجب أن يتقن أكثر من لغة". حضر المؤتمر ستون مندوبًا من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وسويسرا، وكان بحاجة إلى رئيس يجيد "التحدث باللغات المختلفة، لتوفير الوقت". لذلك، قال ماركس إنه "من الضروري للغاية أن يُعيَّن [هيرمان] يونغ رئيسًا للمؤتمر، لأنه يتحدث اللغات الثلاث، الإنجليزية والفرنسية والألمانية".

في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، انشغل إنجلز، على الصعيدين الشخصي والتنظيمي، بمعالجة بعض القضايا المتعلقة باللغة في مراسلات الجمعية. في عام 1871، كتب إلى بول لافارغ قائلًا: "يا مسكين، اضطررتُ لكتابة رسائل طويلة، واحدة تلو الأخرى، بالإيطالية والإسبانية، وهما لغتان لا أجيدهما!". وفي عام 1872، انخرط في مسائل التنسيق، وقدّم الاقتراح التالي:

لم نكن نرغب عمدًا في تعيين سكرتير ألماني للدنمارك؛ ففرنسيونا لا يكتبون بالإنجليزية في الغالب، ولم نكن نعرف مدى ملاءمة المراسلات بالفرنسية لك، لذا كان خيارنا الوحيد هو اختيار إنجليزي، لأنك كتبت إلينا بالإنجليزية. ستكتب لي، بالطبع، باللغة الدنماركية. أفهم لغتك تمامًا، فقد درستُ الأدب الإسكندنافي دراسةً متعمقة، وأسفي الوحيد هو أنني لا أستطيع الرد عليك باللغة الدنماركية، فلم تُتح لي الفرصة قط لممارستها. ربما سيأتي ذلك لاحقًا! باستثناء نفسي، يفهم ماركس اللغة الدنماركية، لكنني أشك في أن أي شخص آخر في المجلس العام يفهمها.

منذ أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، عاد إنجلز إلى ترجمة نصوص نظرية متطورة. كانت الترجمتان الإنجليزية والفرنسية لكتاب "رأس المال" لماركس ضمن جدول أعمال إنجلز. كان يعتقد أن صموئيل مور هو

الشخص المناسب للنسخة الإنجليزية، إذ كانت لغته الألمانية جيدة بما يكفي "لقراءة هاينريش هاينه بطلاقة، وسيتأقلم قريبًا مع أسلوبك [أسلوب ماركس]" تحت إشراف إنجلز الدقيق. ومن الصعوبات الواضحة في ترجمة "رأس المال" إلى الإنجليزية أسلوب ماركس الجدلي. وكان إنجلز يفكر في طرق مختلفة لترجمة "التعبيرات الهيغلية" لماركس، ويتوقع من ماركس أن يُقدم بعض الأفكار بنفسه، وربما حتى أن يُعيد كتابة الأقسام المتعلقة بالسلع والمال. ألا توجد كتابات فلسفية قديمة باللغة الإنجليزية، تعود إلى ما قبل بيكون ولوك، قد نجد فيها مادةً للمصطلحات؟ لديّ شعورٌ بوجود شيءٍ من هذا القبيل. وماذا عن المحاولات الإنجليزية لإعادة إنتاج هيجل؟

قال إنجلز مازحاً إن المشكلة تكمن في أسلوب ماركس نفسه، إذ كتب ماركس "بأسلوب جدلي بحت للعلم الألماني". إلا أنه مع ذلك سيقع "في أيدٍ خبيثة" ليس فقط فيما يتعلق بالترجمة الإنجليزية، بل أيضاً الترجمة الفرنسية للكتاب. أخبر ماركس، وهو يراجع ترجمة جوزيف روي الفرنسية، نيكولاي دانييلسون، المترجم الروسي لكتاب "رأس المال"، أن روي، على الرغم من كونه "خبيرًا كبيرًا في اللغتين" و"مترجمًا لفيورباخ"، غالبًا ما كان يترجم حرفيًا أكثر من اللازم، مما اضطر ماركس "إلى إعادة كتابة مقاطع كاملة باللغة الفرنسية، لجعلها مقبولة لدى الجمهور الفرنسي". كان ماركس واثقًا من أنه سيصبح "من الأسهل لاحقًا ترجمة الكتاب من الفرنسية إلى الإنجليزية واللغات الرومانية". اختلف إنجلز مع ماركس في أنه يجب عليهم "اتخاذ النسخة الفرنسية كنموذج للترجمة الإنجليزية"، حيث أن النسخة الفرنسية كانت لها مشاكلها الخاصة. على سبيل المثال، معلقًا على الترجمة الفرنسية للفصل المتعلق بتشريعات المصانع، شارك إنجلز أسفه لأن "قوة وحيوية وحياة" اللغة الألمانية الأصلية "قد ذهبت إلى الجحيم".

لقد فُقدت فرصة الكاتب العادي للتعبير عن نفسه بأسلوب أنيق إلى حد كبير، وذلك بتقييد اللغة. بات من المستحيل التفكير بشكل أصيل ضمن قيود اللغة الفرنسية الحديثة. كل ما هو لافت أو حيوي يُزال، ولو لمجرد الحاجة، التي أصبحت ضرورية في كل مكان تقريبًا، إلى الخضوع لمنطق شكلي متشدد وتغيير ترتيب الجمل... في اللغة الإنجليزية، لا حاجة لتخفيف قوة التعبير في النص الأصلي؛ فكل ما يُضحى به حتمًا في المقاطع اللهجية الحقيقية يمكن تعويضه في مقاطع أخرى بفضل حيوية اللغة الإنجليزية وإيجازها.

وكما كتب إنجلز لاحقًا، فإن "حتى الإيطالية أنسب بكثير من الفرنسية لأسلوب العرض الديالكتيكي". كان هذا الانطباع موجهًا في الأصل إلى باسكواليمارتينيتي، الذي تواصل مع إنجلز عام 1883، وأرسل إليه ترجمته الإيطالية لكتاب إنجلز "الاشتراكية: الطوباوية والعلمية". ولأنه لا يجيد الألمانية، ترجم مارتينيتي نص إنجلز من النسخة الفرنسية التي كتبها لافارغ. ردًا على مارتينيتي باللغة الإيطالية، اقترح إنجلز إجراء تغييرات جوهرية على النص الإيطالي، مع أنه اعترف بأنه لم يتمكن من ترجمة النص كاملًا إلى الإيطالية بنفسه، لأن "لغتي الإيطالية غير متقنة وأنني لا أجيدها". كما طلب مارتينيتي من إنجلز أن يوصيه بمصادر لغوية لتحسين لغته الألمانية. بالنظر إلى رد إنجلز، يبدو أن مارتينيتي مُلِمٌّ بكتاب يوهان فرانز آن للغة

الألمانية، الذي أعطى وزنًا خاصًا للترجمة ثنائية الاتجاه (بين اللغة الأصلية واللغة الهدف) للمقاطع القصيرة بدلًا من حفظ المفردات. رد إنجلز بأنه ليس مُلِمًا بكتاب آن، لكنه شارك طريقته الخاصة في تعلم أي لغة من الصفر:

لتعلم لغة، اتبعتُ دائمًا هذه الطريقة: لا أُعير اهتمامًا للقواعد (باستثناء التصريفات والضمائر)، وأقرأ، باستخدام القاموس، أصعب مؤلف كلاسيكي يُمكنني العثور عليه. وهكذا بدأتُ الإيطالية مع دانتي وبترارك وأريوستو، والإسبانية مع سرفانتسوكالديرون، والروسية مع بوشكين. ثم قرأتُ الصحف، إلخ. بالنسبة للألمانية، أعتقد أن الجزء الأول من فاوست لغوته قد يكون مناسبًا؛ كُتب، في معظمه، بأسلوب شائع، وما قد يبدو صعبًا عليك قد يكون صعبًا أيضًا، دون شرح، على القارئ الألماني.

وظهرت صعوبات ترجمة لغة ماركس وإنجلز الألمانية أيضًا في الطبعات الأجنبية من البيان الشيوعي. ولأن ترجمة النص إلى "الإنجليزية الأدبية والنحوية" "صعبة للغاية"، اقترح إنجلز القيام بالترجمة الإنجليزية بنفسه. وكتب أن "أفضل الترجمات التي رأيتها حتى الآن هي الروسية".

وفي مذكراته عن إنجلز، يكتب لافارغ أنه بعد سقوط كومونة باريس بفترة وجيزة، زار المجالس الوطنية للأممية في إسبانيا والبرتغال حيث قيل له إن "ملاكًا" (إنجلز) "يكتب القشتالية بطلاقة" و"البرتغالية لا تشوبها شائبة" - "إنجاز رائع عندما يفكر المرء في أوجه التشابه والاختلافات الطفيفة بين اللغتين ومع الإيطالية، التي كان يتقنها بنفس القدر."

ويتذكر إدوارد أفلينج أن منزل إنجلز كان يزوره كثيرًا عدد كبير من الاشتراكيين من العديد من البلدان: كان إنجلز قادرًا على مخاطبة الجميع بلغتهم. ومثل [كارل] ماركس، كان يتحدث ويكتب الألمانية والفرنسية والإنجليزية بإتقان؛ ويكاد يكون متقنًا للإيطالية والإسبانية والدنماركية، وكان يقرأ ويفهم الروسية والبولندية والرومانية، ناهيك عن لغات اخرى مثل اللاتينية واليونانية.

بالنسبة لماركس وإنجلز، يبدو أن إتقان القراءة والكتابة والاستماع والتحدث لم يكن هدفًا بحد ذاته. كان الاهتمام شديد بمختلف اللغات، نعم، ولكن دائمًا كجزء من هدف علمي والتزام سياسي. تطلبت الأممية الاشتراكية، وإلى حد ما، لا تزال تتطلب، تعدد اللغات.

الترجمة عن:

Kaan Kangal, ''Marx and Engels as Polyglots'', Monthly Review, vol. 75, no. 09 (February 2024).

*** كان كانجال، أستاذ مشارك في مركز دراسات النظرية الاجتماعية الماركسية بقسم الفلسفة بجامعة نانجينغ. حاز عمله "دفاتر بون" لماركس، جائزة ديفيد ريازانوف لعام 2019.**

الأنثروبولوجيا للجميع: من الأسطورة إلى الحقيقة

كاترين روبرت
ترجمة د. علي كريم

تقديم

يتناول هذا العمل (ترجمة لمقال "الأنثروبولوجيا للجميع: من الأسطورة إلى الحقيقة" للكاتبة كاترين روبرت)؛ استكشاف التنوع الثقافي والأسطوري، وتجربة تعليمية وثقافية بدأت في ثانوية لو كوربوزييه بأوبيرفيلييه في نوفمبر 2014، من خلال مشروع "ثيليم". انطلق التلاميذ في رحلة لجمع أساطير أجدادهم، مكتشفين الروابط المشتركة بين الثقافات المتباينة، من المرأة الفيل إلى المرأة الطائر. يتجاوز المقال حدود الفصول الدراسية ليصل إلى حوارات أوسع، كتلك التي جرت في المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي عام 2015. دافع التلاميذ عن فكرة "ثقافات الجميع، ثقافة للجميع"، مؤكدين أن المدرسة يجب أن تكون فضاءً للتعلم الموضوعي والاحتفاء بالتنوع دون تحيزات. يقترح المقال مقاربة أنثروبولوجية تستبدل تدريس "الوقائع الدينية" بموسوعة أساطير تعكس تعدد رؤى العالم، معتبرًا أن المقارنة المستنيرة هي السبيل لفهم الإنسانية بعيدًا عن النسبية العمياء أو الجمود العقلاني. يدعو هذا العمل إلى تدريس الأنثروبولوجيا كأداة لتعزيز التسامح والتفاهم في مجتمع متنوع، مع التمسك بقيم الجمهورية الفرنسية. إن هذا المقال، بما يطرحه من أفكار وتجارب، يمثل دعوة ملحة للمجتمعات كافة، وخاصة المجتمعات العربية، إلى تبني تدريس الأنثروبولوجيا والعلوم الإنسانية بشكل عام. ففي عالم يزداد تعقيدًا وتنوعًا، تصبح الحاجة ماسة إلى أدوات فكرية تمكننا من فهم الآخر المختلف، وتقدير التراث الثقافي المتنوع، وبناء جسور الحوار والتفاهم. إن إدراج هذه العلوم في مناهجنا التعليمية ليس مجرد إضافة معرفية، بل هو استثمار أساسي في بناء مجتمعات أكثر انفتاحًا وتسامحًا ووعيًا بذاتها وبتراثها الإنساني المشترك.

من المرأة الفيل إلى المرأة الطائر

بدأ مشروع "الأنثروبولوجيا للجميع" في 18 نوفمبر 2014. في ذلك اليوم، قمنا بدعوة عالم الأنثروبولوجيا وعالم ما قبل التاريخ، جان-لويك لو كيليك، إلى ثانوية لو كوربوزييه في أوبيرفيلييه، في إطار مشروع "ثيليم". كان هذا المشروع مفتوحًا للتلاميذ المتطوعين الراغبين في إثراء معارفهم العامة بالإضافة إلى مناهجهم الأكاديمية. وبينما كان الأستاذ لو كيليك يسأل التلاميذ عن الأساطير التي تتناقلها عائلاتهم، أوضح لهم كيف أن هذه القصص، التي كانوا يعتقدون أنها بسيطة أو حتى غير مألوفة في بعض الأحيان، وتلك الحكايات التي كانت تُروى لهم لإخافتهم في صغرهم، كانت تتشابه في كثير من الأحيان،

بل إن مواقعها الجغرافية يمكن أن تُرسم على الخريطة. من فيتنام إلى جزر الأنتيل، ومن شعب المبوتي إلى الفولاني، ومن المرأة الفيل إلى المرأة الطائر، كانت عناصر القصص تتكرر بشكل ملحوظ. أدرك التلاميذ عمليًا أهمية وقيمة المقارنة في دراسة الأساطير. ثم بدأ كل تلميذ بجمع بعض أساطير أجداده: لكل ثقافة حكاياتها، ولكل تلميذ ثقافته. قام التلاميذ بتسجيل روايات آبائهم وأجدادهم، إما صوتًا وكتابةً أو صوروها بالفيديو. ومع الوقت، أصبح موقع مشروع "ثيليم" يتحول تدريجيًا إلى كنز من الأساطير.

في المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي: ثقافات الجميع، ثقافة للجميع

بعد شهر من ذلك، تلقينا دعوة من المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي للمشاركة في استشارة بعنوان "من أجل مدرسة النجاح للجميع"، والتي نسقت أعمالها ماري-أليث غرار. وقد تم الاستماع إلى تلاميذ مشروع "ثيليم" في جلسة عقدت بتاريخ 17 فبراير 2015. ومن بين الاقتراحات الثلاثة التي تمحورت حولها مداخلتهم، كان هناك اقتراح يحمل عنوان "ثقافات الجميع، ثقافة للجميع". هذا الاقتراح دعا إلى أن تكون المدرسة فضاءً للتعليم "دون تحيزات أيديولوجية أو طائفية، وأن تحتفي بثقافات الجميع". فمن خلال قيام كل تلميذ بعرض عاداته الحياتية وتصوراته، تكتسب عملية اكتشاف الفروقات والتشابهات قيمة عظيمة: إنها تجعل الجميع يدركون أن الإنسانية متنوعة في ثقافاتها، وأن كل الثقافات جديرة بالاهتمام (وهو ما اختبرناه فعليًا في إطار مشروع "ثيليم"). هذا الاقتراح لا يعكس نزعة نسبية ثقافية، ولا هو أساس لتعددية ثقافية تقوم على مجرد تجاور الأحياء المنعزلة. إن الاعتراف بواقع تنوع الثقافات لا يعني أن جميع التصورات والعادات مقبولة. فبعضها قابل للنقاش، ولكن لمناقشتها يجب أولاً معرفتها. ولمعرفتها، ينبغي عرضها بموضوعية وهدوء، على طريقة العلماء لا الأيديولوجيين.

من أجل مقارنة مستنيرة

لكل شعب ولكل مجتمع رؤيته الخاصة للعالم. تتسم هذه التصورات بتنوع هائل، بل وتتعارض أحيانًا. كل منها يدّعي الشمولية، لكن لا أحد منها يحققها فعليًا. بدلاً من التمسك بجمود العقلانية العلمية الغربية الواثقة من تصوراتها ومعتقداتها وقيمها، من الأفضل تبني موقف - يعد الوحيد المتسق فكريًا - يقوم على مقارنة مستنيرة. المقارنة هنا لا تعني النسبية. يجب أن نكون قادرين على قبول جميع المعتقدات (فالتغاضي عنها رغم وجودها ينم عن عمىً) مع احتفاظنا بحق مناهضتها: فالنسبية تصطدم بحقيقة أن بعض المعتقدات لا تستحق الاحترام. ينبغي أن نستمر في التأكيد على أن المجتمع الفرنسي ينظم نفسه وفقًا للقيم التي يؤمن بها (تلك التي حددها إعلان حقوق الإنسان والمواطن لعام 1789 ومقدمة دستور 27 أكتوبر 1946)، دون أن يعني ذلك معاملة الأنظمة الأخرى للتصورات -أي الثقافات الأخرى- بإغفال ينطوي على الازدراء.

موسوعة الأساطير بدلاً من تدريس الوقائع الدينية

بالاستعانة بتحليلات باربرا كاسين حول "اللامترجمات" و"الهندسة الفراغية

للفروقات''، يمكننا أن نطبق على تدريس الثقافات ضرورة ''نزع الإقليمية'':
''إننا نرى لغتنا وثقافتنا من منظور خارجي، باعتبارها واحدة بين أخريات، وليس بوصفها حاملة للعالمية - فلا بد من لغتين على الأقل لنعي أننا نتحدث بلغة واحدة. ومن ثم، يصبح أفقها نسبية متماسكة، لا ذاتية بحتة، ولا جماعاتية (مع مخاطر الانغلاق على الهويات).''
تجميع موسوعة الأساطير (أي الطرق التي يمثل بها الإنسان العالم والوضع البشري ويفسرهما) هو في هذا السياق الوسيلة الوحيدة لجعل تدريس الثقافات علمانيًا وفعّالًا.
سألنا أعضاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي عن سبب رغبتنا في تدريس الثقافات. فمنذ هجمات يناير، كانت هناك مطالبات بتدريس الأديان التوحيدية الثلاثة، بدعوى أن ذلك يشكل أحد شروط العيش المشترك بسلام. لكن لماذا إذن نتجاهل الثقافات التي لا تعتمد على دين؟ وبما أن تلاميذ ثانويتنا ليسوا جميعًا متدينين، بدا لنا جليًا أن دراسة الأديان لا تشمل سوى جزء محدود من التصورات. اختيار تدريس ''الواقع الديني'' سيعني تقليص التنوع الأسطوري إلى الأديان التوحيدية الثلاثة فقط، متجاهلين - بسبب مركزية ثقافية ضارة - أن التفسيرات الأسطورية ليست بالضرورة دينية دائمًا. وعليه، فإن مفهوم ''الواقع الديني'' يمثل تعميمًا مفتعلًا وغير ملائم.

أوبيرفيلييه، مرآة العالم

في أوبيرفيلييه، نحن العالم: تنوع أصول تلاميذنا قادنا إلى حقيقة واضحة، وهي أننا لا يمكن أن نقتصر في دراستنا على بضع بقاع منه. إذا كانت الجمهورية الفرنسية ''تحترم جميع المعتقدات''، كما تنص المادة الأولى من دستورها، فمن الجلي أنها لا تستطيع أن تحصر تدريسها في الأديان التوحيدية الثلاثة فقط. نحن محظوظون في ثانوية لو كوربوزييه بأن نتمكن من ملاحظة التنوع الهائل في الثقافات والمعتقدات. وعلى عكس ما يُعتقد نتيجة قصر النظر، فإن تلاميذ منطقة سين-سان دوني ليسوا جميعًا مسلمين. فالطقوس الصينية تتعدد بين الشركية والعمومية أو اللاأدرية. الطاوية، البوذية، عبادة الأسلاف، والكونفوشيوسية كلها أشكال ممكنة لمعتقدات تلاميذنا من أصول صينية. وإلى ذلك نضيف الملحدين، واللاأدريين، وممثلي الهندوسية، والأقباط الأرثوذكس، والإثيوبيين الأرثوذكس، والبروتستانت الإنجيليين، وممارسي الفودو، وأتباع الكيميتية البان-أفريقية، وغيرهم. هذه القائمة، التي لا يمكن أن تكون شاملة (نظراً لمنع جمع هذه البيانات بموجب القانون الفرنسي)، تتقاطع مع قائمة أخرى، طويلة وصعبة التأسيس بنفس القدر، تضم جميع الثقافات الأصلية لتلاميذنا. فكيف يمكن أن نقبل بصدق أن تدريس ''الواقع الديني'' قادر على استيعاب التنوع الثقافي، لا سيما بالنسبة لتلك الثقافات التي لا تعتبر الدين واقعًا فيها؟ إن الاعتقاد بأن البشر لا يؤمنون بشيء بحجة أنهم بلا دين سيكون خطأً فكريًا جسيمًا، وفي الوقت نفسه خطيئة أخلاقية لا تُغتفر، نابعة من ازدراء سافر. استكشاف الأرض الثقافية المجهولة يتطلب مستكشفين بلا غشاوات...

الاستكشاف الأسطوري كالنهج العلماني الأصيل الوحيد

إن تدريس الأساطير من خلال تبني موقف

مقارن، لا ذاتي ولا جماعاتي، هو الشرط الأساسي لعلمانية حقيقية. ونتيجته هي تسامح الهويات: فكيف يمكن أن نقبل حقًا ببناء هوية عالمية على تفسير واحد للعالم؟ تلاميذنا، الذين يتقاطعون في تصوراتهم وأفعالهم مع ثقافات وهويات متنوعة، يدركون ذلك؛ وسيستفيد الجميع من تعلُّم هذا: فمن خلال الآخر نعرف أنفسنا بشكل أفضل. ومن هنا نفهم لماذا تعتبر الأخلاق العلمانية تناقضًا في حد ذاتها، ولماذا ستكسب الجمهورية إذا فضّلت تدريس الثقافات عليها. لقد بدا لنا تدريس الأنثروبولوجيا الحل الأكثر شمولًا وهدوءً للقلق السياسي الراهن.

ولادة "الأنثروبولوجيا للجميع"

بعد الاستقبال في المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، وبما أن الجدل الحاد والمتشابك ـــبل واللاعقلاني أحيانًاـــ الذي أعقب أحداث 11 يناير بدا لنا عاملًا يثير الارتباك المؤلم، شعرنا بحاجة ماسة للاستماع إلى العلماء الذين يدرسون الثقافات ويقارنون بينها، كلٌ في مجاله. ومن هنا، قررنا تنظيم مؤتمر بالتعاون مع أصدقائنا في "لا كومون" – المركز الدرامي الوطني في أوبيرفيلييه، وأطلقنا على هذا المؤتمر اسم "الأنثروبولوجيا للجميع". كانت ماري-جوزيه ماليس، وإيميلي إيريتو، وفاليري بيريو-مورلاك، ووفاء آيت-عمور يرافقونا منذ بداية العام في عملنا الإثنوغرافي والتحليلي: بدا لنا من الطبيعي مواصلة هذه المغامرة مع هذا الفريق النشيط والمتفهم والودود، الذي، منذ أن التقيناه، استطاع أن يتقاسم معنا فضاءاته، وتساؤلاته، وحماسه الاستكشافي..

عملنا لمدة ثلاثة أشهر لتنظيم هذا المؤتمر

بالتعاون مع إيميلي إيريتو، المخرجة المسرحية المرتبطة بـ "لا كومون"، قام التلاميذ بإعداد مشاهد إثنوغرافية قصيرة تعرض التحليلات المقارنة الناتجة عن ملاحظاتهم، إلى جانب رواية الأساطير التي تُحكى في ثقافاتهم الأصلية. ومع أساتذتهم الأربعة (إيزابيل ريشر، فاليري لويس، داميان بوسار، وكاترين روبرت)، درسوا نصوص علماء الاجتماع، والباحثين في الأساطير، والأنثروبولوجيين المدعوين للمؤتمر، والذين قبلوا جميعًا، بحماس ملهم، المشاركة في هذه التجربة الفريدة. تقاسم التلاميذ المداخلات والعروض. وفي هذا السياق، يمكن ملاحظة الفائدة التعليمية الواضحة لهذا المشروع. فإذا كان التلاميذ قد تطوروا في معارفهم، فقد تقدموا أيضًا في فن الخطابة. إن طلاقتهم، وسلاسة حديثهم، والاستيعاب المفاهيمي والثقافي الذي عكسته عروضهم، يشكل دليلاً دامغًا ـــإن كان لا يزال هناك حاجة لإقناع المتشككينـــ بجدوى المشاريع التي تجمع بين عدة مناهج تعليمية وتخصصات متنوعة.

ثانوية التقنيات والإنسانيات

إذا كان تماسك فريق المعلمين المشرفين على هذا المشروع قد ساهم في نجاحه، فلا بد أيضًا من التأكيد على أهمية دعم مدير الثانوية. ديدييه جورج، المتحمس للانفتاح الثقافي، يدير مؤسسة يدرس نصف طلابها في السنة النهائية في الأقسام التقنية. ومع ذلك، لم يدفعه ذلك أبدًا إلى الخلط بين التعليم والإعداد لسوق العمل، أو نسيان أن مهمة المدرسة الجمهورية هي تكوين مواطنين مستقبليين واعين. يعكس

مشروع ثانوية لو كوربوزييه الالتزامات الإنسانية التي نتشاركها:

"نسعى للتحرر من نغمة التشاؤم المعتادة، ونؤمن بقدرتنا على مساعدة تلاميذنا لتجاوز صعوباتهم من خلال بيداغوجيا مبهجة ومبتكرة تفتح لهم أبواب العالم والآخرين. فإذا كان العلم ممتعًا، وإذا تحولت المدرسة إلى فضاء للازدهار في سلام وأخوة، فإن التلاميذ سينخرطون فيها أكثر. طموحنا هو أن نكون ثانوية التقنيات والإنسانيات. نحن نُعدّ تقنيين ومهندسين مستقبليين في أقسامنا (سواء في التعليم الثانوي أو العالي – BTS والفصول التحضيرية)، وندعم بنشاط طموحات الفتيات بقدر ما ندعم طموحات الفتيان. لكن المستقبل لا يُبنى دون جذور راسخة: لذا، إلى جانب تدريس الفنون، ولا سيما المسرح، نختار دعم تدريس الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية والإنسانيات، عبر مشاريع تتقاطع فيها اللغات القديمة والعلوم السياسية والإثنولوجيا وعلم الاجتماع. بمعرفة ثقافاتهم والعالم بشكل أعمق، وبإتقان التقنيات وأدوات الإعلام المستقبلية، نحن على يقين بأن تلاميذنا سيمتلكون الوسائل لبناء مستقبل يليق بطموحاتهم ومواهبهم وذكائهم".

من الضروري التأكيد أن الابتكار التربوي في المؤسسات التعليمية يتطلب دعم فريق الإدارة. لقد أبدى ديدييه جورج دائمًا اهتمامًا بأنشطتنا: فقد وفر لنا، من خلال مناقشة محتوى وشكل أعمالنا معه، سبلًا للحصول على مورد فكري وعملي مستمر، غالبًا ما كان محفزًا ومجددًا للنشاط.

مؤتمر 6 يونيو 2015

في 6 يونيو 2015، استضافت "لا كومون" حوالي مئتين وخمسين متفرجًا. نظم تلاميذ مشروع "ثيليم" اليوم، وأعدوا الطعام بقدر ما أعدوا مداخلاتهم. أجاب كل من برنار لاهير، موريس غودلييه، جويل كاندو، برنار سيرجان، فيليب ديسكولا، باربرا كاسين، ستيفان فرانسوا، شانتال ديلتونر، فابيان ترونغ، كريستيان بودلو، وجان-لويك لو كيليك (الذين شاركوا بنشاط كبير في التحضير) على أسئلة التلاميذ. أما فرانسواز إيريتييه، التي لم تتمكن من الحضور معنا، فقد منحتنا مقابلة طويلة ساهمت في تعزيز تحليلاتنا وإثراء فهمنا. رسمت مداخلات الضيوف في هذا المؤتمر ملامح تدريس متجدد وموسع للعلوم الإنسانية والاجتماعية في المدارس، بدءًا من المرحلة الابتدائية. هذا هو المشروع الذي تدافع عنه "الأنثروبولوجيا للجميع". قبل أيام من 6 يونيو، تم تكريم "جنود المجد المجهولين" في البانتيون، وهم المدافعون عن الفقراء، المقاومون، والمؤيدون لمدرسة متساوية وثقافة في متناول الجميع؛ وكانت من بينهم عالمة إثنولوجيا. قُدمت هذه الشخصيات الأربع البطولية كنماذج للشباب. كان فخرنا كمعلمين أن نظهر أن شباب أوبيرفيلييه هم بالفعل ورثة هؤلاء الأبطال. نحن نؤكد ونسعى لإثبات أن شباب الضواحي، الذي يعاني من تهميش جغرافي ورمزي على حد سواء، موهوب وحيوي بقدرٍ ما هو مظلوم. إذا كان اكتشاف الآخر شرطًا لهوية هادئة، متباعدة، ذكية وأخوية، فإن التجارب الثقافية التي أُجريت في أوبيرفيلييه تُعد دليلاً حيًا على ذلك، أكثر بكثير من أي مختبر.

مواصلة المغامرة

في ختام يوم الدراسة والتبادل هذا، قررنا

مواصلة المغامرة لنُظهر أن العلوم الإنسانية والاجتماعية تقدم أدوات فعّالة لفهم الثقافة والمجتمع. يحدد مشروع تدريس الأخلاق والتربية المدنية، الذي نشره المجلس الأعلى للمناهج، أنه يقوم على "مبدأ التوازن، من جهة، بين القواعد وقيم العيش المشترك، ومن جهة أخرى، المراجع الثقافية والتاريخية التي تندرج ضمنها هذه القواعد والقيم؛ مبدأ الوضوح تجاه المعلمين، وكذلك العائلات؛ ومبدأ التماسك الذي يستند إلى فكرة الثقافة الأخلاقية والمدنية. تشير هذه الثقافة الأخلاقية إلى مجموعة المعارف والقيم والممارسات التي تُبنى من خلالها العلاقات مع الآخرين".

في هذا السياق، نرى أنه من المفيد اقتراح تدريب يفتح أبوابه للمعلمين الراغبين في الانضمام إليه، وللجمهور الذي يود مواصلة إثراء معارفه وتفكيره. وسيحمل هذا التدريب عنوان: "عالمية الاحترام".

عالمية الاحترام

في المقابلة التي أجرتها "الأنثروبولوجيا للجميع" مع فرانسواز إيريتييه في 15 أبريل 2015، أجابت على السؤال التالي: كيف تنتقل الثقافات؟

"كل شيء يمر عبر الأسرة والمدرسة، أو على الأقل عبر النظام —قد يكون الشارع، أو قد يكون الأدغال— الذي يمر من خلاله تعليم الأطفال. الطفل الأفريقي الصغير يمتلك ثقافة جماعته بسرعة كبيرة، لا شك في ذلك. لكن ما يجب جعله مفهومًا، وهو أمر صعب لأننا عالقون في صراع بين العالميين والنسبيين، هو أن العالمية والنسبية في الثقافات ليستا متناقضتين. كل صورة خاصة من صور الثقافات تمثل تركيبة من المتغيرات، وهذا التفاعل بين المتغيرات هو العالمي، وليس ثقافة بعينها تنتج عن ذلك. لكن بسبب قصر نظرنا، نرى فقط الثقافة التي تُعرض علينا، ونقدمها كالوحيدة، الفريدة، الحكيمة، الطبيعية، التي تلبي كل احتياجاتنا. هذا غير صحيح؛ فالثقافات الأخرى كذلك أيضًا، لأنها تتطابق مع طريقة أخرى للتعامل مع المتغيرات. وهكذا، لن تجد ثقافة تعلم الأطفال عدم احترام آبائهم. هذا ينبع من عالمية العقل. إنه عالمي يبدو لي الآن كواحد من العالميات القليلة -أو الأفكار الثابتة-التي لها علاقة بطبيعتنا البشرية. الأول هو منع زنا المحارم، الذي تحدث عنه ليفي-ستروس، والثاني هو احترام التسلسل الهرمي، الذي يجعل من السهل علينا اللجوء إلى نظام وسلطة. يرتبط ذلك بالحقيقة الأساسية أن النوع البشري متميز في عالم الثدييات، لأنه النوع الذي يحتاج إلى سنوات طويلة حتى يصبح الطفل مستقلاً، قادرًا على الاعتماد على نفسه. خلال هذه الفترة، يكون معتمدًا (ويجب أن يكون مطيعًا) وضعيفًا (يحتاج إلى الحماية). أغلبنا (لأن بعض الآباء قد يتقاعسون) قد عاش هذه التجربة غير القابلة للنقاش للتسلسل الهرمي، أي الاعتماد المطلق للطفل الصغير الذي يُحرك ويُقلّب ويُطعم، وفي الوقت نفسه يجب أن يطيع ويحترم، وهكذا: هذا ما يشكلنا طوال حياتنا."

تعلمنا الأنثروبولوجيا أن هناك عالميات في التصورات: منع زنا المحارم أحدها (كما أظهرت أعمال كلود ليفي-ستروس)، واحترام الأكبر سنًا آخر (كما تقترح فرانسواز إيريتييه). ويرتبط هذا الأخير، في جميع الثقافات، باحترام من يملكون المعرفة. المعلم الذي يدرك ذلك يكون في مأمن فوري من أي خوف من التشكيك في تدريسه، إذا استند إلى

معرفة أنثروبولوجية متينة. يجب أن تتقاطع هذه المعرفة مع تدريس العلوم الاجتماعية، لأن رموز الاحترام تختلف أيضًا حسب الطبقات. غالبًا ما تنشأ سوء تفاهمات بين التلاميذ والمعلمين: معرفة أفضل بالرموز والعادات يمكن أن تساعد في تجنبها.

يومان من التدريب وملتقى ثانٍ

سيُعقد على مدار يومين برنامج تدريبي، يتبعه يومٌ مخصص لملتقى ثانٍ في الفترة من 12 إلى 14 نوفمبر 2015، وذلك في ثانوية لو كوربوزييه وفي مركز "لا كومون". وتوضح ماري-جوزيه ماليس، مديرة مركز "لا كومون"، عن دعمها لهذا المشروع الجديد قائلة: "كان أنطوان فيتيز يقول عن المسرح إنه المكان الذي تتكشف فيه إجابات أسئلة عصر ما، حيث تُبتكر الصيغ التي ستجعل الحياة المعقدة قابلة للعيش والتأقلم. لقد رافق المركز الدرامي الوطني في أوبرفيلييه، "لا كومون"، أعمال تلاميذ ثانوية لو كوربوزييه منذ عام. وساهم معهم في ابتكار وتنظيم ملتقى "الأنثروبولوجيا للجميع". وذلك لأن هذا الملتقى يمثل فرصة للمسرح كي يستكشف مع التلاميذ وأولياء أمورهم والمعلمين والمفكرين الكبار الذين يستضيفونهم، ماهية الثقافة في جوهرها. إن الحياة المعقدة تضعنا في صميم تعقيدات جمة، بدءاً من لعبة هوياتنا التي يعاد تشكيلها باستمرار، وصولاً إلى طبقات مظلمة من سوء الفهم والخوف والتفسيرات الخاطئة. لكن في المسرح، يُعلن أن هذا التعقيد، وهذا الانفتاح المطلق والتكيف مع الآخر، والمجازفة بالعيش دون توقف، هو فرصة سانحة وليست نقمة. وهذه الفرصة، يجب أن يشعر الشباب بضمانها. نحن مدينون لهم بأن نمنحهم فرصة تذوقها، وفهم قوتها ومواردها المستمرة، من خلال تمكينهم من أن يكونوا، أن يتحدثوا، وأن يعملوا بالأفكار. إذن، فالثقافة لا يمتلكها أحد إلا الأفراد الذين يتكون وعيهم من خلال استقبال الآخر.

المركز الدرامي الوطني هو مؤسسة عامة: فهو يساعد في تشكيل أفراد يفكرون بأنفسهم، ويمتلكون الشجاعة والرغبة في مواجهة الأسئلة الكبرى للحياة، ويدعم نجاحهم المستقبلي، ويوفر الضيافة للبحث، لأنه مكان للأحياء، وكلماتهم، وابتكاراتهم الفكرية. إنه يقدم ملاذاً آمناً للثقة، وكذلك للانضباط: هنا نتعلم كيف نجسد الصيغ الجديدة. لذا، فسيكون مركزنا مكاناً لاستقبال هذه الأعمال. وسنساعد في صياغة هذه الاكتشافات وتقاسمها مع الجمهور. لقد أصبح مركزنا الدرامي الآن معروفاً بهذه الصفة: إنه المكان المضياف لأهل هذه المدينة وأعمالهم؛ إنه المكان الذي تتجسد فيه قدرة الناس على ابتكار فرضيات تعود بالنفع على الجميع".

حكمة ومعرفة العادات

لم تنتهِ مغامرتنا بعد. لقد حظيت بدعم إضافي من "G.I.D."، و "E.N.S."، وهي تفخر بدعم علماء يُعتبرون من خيرة الباحثين في فرنسا، كما تحظى بالرعاية الكريمة من "DAAC" في كريتاي. إنها تجمع إرادات متحمسة تعتنق بحماس حكمة مونتاني التي تقول: "كل شخص يسمي بربرياً ما يخالف عاداته؛ ويبدو أننا نعتبر أنه ليس لدينا معيار آخر للحقيقة والعقلانية سوى الآراء والعادات في البلد الذي نعيش فيه. هناك دائماً الدين، والنظام الأمثل، والاستخدام الأمثل لكل شيء".

حوارات

الفنان فلاح العاني: سريالية الواقع مصدر إلهامي

حاوره: زهير الجزائري

*** فلاح العاني، ولد في عام 1967 في مدينة بلد/ العراق. خريج أكاديمية الفنون الجميلة، بغداد 1992 . خريج المدرسة العليا للفنون ليلاهولمن السويد 2013. المعرض الشخصي الأول له/ بغداد 2001. المعرض الشخصي الثاني/ دمشق صالة فاتح المدرس 2007. ثمانية معارض شخصية في السويد. معرض مشترك في متحف الفن في مدينة نورشوبنك. معرض مشترك في متحف الفن في مدينة أوربيو السويدية 2015. معرض مشترك في متحف ليليفالس ستوكهولم 2022, 2023 , 2024 , 2025 . معارض مشتركة في السويد، باريس، شيكاغو، مدينة اسلينغن الألمانية، لندن، روما، مدينة لاكورونيا الإسبانية. حاصل على جائزة موا مارتينسون السويد 2016 . عضو في جمعية الفنانين التشكيليين العراقيين. عضو في جمعية الفنانين السويديين في مدينة نورشوبنك.**

زهير: أعمالك تقترب من كوابيسي: عدم الثبات على الأرض، عدم اكتمال الشكل، حتى علاقات الشخصيات بالأشياء مضطربة، من أين تستلهم موضوعك، من الحياة ، كيف تجمّعهما؟

فلاح: استلهم أعمالي من مزيج من الواقع الحياتي أو من الذكريات أو الانفعالات، من الرؤى التي تشبه الكوابيس، من القلق المستمر الذي يصاحب ويعقب الأحداث التي نعيشها،

حياة مليئة بالتحولات الدراماتيكية والفواجع. عدم اكتمال الأشياء مصدره سببان؛ الاول، رمزي: إشارات للحرب، مثلا وما تخلفه من ضحايا، يتمثل في الأطراف المبتورة، غيمة مشطورة من المنتصف، حصان فقد أرجله الأمامية، كذلك إشارات لخراب البيئة، وكيف ساهم الإنسان في خرابها، الطمع والاستهلاك الجائر لمواردها يتمثل في الأشجار المقطوعة في العش المخرب وفي بيضة مكسورة كانت مشروعا لحياة جديدة، الحاضر الذي يجهض المستقبل.

المصدر الثاني، يأتي من بُعد نفسي وعاطفي حيث تختطف منا أحلامنا قبل اكتمالها.

أبدأ بالرسم من فكرة، شعور أو من سكيتش أولي. أبدأ برسم أشكال محايدة اتركها تسبح في فضاء اللوحة، وأثناء العمل تأخذ هذه الاشكال موضعها وحجمها ولونها على سطح اللوحة، هناك تنمو هذه العناصر وتشكل حياتها.

زهير: أرجع وأسأل عن المنطق الذي يجمع كل هذه العناصر؟

فلاح: المنطق الذي يجمع هذه العناصر هو محاولة ايجاد عمل يطرح الكثير من الاسئلة للمشاهد أكثر مما يطرح أجوبة، لذلك ترى الفانتازيا في متن العمل الفني.

عوالم كأنّها تأتي من حلم، تعرض نفسها تماما كما لو كانت على خشبة مسرح بإضاءة مثالية وحدود واضحة تؤكد حضورها.

الكابوس

زهير: الحلم أو الكابوس، إلى أي مدى يلعب دوراً في تشكيل موضوعك؟

فلاح: الكابوس نفسه او الحلم نفسه لا يلعب دوراً كبيراً في أعمالي، بمعنى أنا لا ارسم كوابيسي، بل ان الكوابيس تكون محفزاً لطرح مواضيعي بمزاج ما بنفس الطريقة الملتبسة التي نرى فيها أحلامنا عوالم يحكمها اللامنطق. الحلم يفتح لي الباب على الرموز والرغبات العميقة، هو طاقة داخلية تشكل جوهر التجربة الفنية.

زهير: هل يمكن أن تصف عملية التشكل من الذهن إلى اللوحة، هل ترى الموضوع ذهنياً ثم تضعه على اللوحة، ام يتشكل الموضوع خلال العمل؟

فلاح: امتلك طقوسا معينة للرسم، فأنا متعود ان اجلس في المقهى لبضع ساعات بشكل شبه يومي. اقضي جلّ الوقت في عمل اسكيتشات، سواء لعمل اخطط ان ارسمه لاحقا، او لمجرد المتعة. لذلك تتكدس هذه التخطيطات في حقيبتي التي ترافقني إلى اي مكان اذهب اليه. أبدا بالرسم مع واحد او اكثر من هذه التخطيطات، تخطيط أولي محايد إلى حد ما، سرعان ما يتطور كأنه شرارة لا بد منها لتحضير النار. أثناء العمل تبرز الكثير من الاقتراحات عليّ ان اختار بعض منها.. هنا تبدأ عملية ذهنية في مناقشة جميع الاقتراحات مع نفسي وفي النهاية اختار احدها. عند الاختيار أناقش هذا الحل على المستوى الفكري وكم هو مناسب لثيمة العمل، وعلى مستوى اللغة البصرية؟ كيف يمكنني إخراجه لكي ينسجم مع أسلوبي في الرسم؟ كيف يتناغم مع العناصر الأخرى في العمل الفني؟ يصاحب ذلك متعة كبيرة في الاكتشاف، في كثير من الأحيان أغيّر الشكل الذي اخترته ليتناسب مع بقية الأشكال، ولكي يولّد حواراً أنقى معها.

ما قبل الحركة

زهير: كل ما في لوحاتك مهيّأ للحركة لكنه لا يتحرك؟ هناك مشروع نحات؟

فلاح: الأشكال التي ارسمها تعرض نفسها بثبات وسكون كما لو كانت تتوقف لكي نراها بوضوح، كما لو كانت على خشبة المسرح بظروف اضاءة مثالية. أحب النحت واستمتع بزيارة اجنحة النحت في المتاحف او المنحوتات التي نراها في الميادين وفي الحدائق العامة، لكن أن أكون نحاتاً فذلك شيء آخر، فهو يتطلب عمرا إضافيا كي أكون بارعاً فيه. في اكثر من مناسبة عملت بعض المنحوتات التركيبية وكذلك بعض أعمال الانستوليشن وعرضتها في متحف الفن في مدينة (نورشوبنك السويدية) إلى جانب أعمال الرسم.

سريالية الواقع

زهير: أحسبك من السرياليين، هل هذا صحيح؟ مَن مِن السرياليين العظام أقرب إليك؟

فلاح: أصنف نفسي كسريالي تعبيري حديث. سريالية ذات طابع شخصي مصادرها الإحساس باللاواقع والتحول الدائم، غياب المنطق الواقعي لصالح منطق الحلم والكابوس. لا اعرف إن كان أسلوبي قريبا من أسلوب احد السرياليين العظماء، ربما على نحو ما قريب من الفنان الهولندي هيرونيموس بوش الذي عاش في القرن الخامس عشر.

زهير: الشر وخطيئة الإنسان، هل هو موضوع ديني كما طرحه بوش بالنسبة لك أم سياسي اجتماعي؟

فلاح: بوش عاش في زمن كان يهيمن عليه الفكر الديني المسيحي وكانت افكار مثل الخطيئة والثواب والعقاب الإلهي من ضمن المحركات الرئيسية له. أنا أرى الشر والخير والخطيئة من منظار آخر، مثلا الانحرافات الأخلاقية للسياسيين واستغلالهم لمناصبهم وتمريرهم لقوانين تدمر البيئة وحياة الناس هو الشر بعينه. نهب المال العام وسلب حقوق الناس في الحصول على حياة كريمة هو الخطيئة. المرأة وما وقع عليها من حيف من خلال سن قوانين تزويج الأطفال هو الخطيئة. إذا أمعنت النظر في كثير أعمالي الفنية التي أنتجتها في آخر خمس سنوات فستلاحظ هناك مسافة بين الرجال والنساء هناك حوار مقطوع بينهم وكأنّ المرأة تعيش في عالم آخر مواز، هي إشارة لما أسلفت.

زهير: هل تجد أن السريالية أقرب للمزاج الفني العراقي الملتبس وغير المستقر، هل هناك سريالية عراقية ذات سمات محلية؟، من يمثلها في رأيك؟

فلاح: نعم، السريالية قريبة من الواقع العراقي المليء بالتناقضات، حيث الذاكرة الجمعية المثقلة بالعنف والأساطير.

زهير: مَن غيرُك يمثلها؟

فلاح: الفنان علاء بشير من ضمن من يمثلون هذا الاتجاه، حسب ما أرى.

زهير: في رسومك، رموز ثابتة غير مكتملة، وأحيانا مركبة (الحصان، الطير، البوق...) هل لها معنى محدد، هل لها صلة بتجاربك الحياتية؟ بطفولتك كما السريالي هنري روسو.

فلاح: الطير له حضور كبير حتى في أول الأعمال التي رسمتها في العراق. كان يحضر الطير إلى جانب الفزاعة في بواكير أعمالي. من قريتي التي ولدت وترعرعت فيها بالقرب من مدينة بلد، من هناك من طفولتي حيث الحقول والفزاعات والطيور هي المشاهد التي تستقر في مكان أثير في ذاكرتي. البوق يأخذ معنى النداء والحوار وأحيانا النذير لحدوث خطب ما.

أما الحصان مبتور الأرجل فهو رمز لما كان قد حدث في بغداد عندما كانت مسرحاً لأحداث دامية استمرّت عدة سنوات، كان بطلها السيارات المفخخة التي تركت خلفها آلاف من المعاقين والأشلاء.

أدب وفن

العراق الثقافي الراهن

حسب الله يحيى

في العراق الراهن؛ ممنوع أن تفرح وأن تغني وترقص.!
وفي العراق أيضا، هناك معاهد وكليات للفنون.. يتلقى فيها الطلبة معلوماتٍ ويكتسبون خبرات لغرض إعدادهم لأداء فنون شتى.
في حين نجد أن كل الفرق الموسيقية الاهلية تم الغاؤها في وقت توجد دائرة رسمية باسم (دائرة الفنون الموسيقية) و(مدرسة الموسيقى والباليه).
وهناك دائرة للسينما والمسرح تتولى إقامة مهرجانات دولية، من دون ان تكون هناك مسرحيات عراقية ـ الا في القليل النادر الذي يعرض ليوم او يومين ـ اما السينما فتتولى امرها (المولات) التسويقية للترفيه عن المستهلكين، وذلك بتقديم عروض سينمائية لهم واستقطاع مبالغ لقاء هذه العروض، كفقرة من فقرات التسوق التجاري!
هذا التناقض الغريب والعجيب؛ نراه في عراق مليء بالتناقضات..
وتقف وزارة الثقافة والسياحة والتراث تتفرج على هذه المشاهد المتناقضة غير الثقافية، من دون ان تحرك ساكنا!
دوائر هذه الوزارة معطلة، لا تؤدي المهام المناطة بها، كونها بلا تخصيص مالي ولا رعاية ولا اهتمام يذكر.
في الوقت نفسه، لا نريد ان نبخس حقا تستحقه دار الشؤون الثقافية، ولا نهمل نشاطا مماثلا لدار المأمون للترجمة.
ولكن هل هذه ثقافة العراق، وهل يمكن ان تشكل المشهد الثقافي العراقي؟
أما اتحاد الأدباء والكتاب في العراق، فحركته دائمة ومثمرة ومحمودة.. ونقابة الفنانين نشرت كتبا فنية ثم توقفت.
ترى هل بات العراق مقفرا من الثقافة والفنون؟ وهل يراد له أن يبقى هكذا معطِلا للثقافة والمثقفين، بدلا من ان يكون داعما لهم، وراعيا لوجودهم؟
أين العراق المدني؟ وأين العراق الذي أنجب الجواهري والرصافي والنواب والفرق الموسيقية الشعبية والمسارح وقاعات الفنون؟
اين غابت الذاكرة عن محمود صبري وحسين الرحال وشاكر حسن السعيد ومحمد غني؟ واين جيل ما بعد يوسف العاني والرماح والاسدي؟ اين الجيل الروائي الخالد الذي كنا نرى صورته عبر غائب طعمة فرمان وفؤاد التكرلي؟ اين الجيل الجديد من الادباء والفنانين في عراق اليوم؟
نحن نتساءل، ولا علينا من الاستثناءات، فدورها محمود ومحفوظ نعتز به، لكنه ما زال يواجه المصدات والعقبات!
العراق الثقافي الراهن.. الى اين؟
هل يتجه الى الجهل، ام يظل في سبات..؟

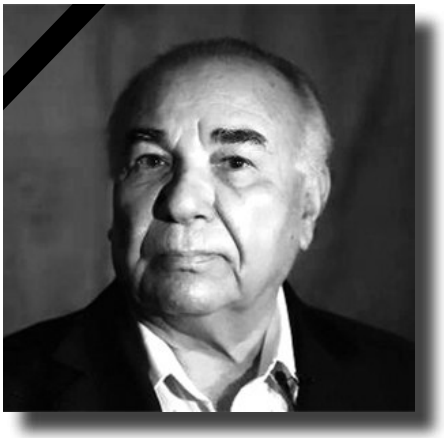

وداعا .. ايها الناجح بأمتياز

فقدت الاوساط الثقافية والمعرفية في العراق مؤخرا قامة شامخة ومتفردة واثيرة تتجسد في الراحل الكبير الاستاذ ناجح المعموري ، رئيس اتحاد الادباء الاسبق .
كان الفقيد الراحل ناجح المعموري سيد الكلمة الصافية المنتقاة ببراعة عبر دراساته المعمقة للاديان والاساطير فضلا عن ابحاثه النقدية ونصوصه الجمالية الاخاذة .
ناجح المعموري .. ترك لنا مكتبة غنية تعد مرجعا للدارسين وكان بمثابة مؤسسة ثقافية ، قدمت زادا معرفيا امتد منذ الستينات حتى رحيله المكلل بالامتياز والاصالة والموقف الوطني التقدمي والثراء المعرفي الجاد والرصين .
لروحه السلام والطمأنينة .

هيئة تحرير
مجلة الثقافة الجديدة

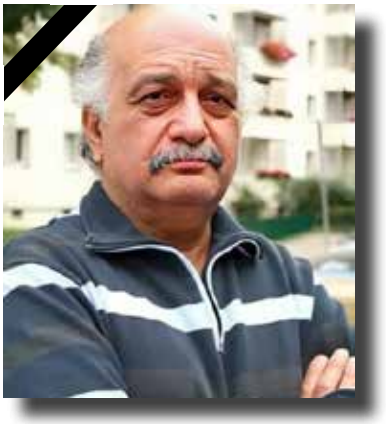

وداعاً أيها الفنان الملتزم!

زهير الجزائري

الصمت، وهو في الغالب صمت حزين، هو لغة مكي حسين في التعريف بموقفه السياسي وفنه. نادرا ما عبّر عنه كتابة أو حديثاً. طوال حياته في المدينة أو الجبل كان هذا الصمت ملازماً له. يسمع ويجيب في حدود اللازم. لكن لغته الثرية تتجلى في النحاس بدلا من الكلام، بالنحاس وهو يصبه ويطرقه أو يجلوه تتجسد لغته التعبيرية وانحيازه للإنسان كموضوع، وبإلحاح يحول الكتلة الصلدة الصامتة والساكنة إلى فعل اجتماعي. تشكل وعي مكي حسين في ستينيات القرن الماضي في أوضاع ثقافية مع صعود اليسار في الوسط الثقافي، وفي وعي ينطلق من الذات نحو المسؤولية الجماعية، متأثرا بالتيارات الغربية بين هنري مور الإنكليزي و جياكومتي السويسري، الإنسان كموضوع مركزي، الإنسان حبيس مربع ومتمرد على هذا السجن بحركة عريضة أو مستقرّة فيه.

عاش مكي حسين سنوات نضوجه في كردستان مع الأنصار الشيوعيين. هناك كنت قريباً منه وجمعتنا مهمات حزبية مشتركة في فصيل واحد. أسمع اعتراضاته عن القضايا بانتباه. عقله يتابع دقائق العمل ولا يتوقف عن النقد، لكنه ينفذ مهماته بصبر وإيمان. الطبيعة حولنا مليئة بالتعرجات وتقدم للنحات أشكالاً لا تحد، وهي كريمة بالأخشاب التي تنتظر لمسات النحات. تمنى مكي ان يملأ وادينا بتماثيل تنتظر الزمن الطيب الذي سيأتي فيه سواح لمشاهدة تماثيل صنعت من مادة الطبيعة ووحيها، لكن المجزرة قطعت أحلامه. مع ذلك بقي الفنان مكي حسين وهو في المنفى وفيّا لفكرته وفنه.

ادمون ولسون:
من قلعة أَكْسل إلى سجلَّات التأريخ

د. نادية هناوي

يحتلُّ السَّردُ التسجيليُّ مكانةً أثيرةً في كتابةِ التاريخ الأدبيِّ، وهو المفضَّلُ على السَّردِ التاريخيِّ لأسبابٍ كثيرةٍ. في مقدمتها أنَّ الزمانَ في السَّردِ التاريخيِّ يتوسطُ بين المعيشِ والكونيِّ في حين أنَّ الزمانَ في السرد التسجيلي تقويميٌّ، وفيه الحدثُ وقعَ فعليًا باليوم والشهر والسنة.

وليسَ الزمانُ التقويمي هو الزمانُ المروي أو المسرود الذي يحتاج فيه المؤرخون إلى التأمل والتفسير، بل هو زمانُ المواقيت Chronicle وحدده بول ريكور بثلاثِ سماتٍ أساسية: 1/ حدث مؤسس يُتخذ بدءًا لحقبة جديدة، 2 / إحالة إلى المحور الذي يحدده هذا الحدث التأسيسي، 3/ شبكة من وحدات القياس تساعد في تحديد الحقبة مثل وحدة اليوم وهو بين شروق الشمس وغروبها، والشهر وهو محسوب بدورة الشمس أو القمر، والسنة مقاسة بالنسبة إلى السنة التي سبقتها أو تليها، والفصول الأربعة في تتابعها السنوي[1].

وإذا كان السَّردُ التاريخيُّ يوثق للأجيال القادمة على وفق إيقاعية حياتها البيولوجية وما تركته من أثرٍ في الحاضرِ المعيشِ والزمانِ الكونيِّ، فإنَّ السرد التسجيلي يوثق ديمومة حياة الأجيال الأدبية على وفق إيقاعية مسيرتها الفنية من ناحية التطوير في الأداء والانتماء إلى التيارات، وما شاكل ذلك. وما لهذا كله

من أثرٍ في تعاقبِ الأجيال الأدبية بكل ما فيها من متعاصرينَ وأسلافٍ وأخلافٍ. ومن أجل تسجيل سردية الزمان التقويمي، يقترحُ بول ريكور أداتين هما: إعادة التصوير والإحالة. وعلى وفقهما يكونُ الماضي قد وقع ذات مرةٍ، وإن كان قد اختفى.

وكثيرة هي كتب تاريخ الأدب التي فيها يُوظف السرد التسجيلي، ولعل أكثر كاتب غربي كرّس إمكانياته النقدية لتدوين التاريخ الأدبي هو الأمريكي ادمون ولسون (1895 - 1972) الذي اهتم بتتبع الزمان التقويمي في تسجيل تاريخ أدباء أوروبا وأمريكا، مستجمِعًا المعلومات والسير الشخصية، ومستدخِلًا فيها النصوص الشعرية والنثرية، مشكِّلا مادة سردية، يمنحها بأدواته النقدية صياغةً خاصةً

وبمقاصدَ وتصوراتٍ تسجيليةٍ نقديةٍ معًا.
وعلى الرغم من انهماك ولسون بالسرد التسجيلي في كتابة التاريخ الأدبي، فإنه أيضا ناقدٌ من طرازٍ خاصٍ. وله كتب عدة منها (القوس والجرح) و (المفكرون الثلاثيون) و(صدمة الاعتراف) و(مذكرات بلدة هيكاتي) و(العشرينيات) و (رسائل في الأدب والسياسة) و(نافذة على روسيا) و(إلى محطة فنلندا) وغيرها كثير. وهو صاحب مقال (من قتل روجيه اكرويد) وفيه حلل رواية بهذا الاسم للروائية اغاثا كرستي. ولولسون رواية واحدة هي (فكّرنا بديزي) وتحكي التاريخ الثقافي لحقبة نهاية القرن التاسع عشر. وأشهر كتبه (قلعة اكسل Axel Castle) وفيه درس الأدب الإبداعي الذي ظهر بين الأعوام 1870-1930 وصدر بالإنجليزية عام 1931. وفيه أكد أن لكتابة تاريخ الأدب أهمية نقدية، يُرتجى منها رصدُ التطور الفني للأدباء اعتمادا على المتعينات النصية -على اختلاف أجناسها وأنواعها - والمتعينات السيرية المتمثلة بحياة الأديب الأسرية ومسيرته الثقافية. والتعامل مع تلك المتعينات بوصفها واقعا حصل في زمن ماض أولا، ومنتوجًا له شروطه الواقعية في الزمن الحاضر ثانيا، ومنظورا إليه مجازيا في الزمان الكلي ثالثا. وهذا المنظور هو بمثابة حكم أخلاقي تقديري على ما سيؤول إليه أدبُ الأديب مستقبلاً.
وبسبب ما تمتع به ادمون ولسون من روح نقدية في تسجيل التاريخ الأدبي، كان تعامله مع الزمان التقويمي تعاملاً تتابعيًا حينًا وتعاقبيًا حينًا آخر، مبينًا أننا "في محاولتنا كتابة تاريخ الأدب علينا أن نحذر من أن نعطي الانطباع بأن هذه الحركات والحركات المضادة تتعاقب بالضرورة على نحو منظم ومؤقت.. الذي يحدث هو بالطبع أن المجموعة الواحدة من الأساليب والأفكار لا تلغيها كليا المجموعة الجديدة، بل إنها بالعكس تبقى مزدهرة رغما عما استجد بعدها"[2].
وبهذا يكون السرد التسجيلي فعلا نقديا، ويكون تاريخ الأدب ممارسة من ممارسات النقد الأدبي حيث الكاتب ناقدٌ للأدب، يرتكنُ في ذلك إلى التقاويم أو المواقيت في صناعة سردية تسجيلية، فيها الزمانُ كليٌّ بعكس السرد التاريخي الذي هو في الأساس فعلٌ قصصي، ينطوي على حبكة مؤلفة من أحداث متسلسلة على وفق نظام سببي، فيه السارد يهتم بالزمان المعيش والزمان الكوني وبغيته بلوغ زمان ثالث هو "الزمان المروي"[3].
واتجه نقد ولسون في تسجيلاته السردية إلى زمان المواقيت المتعلقة بحياة الأديب من ناحية أسرته والوسط الثقافي الذي تعامل معه واتجاهه الفني ونتاجه الشعري أو النثري. وعادة ما يستشهد ولسون بهذا النتاج من أجل التدليل على مواطن تطور أساليب الأديب، وما انطوى عليه أدبه من ميزات فنية أو موضوعية.
والمنهج الذي اعتمده ولسون في هذا السياق وبه حققَ توازنًا ما بين زمان التقويم والزمان الكلي هو منهج التمثيل بحياة "اكسل" بطل الشاعر (فليبير دي ليل ادم) الذي كتب عام 1890 قصيدة نثر درامية طويلة، فيها (اكسل) شاب يتمتع بجمال وثراء، ويقيم في قلعة قديمة معزولة في أعماق الغابة السوداء. أوقف حياته على التخصص في فلسفة الكيمائيين الباطنية في ظل أجواء تشيع فيها الرومانسية وموسيقى فاغنر. وحدث أن وقع في حب فتاة تدعى سارة. وانطلاقا من فلسفته الباطنية قرر الانتحار وأقنع فتاته بذلك أيضا. وبالفعل

تجرعا كأس السم وماتا وهما في نشوة[4].

اتخذ ولسون من سيرة "اكسل" معيارا، يماثل بها سيرة الأديب الذي توفرَ على الإمكانيات، وامتلك القدرات، فوضع نصه/سيرته ثم قرر أن يرحل "في كتابي هذا، صببتُ همي على الكتّاب الذين انتهجوا بوجه عام طريق اكسل"[5] وباعتماد هذا المنهج تكون دلالة السرد التسجيلي هي نقد تاريخ الأديب الذي فيه الحياة الشخصية رمزية حيث الزمان التقويمي ثابت ومحدد، أصيل أو أصلي يتجلى في الأخبار التي فيها يتطابق الحدث مع زمان وقوعه، سعيا إلى بلوغ حكم تقديري، يرشح الأديب لأن يكون ذا موقع في تاريخ الأدب أو لا يكون "اعتقد أنه قد دنا الوقت الذي سنرى فيه أن هؤلاء الكتّاب الذين كانت لهم السيادة في عالم الأدب في العقد الواقع بين 1920 و 1930 على استمرار إعجابنا بهم، لن يلعبوا دور الناجح والدليل لنا لمدة أطول؛ فعالم اكسل عالم الخيال الخاص المقيم في عزلة عن حياة المجتمع، قد استغل واستقصي فيما يبدو لأبعد ما يمكن في الوقت الحاضر"[6].

وفي هذا الحكم النقدي تأكيد لحقيقة أنَّ السَّردَ التسجيليَّ وهو يوثق حيوات الأدباء، فانه في الآن نفسه يُعيد تصوير نصوصهم. فإنْ كانت أصيلة، أحالت إلى تقاليد الأدب الرفيع. وإن لم تكن كذلك، احتضرت تحت ضغط القادم في المستقبل من فكر وأدب حقيقيين.

إنَّ هذا الرصد النقدي هو المطلب من وراء السرد التسجيلي لتاريخ الأدب؛ فالنقد فعل يقوم على العرض والتحليل والتفسير لما كان قد تحقق أدبيا وتمت أرشفته تاريخيا. وما بين التحقق والأرشفة يغدو تاريخ الأدب فعلا تسجيليا، غايته رصد النصوص من خلال أصحابها أو بالعكس رصد أصحابها من خلال نصوصهم. وهذه هي شعرية التسجيل التي فيها المؤلف يُستبقى بنصه والنص يستدعى من خلال مؤلفه ضمن سلسلة، كلُ ما فيها حصل فعلا في الماضي الذي يتم استذكاره في الحاضر أي في اللحظة التي يُسجل فيها زمانه التقويمي، فيغدو الماضي مساويا للحاضر. وما بين استجماع الماضي بالحاضر، يكون التنبؤ بمستقبل ذاك المؤلف ممكنا.

وبهذا يستكمل الزمان التقويمي حلقة، فيها الزمان الفيزيقي والنفسي موجودان كأرضية لزمان كلي تتحدد فيه قيمة الجيل الأدبي بنتاجات أفراده وعلاقاتهم وصراعاتهم. والجيل الذي اعتنى ادمون ولسون بسرد زمانه التقويمي، اشتمل على شخصيات أدبية مهمة أثَّرت في الزمان الكلي. وهو ما جسَّده ولسون في كتاب آخر أقل شهرة من كتاب (قلعة اكسل) هو كتاب "شواطئ النور: تاريخ أدبي لعشرينات وثلاثينات القرن العشرين"[7]. وصدر في طبعته الأولى عام 1952 بأكثر من ثمانمائة صفحة، وفيه طبَّق ولسون منهجه التمثيلي، وقدَّم سردا تسجيليا لأكثر من أربعين شاعرا وساردا غربيا، منهم مثلا فيتزجيرالد وبايرون وشيروود أندرسون ويوجين أونيل وإرنست همنغواي وفيرجينيا وولف وت. س. إليوت ودوس باسوس. وبعض من هؤلاء الأدباء، كان ولسون قد تناولهم في كتابه (قلعة اكسل).

واستند في تمثيل كل شخصية أدبية إلى وثائقَ محفوظةٍ في الأرشيف الذي هو عبارة عن سجلاتٍ مرتبةٍ على وفق نظام عام مؤسساتي أو خاص شخصي. هذا أولا واستند ثانيا إلى فكرة إعادة تصوير هذه الوثائق والإحالة إليها من خلال تحليلها تحليلا نقديا ثم استجماع حكم تقديري نهائي يتعلق بتلك الشخصية الأدبية

ثالثا.
ولقد أكد ولسون أن هذا الكتاب – وهو غير مترجم إلى العربية على حدِّ علمنا - سجلٌ أدبيٌّ للكتب والأفكار والحركات والحياة الأدبية لحقبة كانت حيوية أكثر من الحقبة المظلمة التي تلتها وهي حقبة الحرب العالمية الثانية. وأشار إلى أن هذا الكتاب كان مقررا له أن يكون استكمالا لكتاب آخر هو (الكلاسيكيات والإشهارات التجارية: سجل أدبي لأربعينيات القرن العشرين) غير أن ولسون وجده يقتصر على مجرد مقالات ومراجعات حسب، في حين أن كتاب (شواطئ النور) اشتمل على حوارات ومقالات قصيرة ورسائل شخصية. وأضاف إليها أيضا بعض النصوص غير المدونة، والتي هي جزء من التاريخ الشفاهي لثقافة العصر "حيث كانت العقول والخيالات تستكشف في جميع الاتجاهات. لقد قمت بكبح أفظع انحرافاتي، وراجعت بدقة تقريبًا كل شيء، أحيانًا بتقليم وتخفيف ما كتبته في الأصل، وأحيانًا بتوسيع المحتوى بمادة من ملاحظاتي القديمة. في بعض المقالات التي كُتبت بشكل سريع، وجدت من الرضا أن أضعها في شكل أفضل، حتى بعد مرور عشرين أو ثلاثين عامًا. في هذا المجلد، لم أرتب القطع بترتيب زمني صارم، بل جمعتها أحيانًا بطريقة تجمع بين مقاطع تدور حول موضوع واحد أو تظهر جانبًا معينًا من الحقبة"[8].

وبلغ عددُ الوثائق التي اعتمدها ولسون تسعًا وسبعين، منها سبعٌ وثلاثون وثيقةً، تظهر لأول مرة في كتابه (شواطئ النور) وتختص بسيرة كرستيان جاوس وفيتزجيرالد وبايرون وشيروود اندرسون وغيرهم.

ولقد حددّ ولسون ثلاث نقاط سينطلق منها في تسجيل سردية كل شخصية من شخصيات حقبة العشرينات والثلاثينيات. وأولاها شخصية كرستيان جاوس وهو شاعر وناقد أمريكي، وصفه ولسون بمعلم الأدب (Christian Gauss as a Teacher of Literature) وكالاتي:

أولا: الحدث المؤسس الذي به تبدأ هذه الحقبة، والمتمثل بوفاة كرستيان جاوس وبزمان تقويمي محدد بـ 1 نوفمبر 1951.

ثانيا: الإحالة إلى المحور الذي حدده هذا الحدث التأسيسي، وهو كتابة سرد تسجيلي لحياة جاوس وأدبه " عندما توفي كريستيان جاوس، طلبت مني مجلة خريجي برينستون أن أكتب شيئًا تكريميًا لمجموعة من المذكرات التي كانت ستنشر في عدد 7 ديسمبر. أرسلت للمحرر، الذي كان يريد عمودًا، جزءًا فقط مما كتبته استجابة لهذا الطلب، وتم تقليله كثيرًا قبل أن يُنشر".

ثالثا: تحديد وحدات قياس الأسلوب من أجل معرفة مواطن التطوير الأدبي وهي:

1 - اللغة الأدبية "وُلد من أبوين ألمانيين في ميشيغان، وكانت اللغة الألمانية لغته الأصل. قضى في شبابه وقتًا طويلًا في فرنسا. وكان يتحدث الألمانية بشكل صحيح وبارع؛ لكن الفرنسية والإيطالية والإنجليزية، على الأقل، كان يتكلم بها ببطء ووضوح، مع نطق متعمد، ولم يكن يدمج الكلمات، كما لو أنها ليست من لغته الأم".

2 - الدور الثقافي الذي أداه موظفا في "منزل جوزيف هنري الأصفر والأبيض الذي بُني عام 1837" وهذا ما جعله على تماس مع الزوار يناقشهم في موضوعات أدبية أو تاريخية أو جامعية.

3 - المستوى العالمي الذي بلغه من جراء دقته

ولطف نبرته "ما يخلق نوعًا من المحايدة في الجملة التي ينطقها وكأن كل شيء في العالم قابل للذوبان فيه. لم أعرَف أبدًا شخصًا مثله في أي مجتمع أكاديمي".

وانتقل ولسون إلى تناول سيرة أديبٍ أكثر شهرة من جاوس، هو سكوت فيتزجيرالد[9] وسجَّلَ تفاصيل حياتية غاية في الدقة من قبيل ما نقله عن شخص، وصفه بالمشهور، أنه شبّه طريقة تفكير فيتزجيرالد بامرأة مسنّة غبية، ترك لها شخص ما ماسة؛ فهي فخورة جدًا بها وتعرضها للجميع عند مرورهم، ولكن الجميع كان مستغربا كيف لامرأة مسنّة جاهلة أن تمتلك جوهرة ثمينة كهذه؛ وهي لا تظهر أية تصرفات مناسبة سوى تعليقات تدلي بها عن الماسة.

ورفض ولسون هذا التشبيه، وعلل رفضه بالآتي "لم يكن الشخص الذي اخترع هذا التشبيه يعرف سكوت فيتزجيرالد جيدًا، وأعتقد أنه ربما شاهده فقط في أوقات أكثر ترددًا أو بدون إلهام. ويجب على القارئ ألا يظن أن هناك حقيقة حرفية في هذه الصورة. فسكوت فيتزجيرالد، في الواقع، ليس امرأة مسنّة، بل هو رجل شاب وسيم جدًا، وليس غبيًا على الإطلاق، بل على العكس، هو ذكي بشكل يبعث على الإعجاب. ومع ذلك، هناك حقيقة رمزية في الوصف المقتبس أعلاه: ذلك أن فيتزجيرالد قد تُركت معه جوهرة، لم يعرف تمامًا ماذا يفعل بها".

وهذا يعني أنَّه مثلما ينبغي على الناقد الأدبي التحلي بالموضوعية، فكذلك الحال مع السارد التسجيلي الذي يدون سجلات الشخصيات الأدبية ويحلل نصوصها الشعرية والسردية، معتمدا على الوثيقة في الإحالة وإعادة التصوير ومن ثم الحكم التقديري.

وتتعددُ الوثائق التي أحالَ إليها ولسون، متبعًا في ذلك كله المنهج التمثيلي. ومن مجموع سردياته التسجيلية للشخصيات الأدبية، قدَّم نقدا أدبيا لتاريخ جيل بكامله.

وكان من تأثيرات مشروعه في كتابة التاريخ الأدبي، أن أنشئت بعد وفاته بعشر سنوات سلسلة المكتبة الأمريكية للأعمال الوطنية الكلاسيكية.

الهوامش

(1) ينظر: الزمان والسرد، الجزء الثالث الزمان المروي، بول ريكور، ترجمة سعيد الغانمي (ليبيا: دار الكتاب المتحدة، ط1 ، 2006) ، ص 157 .

(2) قلعة اكسل، ادمون ولسون، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 3 ، 1982) ص 16.

(3) ينظر: الزمان والسرد، الجزء الثالث، ص 149.

(4) ينظر: المصدر السابق، ص 205.

(5) المصدر السابق، ص 221 .

(6) المصدر السابق، ص 224 .

(7) Wilson، Edmund، The Shores of Light : A Literary Chronicle of the Twenties and Thirties، seventh printing، Farrar Straus Giroux، New York، 1979.

(8) Wilson، Edmund، p x.

(Scott Fitzgerald 1896- 1940) أعظم كتاب الولايات المتحدة في القرن العشرين ، أشهر أعماله رواية غاتسبي العظيم. وهي ليس ادوارد فيتزجيرالد البريطاني، مترجم رباعيات الخيام إلى اللغة الإنجليزية عام 1859.

إقصاء الهامش من كتابة تاريخه
قامات
الرمزية والأثر الخيالي
في نصوص الشاعر العراقي رشدي العامل

علاء حمد

تقودنا الرمزية إلى قيمة الشعر في إيحائه، وذلك من خلال الأفكار المتعدّدة والأحاسيس التي تتدخل في جرس المفردة، حيث تعطيها وقعاً في الأذن، فتصل المفردة منغّمة وإن كانت غامضة من خلال السياق.

إنّ ”الرمز في التجريد العقلي مرحلة نهائية للصورة، كان من طبيعتها ثمّ انفصل عنها، او أنّها هي التي تجرّدت عن ذاتها ونزعت إلى أن تكون رمزاً. فيكون الرمز جسداً لآخر تطور بلغة الصورة، ومن شروطه أن يتحقق في قالب“[1].

لا توحي المفردة إلى شيء في حالة انفصالها عن بقية المفردات؛ فالجملة، جملة شعريّة وهي توحي إلى الرمز، وهناك علاقات بين المفردات عند تركيبها لتصبح لدينا صورة شعريّة متكاملة تتميّز باستقلاليتها.

في المنظور النصّي نتوقف عند حالتين من المعاني، وهما المعنى المباشر والمعنى غير المباشر، فالمعنى المباشر هو الذي يدركه المتلقي مباشرة، وعادة يكون فارغاً من التأويل، ونستطيع أن نقول إنّه المعنى العادي، فلا يشتغل النصّ بهذا المعنى، لأنّه يؤدي إلى الضعف النصّي؛ أما المعنى غير المباشر، فهو نتيجة التفاعلات السياقيّة وتوظيف الرموز أو الذهاب إلى المعنى التخييلي، ويكون لهذه المعاني المساحة النصّية التي نقصدها.

إنّ الرؤية الشعريّة تتعامل مع اللغة بوصفها مادة فنيّة، لا وسيلة نقل فقط. في الوقت نفسه يتعامل الشاعر مع اللغة بوصفها طاقة رمزيّة، ويعطي مجالا ومساحة لتشكيل الواقع خارج الوصف، ومن هنا يكون تأثير اللغة الفلسفيّة خارج العقلانيّة، أي أن يكون للامعقول مهمّات وظيفيّة وذلك من خلال؛ الانزياح اللغوي وتجسيد الصور الشعريّة،

والإيحاء، والتلاعب باللغة.

هيَ عاشقتي
وأنا عاشقْ،
من بعيد ألوّحُ،
وكانت، وراء الجدار، تلوّحُ
وأومئ، روحي،
فبوّابة السجن لا تسع اثنين
في موهن الليل،
ها حارس الصمت يدنو،
وتبكي، أقول: استحمي بدمعي...

عندما نكون أمام التحرير الكتابي، فسنكون أمام مساحة واسعة في الاستقطاب الدلالي، لذلك تكون أدوات الربط في الانسجام النصّي، بداية من العناصر التكوينيّة للنصّ المكتوب، حيث إنّ التحرير الكتابي، يشمل اتجاهين؛ الاتجاه الوظيفي؛ ويشمل ما يدور في بيئة الشاعر، أي أنّ للمقرّبات والمتعلقات الذاتيّة الأولويّة في صياغة الوحدات اللغويّة في التعبير الكتابي. والثاني؛ هو التعبير الإبداعي؛ ويشمل الجمل الابتكاريّة وحركة الصور الشعريّة وعناصر الدهشة بمسمّياتها المتعدّدة.

هيَ عاشقتي + وأنا عاشقْ، + من بعيد ألوّحُ، + وكانت، وراء الجدار، تلوّحُ + وأومئ، روحي، + فبوّابة السجن لا تسع اثنين + في موهن الليل، + ها حارس الصمت يدنو، + وتبكي، أقول: استحمي بدمعي...

بين الـ (أنا) والـ (هي) يشير الشاعر إلى بعض الإيحاءات التي ترمز على تعلّق المعنى النصّي، مثلا؛ عندما أشار إلى العاشقة، فقد قابلتها الـ (أنا) العاشقة، وعندما أشار بالتلويح، فقد كانت العاشقة وراء الجدار تلوّح. عادة يكون للعمل الجمالي بداية، وبداية العمل ليست وجوباً ضمن المفاهيم المباشرة، فقد كانت الإشارة التي وظفها الشاعر دالة على معنى، وهذا ما يقودنا إلى السياق الوظيفي التقريبي، أي أنّ المقترب من الشاعر كانت الـ (أنا). "وبالنسبة للساق المرسومة الخطوط هنا، إنّ الأطروحة الكانطية القائلة بأنّ الجمال الطبيعي والفنّ يثيران الإعجاب بدون مفهوم، هي أطروحة مهمة بشكل خاص بمقدار ما تنبثق من نظرية للمعرفة تصرّ على حدود عملية الإدراك"[2].

في بعض الأحيان ومن خلال المنظور المعرفي يكون الشاعر ذا تجربة حياتيّة، فيعكس تلك التجربة من خلال المعرفة الذاتية والثقافية، لذلك يتمتع النصّ الشعري بأيقونة مميّزة، مثلا: فبوّابة السجن لا تسع اثنين، ومن هنا يبدأ الشاعر العراقي برحلته، تارة عندما يرمز ويشير إلى تلك الأشياء، وتارة أخرى، عندما يوظف المتعلقات الذاتية شعراً.

العلاقات النصية الرمزية

عندما نتحدّث عن العلاقات النصّية، فإنّ هناك روابط بين هذه العلاقات بواسطة عناصر النصّ، والتي تؤدّي إلى حتمية نصّية، ومن أهمّ تلك العلاقات، هي العلاقات الرمزية، والتي تتراوح بين الحركة والوضوح، وبين الحركة والخيال، والحركة والغموض، وكانت اللغة عميقة، كلّما تغلغلت الرمزية محمولة بواسطتها، يقول تودوروف: "ليس للرمزية طابع لغوي محض، إنّها فقط محمولة بواسطة اللغة. فالمعاني الثانوية وغير المباشرة تُستثار بواسطة التداعي"[3].

يرى جيرار جينيه أنّ هناك ما يسمّيه " المتعاليات النصّية transtextualité، وهي كلّ ما يربط نصّاً بنصوص أخرى بطرق مباشرة أو ضمنية، إذ يعدّ التناص

فرعاً من هذه المتعاليات، ويوسّع المعنى عبر التفاعل بين النصوص، ومن جهة ثانية تؤكّد "جوليا كريستيفا أنّ النصّ " فسيفساء من الاستشهادات"، ويتكوّن من شبكة معقدة من التداخلات بين نصوص مختلفة، وهذا التداخل يُنشئ "فضاءً نصّياً" مفتوحاً وواسعاً للتأويل.

إنّ علاقة الفهم ومصدره تتمّ من خلال علاقة جدليّة مع النصّ، لذلك يكون للمنظور الشعري مفاهيم ارتباطيّة (تأويلات ارتباطيّة)؛ وعملية الربط تكون ضمن الكلام الذي يقودنا إلى المفاهيم، ومن هنا يكون حكم النصّ (بصيغته الجزئيّة) مرتبطاً بتلك المفاهيم، ويكون للغة فلسفتها اللحظويّة، أي لكلّ لحظة من لحظات الخلق النصّي فلسفة تختلف عن غيرها، ومنها مثلا؛ اللحظة الحداثيّة، والتي تتبع للحظة الآنية في البناء النصّي، وتعتمد على الاختلافات اللغويّة وعلى عوامل تأسيس الصور والتصوير الذاتي.

هنا باقة الصمت
لا تسألي من يكون الحضورُ
ومن يتحدّث عن غابةٍ في جزيرةْ
هنا باقة الورد تذبلُ
بين الأكفّ الفقيرةْ
أتعبتني البحار وأمواجها
ضيعتني الدروب الأخيرةْ.

من قصيدة: حقل الأحزان – ص 547 – الأعمال الشعرية الكاملة

عندما يكون فعل القول، هو القول الشعري الذي يتكلم به الشاعر، سيكون في الوقت ذاته، فعل القول الذي يستمع به المتلقي. ومن هنا يبدأ النشاط وتفعيله في النصّ الشعري، لذلك وجلّ ما نلاحظه تخلّي الشاعر عن

ملامسة ذاته لأجل الذات، فهو ينطلق منها ولكنّه لا يستعمرها في النصّ الشعري.

هنا باقة الصمت + لا تسألي من يكون الحضورُ + ومن يتحدّث عن غابةٍ في جزيرةْ + هنا باقة الورد تذبلُ + بين الأكفّ الفقيرةْ + أتعبتني البحار وأمواجها + ضيعتني الدروب الأخيرةْ.

يقودنا الشاعر رشدي العامل إلى الانزياح الدلالي، وهو يؤكّد قوّة القول والقول الشعري، لذلك لا يتناول فعل القول بمعناه الحقيقي، وإنّما يشير إليه من جهةٍ، ويجمّد معناه المباشر من جهةٍ ثانية. فباقة الصمت التي بدأها في النصّ المصغر، إشارة دلاليّة على القول الوظيفي. وكذلك وظف بعض الإشارات لتكملة قوله، وقد صيّر الإيقاع من خلال القافية ومن خلال تنغيم النصّ، حيث السهولة التي بنى نصّه من خلالها وتوظيفه أحد البحور الخليلية وهو بحر المقارب، وزاوجه ببحر المتدارك، وقد زيّنه بالإيقاع بقوّة. وأراد أن يكون تدوير النصّ سمة تواصليّة.

لقد ذكر بول ريكور في كتابه (من النصّ إلى الفعل): "إنّه لا فعل بدون خيال. وذلك بطرق شتّى: على صعيد التطلع، على صعيد التحفيز وحتى على صعيد القيام بالفعل. في البداية، ينطوي المنظور الفكري للتطلع – أي ما جرت العادة أن أسمّيه العمل "pragma"، بما فيه الشيء الذي سأقوم به أنا – على رسم تخطيطي لشبكة من الأهداف والوسائل، لما يمكن للمرء أن يسمّيه بخطة العمل"[4].

تُعتبر العلاقات النصّية الرمزية ركيزة أساسيّة في بناء النصّ الشعري الحديث، إذ تمنحه غموضاً خلاقاً وجمالية تأويليّة يثري عملية التلقي، ولكن في الوقت ذاته من الممكن أن نكون في منطقة الرمز التوضيحي، فيكون الرمز بوصفه أداة تواصل غير مباشرة، فيشكّل جسراً بين الذاتي والكوني، وبين القول ومنظور الصمت، والتحوّلات الواقعيّة حيث أن الأحلام تسيطر على المنظور النصّي.

الرمزية والتأسيس الفلسفي

إنّ القيمة الكتابية التي تؤدّي إلى معرفة التلميح والإيحاء، جوهرها ليس وصفاً للعالم، أو الدخول إليه من نافذة ضيّقة، بل هو الجدل معه. لذلك فإنّها اشتباكات لغويّة مع اللغة ذاتها، ويكون لتجربة الشاعر أهمّية بالتواصل وظهور المبيّنات ومع المتلقي أيضاً. فالرمزية في هذه الحالة تخلق مسافة، وتتيح للمعنى أن يتوالد من جهةٍ، وأن يعتمد المؤشّرات الاستبداليّة من جهةٍ ثانية.

في المنظور النصّي (الرمزي)، لا يُقدّم المعنى على خطوط مباشرة، بل على تبنّي الإيماءات والتأويلات والمسمّيات والمؤشرات كممارسات تأويليّة ويكون للاستدلال خصوصيّة استنتاجيّة. ومن هنا تتوسّع المساحة النصّية وتُتيح للمتلقي فضاءً مفتوحاً للحوار: بين النصّ والنصّ، وبين النصّ والاستدلال، أي أنّ المقارنة تأخذ مستواها، بين الشاعر وذاته، وبين اللغة وما تنتجه من محمولات وتصوّرات وخيال.

(إذن بالنسبة إلى المؤلف، حتى الخطاب الحرفي، الذي من الشائع أنّه يسمّى ولا يوحي، يستطيع أن ينطوي على إيحاءات رمزيّة. فالوقائع تثبت أنّه حتى الملفوظات الأكثر عموميّة واستخداماً تستطيع أن توحي بدلالات أخرى تُضاف إلى دلالاتها المباشرة[5].

ياولدي
ما العالم إلا كفّينِ
يدٌ تعطي الخبزَ،
وأخرى تسرقُ خبز الناسْ
أعرفُ أنّ الأرضَ لمن يحرثها،
والأرض لمن يزرعها،
لكن القمحَ وأشجارَ البستانْ،
وأعذاقَ النخلةِ للحرّاسْ.

يقودنا المعنى الفلسفي الملازم للرمزيّة إلى حالات استدلاليّة من جهةٍ، ويغور في علم الجمال وترتيباته وتأثيراته من جهةٍ ثانية. لذلك كلما توغلنا في النصّ، ظهرت الأدلّة الجماليّة، ومن أصعب تلك الأدلّة هي الوقوع في الحالات الاستدلاليّة؛ {وقد عرّفه "معجم Robert" في أوّل الأمر بكونه (نشاط العقل الذي ينتقل وفقاً لمبادئ معيّنة، من حكم إلى آخر للوصول إلى نتيجة). لكنّه يضيف على الفور بالنظر إلى صورته باللغة: (سلسلة مرتّبة من الحدود تنتهي بنتيجة). إنّ الأمرين متمايزان تمام التمايز، ويتجلي الفرق بينهما بصورة أوضح عندما ننتقل من الكلام النفساني إلى الكلام اللساني، ثمّ من هذا إلى

الكلام المكتوب[6].

ياولدي + ما العالم إلا كفّينِ + يدٌ تعطي الخبزَ، + وأخرى تسرقُ خبز الناسْ + أعرفُ أنّ الأرضَ لمن يحرثها، + والأرض لمن يزرعها، + لكن القمحَ وأشجارَ البستانْ، + وأعذاقَ النخلةِ للحرّاسْ.

هناك بعض الوحدات الفنية – الفكريّة وظفها الشاعر وهو يخاطب ولده (علي)، وهل فعلا كان المخاطَب حاضراً عندما أسّس الشاعر تلك الوحدات اللغويّة ورماها في حضن أحد البحور الخليلية؟!

لقد تناسل المعنى من خلال النصّ، وهو يرمز إلى بعض الأشياء المرئيّة واللامرئيّة، فالعلاقة التي ظهرت، هي علاقة اللغة بالفكر، فالشاعر يميل إلى الأرض وإلى حالة الفلاح والرأسمالي السارق أو الإقطاعي الذي يتحكّم بالمحاصيل، كلّ هذه رمز لها بمفردة (الحرّاس)، وهي حالة من حالات السخريّة أرادها أن تكون كما نقول (حاميها حراميها).

ومن هنا من الممكن القول؛ إنّ المنظور الرمزي لا يخفي المعاني فقط، بل يفتح آفاقاً معرفيّة بوّابته تقود إلى احتمالات لا نهائيّة، لذلك عندما خاطب الشاعر ولده، رمز إليه وقرّب هذه الشخصيّة وجعلها كولده فولدت الكتابة الجدليّة الشعريّة.

مثلكَ وجهي كان بريئاً،
ودمي ما ذاقَ السمَّ
وحقلي لا ينبت غير القمح،
ولا يثمر إلا أعذاقَ التمرِ،
وساقية في البستان تغنّي للزنبقْ
كان الفجر الطالع أبهى،
والشمس الحلوة أكثر دفئاً،
والليل الناعمُ أرفقْ

من قصيدة: حديقة علي – ص 720 – الأعمال الشعرية الكاملة

من الممكن الدخول بواسطة الرمزيّة إلى المنبهات الذاتيّة وإلى المنبّهات الطبيعيّة، لذلك عندما يتكئ الشاعر على هذه المنبّهات تظهر في النص الأفعال الحركيّة والتي تكون ذات علاقة مع تلك المنبّهات، وخصوصاً أنّ طبيعة النصّ الشعري تشتغل على صفات الأفعال وأقوالها.

مثلكَ وجهي كان بريئاً، + ودمي ما ذاقَ السمَّ + وحقلي لا ينبت غير القمح، + ولا يثمر إلا أعذاقَ التمرِ، +وساقية في البستان تغنّي للزنبقْ + كان الفجر الطالع أبهى، + والشمس الحلوة أكثر دفئاً، + والليل الناعمُ أرفقْ

هناك ارتباط منسوب بين الكلمة والجملة، فعندما نقول وردة، فهي تنتمي إلى الحديقة، ولكن الوردة نفسها إذا غيرنا نسبها، فسنعتمد على الاختلاف، ومنه الاختلاف اللغوي واختلاف المعنى، وهذا يعني أنّنا سنكون في منطقة التأويل، وقد لاحظنا عند الشاعر العراقي رشدي العامل (بالرغم من بساطة الجمل) إلا أنّ معانيه التسلسليّة عبارة عن شجرة تحوي على الكثير من الأغصان، وكلّ غصن يرمز إليه باتجاه معيّن، (مثلكَ وجهي كان بريئاً، + ودمي ما ذاقَ السمَّ)، فالعلاقة التي رسمها هي علاقة مبسّطة بين المنظور الكتابي والأشياء، فقد عدّد الأشياء التي تأثر بطبيعتها، ومنها مثلا: الوجه البريء، الدم والسم، الحقل وأعذاق التمر.. إلخ.

كانت دنياي،
صبايا يغزلن الضوءَ من القمر الشاحبِ،
يخبزن على التنور رغيفاً،
يعصرنَ من الكرمِ نبيذاً يتعتّقْ
كانت دنيايَ...
هي الدنيا

من خلال المحمول الداخلي، تبدأ الكتابة النصّية، وهي تلك الكتابة التي توجد العلاقة أيضاً بين الشاعر وما يحيط به، ولكن هذا لا يكفي عندما يكون الشاعر ذا خاصّية مركزيّة وهو ينتمي إلى تأثيرات متعدّدة من المحيط الذي يسكنه، وإلى المحيط الذي يعايشه.

كانت دنياي، + صبايا يغزلن الضوءَ من القمر الشاحبِ، + يخبزن على التنور رغيفاً، + يعصرنَ من الكرمِ نبيذاً يتعتّقْ + كانت دنيايَ... + هي الدنيا

ما يثبته الشاعر من كتابته ليس واقع الكلام، بل واقع القول الذي كان ينوي قوله، فقوّل النصّ وحوّله إلى كائن حركي مع المخارج القصديّة التي تدور في الذات الحقيقيّة. وبما أنّ الشاعر رشدي العامل قد مرّ بتجارب عديدة على المستويين، الحياتي والشعري، لذلك فقد وظف قوله من خلال جملة أطلقها في الهواء (كانت دنياي)، وقد حوّل تلك التجربة ومنها تجربته في جريدة طريق الشعب مثلا، ورمز إليها بالدنيا، وهي شمولية تجريبيّة – حياتية عندما كانت النعمة الفكريّة تنتشر هنا وهناك.

يقودنا الشاعر إلى بعض التفاصيل الإيحائية: دنياي، صبايا الغزل، الضوء، الخبز والتنور؛ كلّ هذه التواصلات تشير إلى رمزيّة وظيفيّة تخيّلها من خلال تجربته التي مرّت به وما زال يغوص بها.

المصادر

(1) أنطون غطاس كرم، الرمزية والأدب العربي الحديث، دار كشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 8

(2) بيير. ف. زيما، التفكيكية دراسة نقدية، ترجمة: أسامة الحاج، ط1، 1996م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص 12

(3) تزفيتان تودوروف، الرمزية والتأويل، ترجمة وتقديم: الدكتور إسماعيل الكفري، ط1 ، 2017، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية-دمشق، ص 39.

(4) بول ريكور، من النصّ إلى الفعل، أبحاث التأويل، ترجمة: محمد برادة وحسان بورقية، ط1 2001، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعيّة، القاهرة، ص 173.

(5) تزفيتان تودوروف، كتاب: الرمزية والتأويل، ترجمة وتقديم: إسماعيل الكفري، ط1 ، 2017، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية-دمشق، ص 12

(6) روبير بلانشي، الاستدلال، ترجمة: أ. د. محمود اليعقوبي ، ط1 ، ، دار الكتاب الحديث، ص 3

الأجندات السياسية ودورها في رواية (توائم الرجل المسيب)*

رنا صباح خليل**

في رواية" توائم الرجل المسيب" **للروائي طه حامد الشبيب ثمة مجهودات كبرى يتلمسها القارئ، خصوصا أن الرواية تفتح بابًا على منطقة حساسة من التجربة الإنسانية: الشك والبحث المستمر، اذ هناك ابوان فقدا توائمهما الثلاثة بعدما تبعوا عازف ربابة ليأخذهم الى البادية ويتيهوا عن ذويهم على وفق مخطط لانتقاء الاطفال تشرف عليه مؤسسة في الدولة، يقودها مسؤولون كبار، ومن يقص الحكاية هو الاب الذي يدعي أن حبيبته سيبته على الجسر في احدى المدن، ولكنها عادت اليه وتزوجها وانجب منها توائم ثلاثة، ومن ثم فقدهم وفقدها.

الرواية لا تُقدّم أجوبة، بل تترك القارئ مع الصدى، مع الارتجاف الداخلي، ومع شعوره أن الحياة أكبر من قدرتنا على الفهم، وما يقدمه الروائي هنا لغة فصيحة تناسب البيئة البدوية، ولغة اخرى فصحى بسيطة مختلطة بعامية لتناسب من يقص عليهم في مقهى اموري ما جرى له، عندما تركته المرأة التي احبها على ذلك الجسر وهي لغة تمتاز بالسلاسة والوضوح، وفي الوقت ذاته تحمل شحنة وجدانية قوية. وصفها للمشاعر لا يعتمد على الجمل الإنشائية، بل على التفاصيل الصغيرة: تعبير وجه، همسة، رائحة، لمسة. وهذا ما يجعل القارئ يشعر بكل مشهد وكأنه يعيشه.

العملية السردية لدى الشبيب تتحول في الروي إلى فضاءات مفتوحة للعبة وعيه، إذ يتراكب فيها الواقع مع المتخيل السردي، وبما يمنح هذا الوعي قصدية ظاهرة آتية لتكون هي البؤر المولدة للتأليف، تلك التي تتحول فيها اللعبة السردية إلى لعبة استدعاء لكل توليدات الصراع بدءاً من حكاياتها القديمة المولدة لرؤى جديدة، وانتهاء بوجود العناصر والأطر المجاورة لفضاء يصنعه القاص لكسر أفق التوقع، وللإيهام بوجود فضاء آخر للروي يتمثل فيه لفكرة مهيمنة تتجوهر في فعالية صناعة التأليف وليس الانغمار في السياق، أو استعادة الحكي بوصفه تاريخا وتلك الفكرة تتمثلها (اكاديمية النشء الوطنية) وكلمة اكاديمية تعني مؤسسة للتعليم العالي او مجمعا

علميا يضم باحثين ومفكرين لكنها للنشء ـ واي نشء ـ كل من تمت سرقته من اهله او اختطف او وجدوه مرميا بعد ولادة غير شرعية او مرميا من قبل اهله لأسباب مجهولة، لكننا نقف مذهولين امام كلمة (الوطنية) فكيف يكون لمؤسسة دولة ان تعتمد في تهيئة نشء جديد يخدم البلد معتمدة على اساليب غير قانونية، ولا يبيحها العرف ولا الدين ولا المنطق، وكيف ينشأ الاطفال في أجواء غير طبيعية وخالية من السائد الطبيعي بوجود الوالدين في حياتهم، وكيف يستبدل حنان الابوين بالتدريب القاسي والعنف الجبري على تقبل وضع غير سليم وما هو نتاج تلك التنشئة؟

الاجندات السياسية وتركيبتها داخل الروي:

الرواية على طولها وعلى ما تبثه من وجع فقدان التوائم الثلاثة لذلك الرجل الذي سيبته محبوبته على الجسر، وما تأتي به من ألم في طيّات اختفائهم، إلا أنها تحمل قدرا هائلا من التشويق الغريب، فأنت لا تمل منها ولا تريد لها أن تنتهي قبل ان تخرج من دائرة التيه التي تجعل القارئ يعيشها فمع كل صفحة، يزداد شعور القارئ بالضياع، لكنه لا يشعر بالإحباط، بل بالانخراط العاطفي العميق. اللغة الحسية التي يستخدمها الشبيب تسحب القارئ إلى داخل الألم من دون أن تتوسل الشفقة، ومن دون أن تلجأ إلى الميلودراما الساذجة.

ولأن الرواية تطرح قضايا شائكة تواجه المجتمع العراقي، مثل الفساد والجريمة المنظمة التي يغذيها ويدعمها مسؤولون في الدولة؛ كان لزاما على الرواية ان لا تتوقف عند ثيمة الفقد، بل عن الإنسان حين يُجرَّد من كل شيء، ويُطلب منه أن يواصل العيش.

إنها رواية عن سؤال لا جواب له، وعن حب لا دواء له، وعن ألم لا يتوقف كأنك تسير، ليس لأنك ترى في الأفق نهاية واضحة، بل لأن هناك جوعاً دفيناً في داخلك، توقاً لا تعرف له اسماً، يدفعك لتجاوز الخوف، وتخطي الظنون، وعبور آلاف العلامات التي لا تؤدي إلى شيء... سوى المزيد من الأسئلة وهي تنفتح على البعد السياسي والانساني معا، فهي من جهة توثق لتجربة انتقاء الاطفال ليكونوا ابناء للدولة، ولذلك يركز الروائي على وصف هيآتهم ونموهم المستمر بضخامة مبينة دلالة على مصيرهم الذي ينتظرهم ليحموا المسؤولين مستقبلا، ومن جهة اخرى تكشف عن مأساة الفرد الذي يجد نفسه عالقاً في محرقة خراب حياته وتورطه بزيجة لا يملك الخلاص منها، بل تؤدي به في النهاية الى ضياع زوجته التي احبها ايضا. وبهذا المعنى فإن الرواية لا تُقرأ فقط كسيرة ذاتية لذلك الرجل أو نص سياسي، بل كعمل إنساني يضع الإنسان العاري في مواجهة قدره. وبالتالي فان البعد الرمزي لحياة البطل في بيئة بدوية ليست مجرد تجربة مكانية بل هي تجربة وجودية تجعله يعيش حالة من الانفصال عن العالم، محاطا بالظلام والهواجس ومن ثم تحوله الى ذات مأزومة غارقة بالاسئلة عن مصير اولاده، وهو يراهم امام عينيه يشبون على ثقافة غير صحيحة متمثلة بفكرة القداسة التي تتحول من مفهومها القيمي الكبير الى قداسة الافراد مستقبلا؛ ففي تلك الاكاديمية كان هناك صفوف ثلاثة تهيئ خريجين شباباً سينضمون ـ على الأغلب حسب ما يتوضح من طبيعة الافكار المطروحة ـ الى أحزاب.. الرواية تتنبأ بما سيفعله اصحاب الراية السوداء، اولئك الذين كان يراهم المسيب في انخطافات ذهنه يطيرون على ظهور الملائكة، ويفعلون ما

يفعلون حين يسقطون نظام اصحاب الراية الصفراء، أي ان زمن الرواية لا يمتد الى ما بعد سقوط نظام الرايات الصفر، بل ثمة تنبؤ فقط بما سيحدث.

ويثبت ذلك عندما يحدث التناحر بين جماعات الاخوين شامل وادهم، ويصفهم الروائي بذوي الرايات الصفر وهم منتمون لأدهم وقد تسلموا الحكم في البلد وعاثوا فيه تخريبا؛ في اشارة الى اختلاف في التوجهات والمصالح واختلاف الاحزاب وحتى الفك؛ر فبعدما كانوا يدرسون الاطفال في تلك الاكاديمية النهج الذي يؤكد العلاقة الابوية ما بين السماء وبين ابنائها البشر لتنشئة حزب معين وتهيئة اتباعه، والفكر المغاير الذي يتبنى التكتل الجيني للافراد او فكرة ان تكون البشرية بجلها وحدة واحدة ومصالح مشتركة وهم ايضا اتباع لحزب آخر وكل ذلك كان ينضوي تحت فكرة شمولية اكبر تختزنها لفظة القداسة التي تأخذ جدلا يكشف عن وعي سردي يسعى الى زعزعة الحدود التقليدية ما بين الذي نعده طاهرا وما يخفي في طياته من فكر مدنس يؤدي في النهاية الى الاحتراب الذي تتنبأ به الرواية، ومن المعروف ان ذلك فعلا حدث بعد سقوط النظام في عام 2003 في العراق، ومن الناحية السردية يعتمد الشبيب في هذا الموضع من الروي على لغة اعترافية مكثفة، تمزج بين ضمير المتكلم الذي يمنح النص صدقه وحرارته، وضمير الغائب الذي يتيح مسافة نقدية لما هو غير واضح. ويظهر في السرد إيقاع مزدوج: بطيء ثقيل في مشاهد الانخطافات التي تضم مشاهد التوثيق والمعسكرات التدريبية، وسرعة تقريريّة في مشاهد حياة البحث المستمر في البادية عن الابناء، هذه الازدواجية في الطرح تمنح النص طابعاً توثيقياً وفنياً في الوقت نفسه، وتجعله نصاً يتأرجح بين الشاعرية والفجائعية؛ إذ ليس هناك فاجعة اكبر من أن يرى الأب ابنه وهو هنا (شامل) يقطع جسده، ولا يبقى منه سوى الهيكل العظمي على يد جماعات تابعة لابنه (ادهم)، بعد ان اجتاحت الشوارع تظاهرات واغتيالات تعكس طبيعة التجربة العراقية التي انغمس فيها البطل والراوي معاً: تجربة القمع والملاحقة والمعسكرات والحروب الطاحنة بين فئات تسلمت البلد وأودت به الى الانهيار، وبذلك تبرز في النص بقوة ثيمة الكوابيس والهلاوس التي تطارد البطل في انخطافاته، لتضفي على الرواية طابعاً كابوسياً قريباً من أجواء الأدب الكافكوي. إنّ حضور الرؤى المظلمة والأحلام المقطّعة يشي بأن الواقع نفسه صار أشبه بكابوس، وأن الوعي الفردي لم يعد قادراً على التمييز بين الحقيقة والوهم. هذه التقنية السردية تجعل القارئ يعيش التجربة نفسها التي يعيشها البطل: حالة من القلق المستمر، واللايقين، والارتياب حتى ليبدو النص أحياناً كرحلة داخل وعي مأزوم أكثر منه حكاية خارجية متسلسلة.

الكوابيس ليست مجرد أحلام عابرة تقتحم نوم البطل، بل هي جزء من نسيجه النفسي واليومي، إذ يتسلل الرعب إلى كل لحظة من حياته، فيجعل من النوم واليقظة فضاءين متداخلين لا فاصل واضح بينهما، خاصة عندما يتوهم البطل فقده لزوجته ام صخر ايضا، فضلا عن أولاده. وبهذا يتحول النص إلى ما يشبه الكابوس الممتد، حيث تتلاشى الحدود بين الواقع والخيال، ويغدو القارئ شريكاً في معايشة هذا القلق الوجودي المغموس بالصور الغرائبية: ظهور صخر احد أولاد الرجل الفاقد لاولاده، وهو يعتلي كائنا طائرا بحجم طفل،

ومن كتفيه يبرز جناحان صغيران يخفقان فيطير الكائن الغريب: وجهه مسطح مستو، لا عينان فيه ولا فم ولا اذنان على جانبيه، والوجه قرصي ينبعث منه نور وهاج. وهذه الصور الكابوسية ليست هروباً من الواقع، بل هي المبالغة الفنية التي تكشف عن حقيقة الواقع في فظاعته. فما يعيشه الإنسان في تلك الظروف أشد رعباً من أي كابوس. والرواية تُبرز هذه الحقيقة عبر لغة غرائبية تجعل القارئ يلمس العبث واللاجدوى.

وهنا يلتقي النص مع ما يُعرف بالتيار الكافكوي. فأجواء الرواية، بما تتسم به من عبثية وقدرية وشعور بالعجز أمام قوى غامضة، تذكّر بعوالم كافكا. في (المسخ)، حيث يستيقظ البطل ليجد نفسه وقد تحول إلى حشرة، وفي المحاكمة يعيش "ك" مطارداً بمحاكمة لا يفهم طبيعتها ولا نهايتها. كذلك في هذه الرواية يعيش البطل مطارداً بكوابيس لا يعرف مصدرها، ولا يملك وسيلة للخلاص منها.

إن عبثية الوجود هي القاسم المشترك بين النصين: الإنسان محاصر، عاجز، يُحاكم أو يُعذّب من دون أن يعرف لماذا، في عالم تحكمه قوى لا تُرى.

الانخطافات او الكوابيس ليست مجرد تقنية جمالية، بل وسيلة لتجسيد القهر السياسي والوجودي. فالبطل لا يحلم بكائنات خيالية فقط، بل يرى في منامه مشاهد اغتيالات وتعذيب عاشها أو سمع عنها خاصة عندما تزج الدولة بأبي صخر، عندما كان يقص لجُلّاس المقهى وهم يقودونه الى مبنى الامن للتحقيق معه ومع رفاقه، فتتحول الذاكرة إلى كابوس دائم.

إنّ هذه الكوابيس تكشف عن أثر العنف في اللاوعي، إذ تظل التجربة المروعة حاضرة حتى بعد الهروب من مكانها، وكذلك تفعل التنبؤات بما سيحدث: فما مشاهد الاغتصابات للنساء بعد سبيهن من بيوتهن الا تجسيد للذي ظهر على يد جماعة الرايات الاخرى الصفراء، انتقاما من جماعات الرايات أي المنتمين لشامل بعد تسلمهم الحكم، فتلك انثيالات تتكرر في منامات ابي صخر، كما لو أنها قدر محتوم لكنها ليست الا تنبؤات. وبذلك تصبح الكوابيس نوعاً من التوثيق النفسي للمحرقة التي حدثت والتي ستحدث، وشكلاً من أشكال كتابة الذاكرة وتخمينات معتنقيها.

كما أن حضور الكوابيس يؤثر في بنية السرد نفسها. فالانتقالات المفاجئة بين الواقع والحلم، والخلط بين الأصوات والصور، يمنح النص طابعاً تيارياً أقرب إلى الكتابة "اللاواعية". فالقارئ يجد نفسه أحياناً عاجزاً عن التمييز بين ما يعيشه البطل فعلاً وما يراه في منامه، وهو ما يعكس فقدان الإنسان العراقي لليقين في ظل واقع سياسي واجتماعي، لا يقل غرابة عن الكوابيس.

هذه البنية السردية تجعل النص أقرب إلى رواية ما بعد الحداثة، حيث تختفي الحدود الصارمة بين الواقعي والمتخيل.

*** منشورات اتحاد الأدباء والكتاب في العراق / بغداد 2025**

**** ناقدة عراقية، مديرة النشر في دار الشؤون الثقافية/ بغداد**

في رواية (الزعيم: خرائط وأسلحة) جماليات التخييل وحدود الدقة التاريخية

صادق الطائي

الإشكالية والأهداف والمنهج

تصدر رواية علي بدر (الزعيم: خرائط وأسلحة) "دار المدى، 2024" ضمن مشروعٍ سردي يسعى إلى تفكيك التاريخ العراقيِّ الحديث عبر مزج الوثيقة بالتخييل، واستعادة شخصيةٍ محورية الزعيم عبد الكريم قاسم في لحظتَي الصعود والاغتيال وما بينهما من وقائع متنازع عليها في الذاكرة والكتابة. ويُشي العنوان بثنائيةٍ حاكمة لآلية القراءة: خرائط (الدلالة على التوثيق والوقائع والحيّز) وأسلحة (الدلالة على الفعل والصراع وتنازع السرديات).

وحدود العلاقة بين المرجعية التاريخية والخَلق السردي في كتابةٍ سيرذاتيةٍ عن شخصيةٍ عامة.

تنطلق الفرضية من أن الرواية السيرذاتية، بوصفها نوعًا هجينًا بين السيرة والرواية، تتطلب التزامًا بالحقائق «الصلبة» للشخصية، مع فسحةٍ للتخييل في التفاصيل غير المؤرخة أو المختلف عليها، أو في بناء تاريخٍ موازٍ حين يعلن النص نزوعه الفانتازي بوضوح. وتتقاطع هذه الفرضية مع قراءاتٍ سابقةٍ لسرديات علي بدر بوصفها كتابة «حُرّة» لما بعد الحداثة، تحتفي بالهجنة النوعية وتماهي الحدود بين الأجناس.

الإطار النظري

1. الرواية السيرذاتية كجنس هجين

تبيّن دراسة فرح مهدي صالح أن «الرواية السيرذاتية» جنسٌ هجينٌ يخرق الحدود الصارمة بين السيرة والرواية، ويتكئ على «الكتابة الحرّة» لما بعد الحداثة، بما يتيح تعدد الأقنعة السردية وإعادة تشكيل «الذات» موضوعًا وساردًا معًا، وفي هذا الأفق، يغدو سؤال «نسبة الواقع إلى التخيل» سؤالًا نقديًا، لا توثيقيًا محضًا؛ إذ يُفترض إمساك عُرى الحقائق الكبرى حين تكون الشخصية عامة وتاريخية.

2. الوثيقة، التخيل التاريخي، والميتاقص التاريخي

ترى رنا فرمان الربيعي أن توظيف الوثيقة

داخل الرواية الحديثة ليس نقلًا «خامًا» للمرجع، بل إدماجٌ حكائي يعيد إنتاج الوثيقة ضمن بنية الحدث، ويتيح حوارًا بين مرجعين: التاريخي والروائي. وتُبرز تنظيرات ما بعد الحداثة -خاصة مفهوم "الميتاقص التاريخي" - كيفية إظهار النص وعيه بصناعته وهو «يسرد التاريخ»، فيُسائل اليقينيات ويمسرح الأرشيف داخل لعبةٍ روائية تعلن صنعتها وتفكك خطاب السلطة المعرفية.

على وفق هذا المنظور لا تُحاكم الرواية التاريخية بمجرد «مطابقة فوتوغرافية» للتاريخ، بل بمدى وعيها النقدي بالوثيقة وكيفية إدخالها في النسيج السردي. مع ذلك، لا تُعفي الهجنةُ السردَ السيرذاتي من حدٍّ أدنى من الانضباط المرجعي في الوقائع الجوهرية للشخصية التاريخية، وإلا انقلب «التخييل المشروع» إلى تشويشٍ معرفي يخصم من العمل وإن زاد من غرائبيته.

3. منظور السياسة وأنماط الشخصيات

تكشف دراسة المنظور السياسي في أعمال علي بدر عن تمثّلٍ واعٍ لتحولات الهوية والانتماء والسلطة، عبرَ شخصياتٍ مثقفة ومهمشة تتوزع على حقول الصراع الاجتماعي والسياسي، وتنعكس في طرائق السرد والمنظور واللغة ، وفي هذا السياق لا يُقرأ التخييل ترفًا جماليًا؛ بل أداةً لفهم السياسة وتجسيد أثرها في الفرد والجماعة، وفي تشكيل صورة الزعيم داخل المخيال العام. وتُظهر بحوث «أنماط الشخصيات» نزوعًا إلى بناء النماذج (المثقف/الضابط/السياسي) بوصفها تمثيلاتٍ لقوى اجتماعية وتاريخية، وهو ما سيحضر في معالجة شخصية قاسم بوصفه «أنموذجًا» تُسقط عليه تمثيلات الجماعة/السلطة/المدينة.

تحليل النص

(أ) البعد التاريخي: بين دقة الوثيقة وانزياحات السرد

منذ الصفحات الأولى لرواية (الزعيم: خرائط وأسلحة)، يتضح حرص علي بدر على الانطلاق من وقائع تاريخية ثابتة: الانقلاب في 8 شباط 1963، مشهد مقهى البرازيلية في بغداد، صورة عبد الكريم قاسم في مجلة التايم، وحتى حضور شخصيات سياسية وإعلامية حقيقية في بغداد والقاهرة وباريس. هذه الاستعانة بالوثائق والوقائع تضع الرواية ضمن إطار الرواية السيرذاتية التاريخية، حيث يستند السرد إلى شخصية تاريخية مهمة، ويعيد صياغة مسيرتها في قالب روائي. بيد أن القراءة الدقيقة تكشف عن تفاوتٍ في الالتزام بالتاريخ: فمن جهة، يستثمر النصّ الوثيقة لتأصيل واقعيته؛ ومن جهة أخرى، ينزاح عنها إلى منطقة الالتباس أو الخطأ التاريخي.

تبدو الدقة في توثيق الأحداث المفصلية واضحة في الرواية، فحين يصف السارد انقلاب شباط 1963، ينقل للقارئ أجواء بغداد الممطرة عشية الانقلاب، ويُدخلنا إلى مقهى البرازيلية المزدحم بدخان السجائر وروائح القهوة، حيث يبرز مشهد "غدارة بور سعيد" التي كان يحملها قاسم، في صورة تقترب من التوثيق المباشر أكثر مما تقترب من الخيال الحر، وإلى جانب المشهد المحلي، يوسّع النص أفقه عبر إحالات إلى العالم الخارجي، فيذكر تفاصيل عن صدور ألبوم (Please Please Me) لفرقة البيتلز في لندن في

الشهر نفسه، ليضع الحدث العراقي في سياق عالمي متزامن، ويمنح السرد مصداقية زمنية تتجاوز حدود المكان. أما على صعيد الوثائق، فإن الرواية تستثمر صور مجلات وصحف التايم واللوموند واللومانيتيه، وتجعلها جزءًا من نسيجها الحكائي، في ما يشبه استراتيجية "الأرشفة السردية" التي تحدثت عنها رنا فرمان الربيعي في دراستها حول "الوثيقة والتخيّل التاريخي"، حيث تتحول الوثيقة من مجرد خلفية داعمة إلى عنصر فني يشارك في تشكيل البنية الروائية نفسها.

وعلى الرغم من الصرامة الظاهرية في السرد، نجد إن محك المقارنة الدقيقة مع المصادر التاريخية والوثائق اليقينية يكشف لنا الكثير من الهنّات في ضبط الوقائع. فمثلاً يرد في النص أن والد عبد الكريم اسمه "قاسم النجار"، في حين تؤكد المصادر التاريخية، ومنها دراسة (عبد الكريم قاسم في ضوء ملفه الشخصي) للمؤرخ عماد عبد السلام رؤوف / ص 57، أن اسم الوالد هو جاسم محمد والمعروف بمهنته "جاسم النجار"، وأن عبد الكريم هو من غيّر الاسم لاحقًا في أوراقه الرسمية، وهو تفصيل جوهري في كتابة السيرة الذاتية لأن الاسم يمثل جزءاً من الهوية الرسمية للشخصية.

كما أن الرواية تتجاهل مشاركة قاسم في حرب فلسطين سنة 1948، وهو حدث محوري في مسيرته العسكرية كان من شأنه أن يعزز صلته بالمشروع القومي العربي، وتجاوزه يخلّ بالسردية التاريخية العامة. ويزداد الالتباس عند الحديث عن صورته في مجلة التايم، إذ يشير السارد مرة إلى صورة نُشرت يوم 9 شباط 1963، ثم يعود ليذكر صورة ملونة تصوّره «أشبه بسفاح»، وهي

إحالة تبدو متناقضة زمنيًا لأن الأولى تعود إلى لحظة الانقلاب، بينما الثانية صدرت إبان المد الشيوعي عام 1959 والحملة التي شنها الإعلام الغربي ضده لهذا السبب.

ومن مواطن الخلل أيضًا ما أورده السارد على لسان قاسم حين قال إن ولادته جاءت بعد شهر من اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانتس فرديناند ولي عهد النمسا واندلاع الحرب العالمية الأولى. بينما التاريخ الحقيقي يثبت أنه وُلد في تشرين الثاني/نوفمبر 1914، أي بعد أربعة أشهر من اندلاع الحرب، وخمسة أشهر من حادثة الاغتيال في سراييفو، وهو خطأ او تلفيق لا يخدم السرد.

وإلى جانب ذلك، تصوّر الرواية الشاعر جميل صدقي الزهاوي في إسطنبول ميالًا للبريطانيين، بينما تؤكد الشواهد التاريخية الدقيقة أنه كان في بغداد طوال تلك الفترة، يكتب قصائد مديح لوالي بغداد آنذاك جمال باشا السفاح ويدافع عن الدولة العثمانية العلية حتى سقوط بغداد بيد الإنكليز وتحول

هوى الزهاوي للبريطانيين ولمديح المندوب السامي البريطاني برسي كوكس. وهكذا، فإن هذه الانزياحات لا تُعد مجرد هفوات، بل تشكّل خللاً في خطاب الرواية التاريخي، لأنها تمسّ جوهر السرد السيرذاتي الذي يقوم أساسًا على احترام الحقائق الكبرى للشخصية.

يمكن النظر إلى هذه الأخطاء من زاويتين متباينتين. فمن جهةٍ أولى، يمكن ان نعدها ثغرات توثيقية تقلّل من مصداقية السرد السيرذاتي، لا سيما أن الرواية تتعامل مع شخصية تاريخية عامة لا متخيّلة، الأمر الذي يستدعي التزامًا أكبر بالحقائق المرجعية. وفي هذا السياق يلتقي النقد مع ما أشارت إليه فرح مهدي صالح، إذ ترى أن الرواية السيرذاتية عند علي بدر تُكتب في أفق ما بعد الحداثة، لكنها تبقى ملزمة، بحكم موضوعها، بحدٍّ أدنى من الدقة التاريخية.

ومن جهة ثانية، يمكن تأويل هذه الأخطاء بوصفها مقصودة فنياً من المؤلف، في إطار ما تسميه ليندا هتشيون "الميتاقص التاريخي"؛ أي إعادة كتابة التاريخ مع وعيٍ مسبق بالانزياح والتخييل. وبذلك يبدو أن بدر يتعمد صياغة تاريخ "موازي" أو «"مفترض" ليشير إلى أن كل تاريخ هو في جوهره بناء سردي لا حقيقة مطلقة، وهو ما يعززه أسلوبه في توظيف الوثيقة داخل لعبة سردية تُفكك سلطة الأرشيف وتعيد تشكيلها فنياً.

إذن، يمكننا القول إن النص يتراوح بين التوثيق الدقيق (خاصة في المشاهد السياسية المفصلية والإحالات الدولية) والانزياح المربك (في التواريخ والأسماء والشخصيات). وهذا التذبذب يعكس مأزق الرواية السيرذاتية التاريخية: فهي تسعى إلى إعادة كتابة التاريخ بأدوات الفن، لكنها لا تنجو من مساءلة القارئ عن صدقها. وهنا يتجلّى "الشرط المزدوج" الذي يواجه علي بدر: كلما كانت الإحالة التاريخية دقيقة، كلما عزز النص مصداقيته، وكلما انزاح، تعاظم البعد الفني لكن على حساب القيمة المعرفية.

(ب) البعد الإبداعي: استراتيجيات التخييل وجماليات السرد

إذا كان البعد التاريخي في (الزعيم: خرائط وأسلحة) يتحدد بمدى التزام السارد بالحقائق، فإن البعد الإبداعي يتجلى في طريقة تحويل الوقائع إلى سردية فنية.

علي بدر لا يقدّم «تأريخًا روائيًا» بالمعنى الكلاسيكي، بل يمارس التخييل التاريخي الذي يجعل من الوثيقة مادةً حكائية، ويمنح السيرة الذاتية بعدًا دراميًا يتجاوز التسجيل إلى إعادة الاختراع او حتى التلفيق.

يمكن تلخيص أبرز استراتيجيات التخييل عند بدر في النقاط الآتية: يتسم السرد في الرواية بتعدد المنظورات، إذ لا يقتصر على صوت واحد يهيمن على الأحداث، بل يتنقل بين مستويات مختلفة من الأصوات. فنجد الراوي العليم الذي يقدّم المشاهد الكبرى مثل انقلاب شباط ومقتل الزعيم، وإلى جانبه تتداخل أصوات أخرى ثانوية، كأصوات الصحفيين الأجانب والمثقفين والمراسلين، وحتى أفراد العائلة.

وتدخل في النسيج السردي أيضًا وثائق مكتوبة، من مقالات صحفية ومقتطفات من مجلات وأوراق شخصية، لتصبح جزءًا من الخطاب الروائي. إن هذا التوزيع للأصوات يحوّل الرواية إلى نص «بوليفوني» بالمعنى الذي حدّده باختين، حيث تتقاطع الرؤى

وتتباين الصور حول شخصية الزعيم؛ فيراه البعض مخلّصًا وطنيًا فيما يصوّره آخرون سفّاحًا دمويًا. وقد رأت دراسة بشرى موسى أن هذا التعدد لا ينفصل عن منظور علي بدر السياسي، إذ يسمح بتجاور الرؤى المختلفة للشخصيات، ويكشف في الوقت نفسه أثر السياسة العميق في تشكيل الهوية والانتماء.

ويتجلّى البعد الإبداعي في الرواية عن طريق لجوئها إلى بناء تاريخ موازٍ، حيث تُصاغ أحداث وحوارات وتفاصيل لا وجود لها في السجل التاريخي، لكنها تظل ممكنة فنياً ضمن منطق السرد. ففي أحد المواضع، يُصوَّر عبد الكريم قاسم في طفولته وهو يحدّق في سقف البيت متخيلاً عوالم غامضة، وهي لحظة غير موثقة تاريخياً، لكنها تُستثمر لتأسيس صورة «الزعيم الحالم» الذي تتكوّن رؤيته منذ سنواته الأولى.

وفي موضع آخر، يستدعي السارد أساطير بغدادية مثل حكاية «جثة الإله الملقاة في دجلة» لتوازي صورة قاسم الغارق في الدماء، فيتحول النص إلى فضاء أسطوري يختلط فيه الواقعي بالميثولوجي. كذلك يلجأ السارد إلى صيغة «من أوراق فلان» ليمنح القارئ انطباعًا بوجود أرشيف ملفق او متخيل يوازي الوثائق الحقيقية، فيغدو النص محاكاة لأرشفة موازية، تمزج بين ما هو متحقق تاريخيًا وما هو مُبتكَر سرديًا. هذا ما يسميه النقاد الوثيقة المتخيَّلة، حيث تُبتكَر وثائق تبدو واقعية لإضفاء شرعية على السرد، بينما هي في جوهرها لعبة فنية. رنا فرمان ربطت ذلك بمفهوم «الميتاقص التاريخي» الذي يعترف بالانزياح ويحتفي به.

وظّف علي بدر الوثائق (صور، صحف، مقالات) بوصفها عناصر بنائية لا مجرد استشهادات. فالصورة في مجلة التايم ليست حاشية تاريخية، بل تتحول إلى محفز سردي يغيّر من إدراك القارئ للشخصية. بهذا يتحقق ما تسميه الدراسات النقدية «الأرشفة السردية»، أي تحويل الأرشيف إلى مادة حكائية.

هذه التقنية تقرّب الرواية من ما بعد الحداثة، حيث يختفي الحدّ الفاصل بين الوثيقة والمتخيّل. وكما توضح فرح مهدي صالح، فإن الرواية السيرذاتية عند بدر تتسم بمرونة «ما بعد نوعية»، إذ تفتح النص على الأجناس الأخرى (الصحافة، التاريخ، المذكرات) وتجعلها جزءًا من بنيته.

لا يتعامل علي بدر مع الوثيقة أو التخييل بوصفهما أدوات فنية محضة، بل يوظفهما كمدخل لإعادة قراءة السياسة العراقية في القرن العشرين. فالصورة التي يرسمها لعبد الكريم قاسم تتأرجح بين البطل الوطني والديكتاتور المستبد، بما يعكس تعدد السرديات السياسية حوله بين يسارية وقومية وليبرالية. وإلى جانب ذلك، يدخل النص أصواتًا أجنبية مثل البريطانيين والمخابرات الأمريكية والصحافة الأوروبية، فيكشف عن البعد الدولي الذي كان حاضرًا بقوة في الصراع السياسي العراقي.

أما التركيز على اليوم الأخير من حياة قاسم فيمنح الرواية بعدًا تراجيديًا، إذ يتقاطع التاريخ الفردي للزعيم مع الحدث الجمعي الذي غيّر مسار البلاد. وكما يشير قبس حسن الكروي في بحثه" أنماط الشخصيات في روايات علي بدر"، فإن بدر لا يقدم شخصياته كذوات فردية مستقلة فحسب، بل بوصفها أنماطًا تمثل قوى اجتماعية وسياسية كالمثقف والضابط والسياسي، ليغدو الزعيم

في نهاية المطاف تجسيدًا لصراع الهوية الوطنية العراقية، أكثر منه شخصية منعزلة قائمة بذاتها.

لا تقف الرواية عند حدود الوثيقة أو التاريخ الموازي، بل تنفتح أيضًا على فضاء الفنتازيا والأسطرة، لتمنح سردها طابعًا يتجاوز الواقعية المباشرة. فالدم الذي يختلط بمياه النهر ويُستعاد في صورة أسطورة «الإله الملقى في دجلة» يحوّل موت عبد الكريم قاسم من حدث سياسي إلى رمز أسطوري جامع يختزن أبعادًا تتجاوز حدود الزمان والمكان. كما أن المقارنات المتكررة بين بغداد من جهة ولندن أو باريس من جهة أخرى تضع شخصية قاسم في سياق أوسع، ليصبح جزءًا من «أسطورة عالمية» للزعيم- المنقذ/الضحية. وبهذا المزج بين الوثيقة والأسطورة، يُعاد بناء الشخصية التاريخية في فضاء تخييلي رحب، يحقق للرواية بعداً إبداعياً حتى وإن انطوت على انزياحات وشطت عن الدقة التاريخية.

يكشف التحليل أن (الزعيم: خرائط وأسلحة) لا تكتفي باستدعاء الوقائع، بل تعيد تشكيلها عبر التخييل الموازي والتعدد المنظوري والأسطرة.

وبذلك، تنجح الرواية في تجاوز حدود ”السرد التوثيقي“ لتقدّم نصًا متشظيًا يعكس التناقضات السياسية والاجتماعية، ويمنح القارئ مساحة للتأمل النقدي.

غير أن هذه القوة الإبداعية مشروطة دائمًا بالتوازن مع الدقة التاريخية: فحيثما تغلب الأسطرة والوثيقة المتخيَّلة دون سند تاريخي، يضعف البعد السيرذاتي، لكن حيثما تُوظَّف بوعي، تفتح الرواية أفقًا جديدًا لفهم التاريخ العراقي.

(ج) دينامية التوازن بين التاريخي والإبداعي

تقوم الرواية على توترٍ مُنتَج بين قطبَي التاريخ والإبداع. ففي مشاهدٍ بعينها - كأجواء بغداد يوم الانقلاب أو إدماج الوثائق الصحفية - يبدو السرد أقرب إلى الصرامة التوثيقية، بينما ينزاح في مواضع أخرى- كتاريخ الميلاد أو صورة الزهاوي- إلى صياغاتٍ مغايرة أو خاطئة قياسًا بالمصادر.

لا تهدف الرواية إلى «إعادة إنتاج» التاريخ كما هو، بقدر ما تسعى إلى إعادة تمثيله بعيونٍ روائية، في انسجامٍ مع تصوّر «الميتاقص التاريخي» الذي يعتّرف بتخييلية السرد وهو يعاين الماضي.

لهذا التوازن أثرٌ مزدوج: معرفي وجمالي. معرفيًا، كلما حافظ النص على حدٍّ أدنى من الدقة المرجعية—في الوصف الزمني والمشهدي والإحالات الوثائقية—ازداد قابليته للقراءة بوصفه جزءًا من «أرشيف الذاكرة». وجماليًا، يتيح الانزياح تحوّل الزعيم إلى رمزٍ أسطوري يُجسّد تناقضات السياسة والمجتمع، وتتحول المدينة إلى فضاءٍ مسرحي تتقاطع فيه طبقات الصوت.

ترفد «الوثائق المتخيَّلة» هذه البنية بطبقةٍ إضافيةٍ تزيد النص تعددًا في الأصوات والرؤى. وبذلك تتبدّى الهجنة—كما لاحظت دراساتٌ تنظيرية—مصدرَ حيويةٍ وانفتاح على الأجناس.

على مستوى التلقي، يختلف موقف القرّاء: الباحث عن التاريخ قد يراها مضلِّلة بسبب الأخطاء المرجعية؛ والقارئ الأدبي يجد نصًا غنيًا بالتخييل والتعدد والمنظور والأسطرة؛ فيما يتعامل الناقد الأكاديمي معها بوصفها نموذجًا لاشتغال الرواية المعاصرة على الوثيقة، لا لاستعادة التاريخ كما هو، بل

لتفكيك سلطته وإعادة إنتاجه داخل فضاءٍ جمالي.

الخاتمة والنتائج

تضع الزعيم: خرائط وأسلحة قارئها أمام معضلةٍ جماليةٍ ومعرفية معًا. فهي من جهةٍ تعيد كتابة السيرة التاريخية لشخصيةٍ محوريةٍ اعتمادًا على وثائق وصور ووقائع سياسية مفصلية، ومن جهةٍ أخرى تفكك هذا التاريخ عبر التخييل الموازي، وتعدد المناظير، والأسطرة؛ بما يحوّل التاريخ من «مرجعٍ صلب» إلى مادةٍ مفتوحة لإعادة الصياغة. تُظهر القراءة أن النص يراوح بين دقةٍ توثيقية في مواضع، وانزياحٍ مرجعي في أخرى؛ وهو تذبذب يضعف صدقيته بوصفه سردًا سير ذاتيًا دقيقًا، لكنه يغنيه بوصفه نصًا ما بعد حداثي يحتفي بالهجنة وينقد اليقينيات التاريخية.

ليست الرواية، والحال هذه، مجرد نص عن عبد الكريم قاسم؛ بل هي نصٌ عن التاريخ نفسه وكيفية كتابته في الأدب.

المسافة التي ينسجها بدر بين الوثيقة والتخييل تُظهر أن كل سردٍ للتاريخ هو بالضرورة اختيارٌ وانتقاء، وأن الرواية قادرةٌ على مساءلة «الحقيقة» بقدر ما تستطيع ابتكار «تاريخٍ موازي».

ومن هنا تنبع قيمة العمل في المشهد الروائي العراقي المعاصر: قيمةٌ جماليةٌ تُجدد أدوات الحكي، وقيمةٌ نقديةٌ تُعيد التفكير في العلاقة بين الأدب والتاريخ.

المراجع:

(1) علي بدر، الزعيم: خرائط وأسلحة، دار المدى، بغداد، 2024.

(2) مروة رعد باش أغا وبشرى موسى، المنظور السياسي في روايات علي بدر، مجلة المستنصرية للعلوم الإنسانية، مج2، ع2، 2022.

(3) رنا محمد فرمان الربيعي، الوثيقة والتخيّل التاريخي في روايات علي بدر، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القادسية، 2014.

(4) قيس حسن حميد حسين الكروي، أنماط الشخصيات في روايات علي بدر، مجلة الجامعة العراقية، ع61 (ج1)، بغداد، 19 تموز/يوليو 2023.

(5) فرح مهدي صالح، الرواية السيرذاتية - روايات علي بدر أنموذجا، جامعة القادسية، كلية التربية، 2018.

(6) عماد عبد السلام رؤوف، عبد الكريم قاسم في ضوء ملفه الشخصي، السليمانية، مؤسسة زين، 2012.

بروكنر ونمائيته في البناء السيمفوني

عبد الله البصري*

حينما تتصاعد أنفاس الموسيقى ببطء..

لا أراني مُغاليا إن قلت ان أوضح ملامح "البناء النمائي" في تاريخ السيمفونية، تجلى في أسلوبية الموسيقي النمساوي أنطون بروكنر (1824 – 1896). فهو غالبا لا يبني موسيقاه على الدراما اللحظية أو الإثارة الشعورية، إنما على النمو التدريجي لأفكاره اللحنية داخل بنية متوازنة منتظمة، والتوسع بخطى قصيرة متتالية.

نظريا، "البناء النمائي" في الموسيقى منهج في التوليف يعتمد على التوليد الموضوعي، أي اشتقاق البنية الكاملة للعمل من نواة لحنية أولية تُعاد صياغتُها عبر تحوير مورفولوجي (بنائي/ تشكّلي) وتوسع مقطعي ضمن نسق مغلق ذاتي المرجعية، بدل توليد هوية لحنية خالصة تُحال إلى هوية أخرى تكميلية فارقة. ففي السيمفونيات عادة يقسم العمل إلى أربع حركات مستقلة ثانيتها مكملة للأولى، وهكذا، مع الحفاظ على خصوصية كل حركة لحنيا وإيقاعيا، وعلى مدى تناسبها مع الأخريات في بنية شكلية كلية. وعند السير على أسلوبية "البناء النمائي" يطرح الملحن الفكرة الأساسية كبذرة موسيقية، ثم يكررها ويحورها تدريجيا عبر طبقات الأوركسترا المتعددة، مع تغييرات دقيقة في الهارموني والإيقاع واللون الصوتي، وهذا يتم في داخل الحركة الواحدة، وينسحب إلى بقية الحركات. الأسلوب هذا يسمح للبنية الموسيقية بالنمو

وفق منطق عضوي قائم في ذاته. إذ تتوالد العناصر من داخل النظام اللحني نفسه وليس من إضافات خارجية. وهنا تتوسع الجملة اللحنية تدريجيا، شرطَ الحفاظ على وحدة النسق الداخلي والتماسك البنيوي. وفي حالة بروكنر، ينعكس "البناء النمائي" في نمو الأفكار اللحنية من عبارة قصيرة إلى بنية صوتية معمارية ذات توازن طاقي – ديناميكي بين المستويات الهارمونية واللحنية. وهذا يأتي (غالبا) في ألحانه مرافقا لشعور بامتداد زمكاني يذكّر ببنية وأجواء الكاتدرائية - عتبته الموسيقية الأولى.

إن بروكنر يفتتح سيمفونياته عادة بعبارة لحنية محدودة. ثم يتحوّل عبر تكرار وتحوير طفيف على خطوات اللحن، وخلال تراكم أوركسترالي، إلى شكل موسيقي بالغ السعة،

بينما يُراعي ترسيخ عتبة فكرة اللحن في الذاكرة السمعية المؤقتة، كي لا تفلت من أذن المتلقي.

في سيمفونياته الرابعة والسابعة والثامنة والتاسعة، يمكن ملاحظة هذا النمط بوضوح. إذ تنمو الجمل اللحنية الصغيرة كالخلايا، على مراحل، لتشكل بناءً موسيقيا متكاملا، يشبه الصرح المعماري في ترتيب عناصره الداخلية، مع الحفاظ على العلاقات بين تلك العناصر كضرورة، وإدراج جملٍ فجائية الصعود من حيث نبرة الصوت والدرجة الموسيقية.

لم يكن بروكنر وحده من جسّد في موسيقاه فكرة "التطور العضوي"، أي نمو العمل الموسيقي من داخله كما ينمو الكائن الحي (وهي فكرة ألمح إليها وقتذاك المؤرخ الموسيقي الألماني أدولف برنهارد ماركس). فقبل بروكنر طبّق موسيقيون مثل بيتهوفن وبرامز هذه الفكرة عمليا من دون إطار نظري مسبق. إذ تولد كل فكرة في أعمالهم من فكرة تسبقها عبر تحويرات دقيقة تُراعي ثبات الهوية اللحنية.

وطُبق ذلك أيضا قبل يصوغ الموسيقي والناقد النمساوي أرنولد شوينبرغ، الإطار التحليلي لـ"التطور العضوي" تحت مسمى "التنويع النمائي". وفي الخلاصة تبلور مفهوم "البناء النمائي". وهو في الواقع اكتشاف نقدي لاحق، شخّصه نقاد أمثال البريطاني دونالد توفاي والألماني كارل دالهاوس في أعمال بروكنر. حيث رسّخ هذا النمط في سيمفونياته (عفويا)، من خلال مزاوجة "التطور العضوي" مع "التنويع النمائي". أي أن كل جملة موسيقية تنشأ من سابقتها عضويا، مع تحوير دقيق يولد الشكل العام للعمل، فتتجسد

الوحدة والاتساق في البناء الكلي للسيمفونية.

من الناحية التاريخية، تُنبّه هذه الأسلوبية إلى مفارقة معرفية فريدة في البناء الجمالي. إذ رسّخت ما يشبه النظام البنيوي الذاتي المرجّع قبل أن يشق عالم اللغويات السويسري دي سوسور مفهوم النسق اللغوي المغلق، بعقود، ويُشاع تنظيريا بعد العقد الأول من القرن العشرين.

عمليًا، يطوّر بروكنر كل فكرة موسيقية تتابعيا ضمن سياقها الأوركسترالي، بحيث تُبنى العلاقات بين العناصر الموسيقية وفق نظام متكامل، ليس كقطع منفصلة. ويوازي هذا الترتيب العملي جوهر المنهج البنيوي. حيث التركيز على العلاقات بين العناصر داخل النظام بدل التركيز على العناصر منفردة. بالتالي، يمكن القول ان بروكنر طبّق مبادئ بنيوية، وإن كانت غير ممنهجة، قبل أن تُسن أكاديميا، محققا وحدة داخلية وتطورا عضويا للأفكار الموسيقية.

جذور هذا الحس البنائي في موسيقى بروكنر ربما تعود إلى نشأته الكنسية في مدينة أنسفيلدن

النمساوية. حيث كان وهو في العقد الأول من عمره يعزف الأرغن في الكنيسة خلفًا لوالده. وفي تلك الأجواء الموسيقية الطقسية ذات الجمل الطويلة، يبدو أن بروكنر تعلم فكرة التمدد الزمني البطيء وتنامى لديه معنى التوازن بين الصوت الفردي والمجموع، وأدرك الفراغ الصوتي كجزء حي من اللحن. وعند انتقاله لاحقًا إلى فيينا، حمل معه هذا المنطق إلى الأوركسترا، فظهرت سيمفونياته كتحويل للأرغن الكنسي إلى آلة ضخمة متعددة الأصوات (كونتربوينت).

قبل أن يبلور بروكنر أسلوبه في "البناء النمائي"، كان متأثرا بمراجع موسيقية عدة، شكلت أساس فهمه للألحان الكبرى. فهو تعلم كعازف أرغن التدرج البطيء في صياغة الجمل اللحنية والتنظيم الطبقي للأصوات، ما عزز في داخله فهم الفضاء الصوتي المنظم وفق مبدأ التوزيع الطيفي الطبقي. ثم اتخذ الهارموني وظيفة بنائية وليس تلوينية، واستقى بالتالي من الموسيقى الكلاسيكية المبكّرة، لا سيما في أعمال بيتهوفن وهايدن، أدوات التطوير اللحني وبناء الحركات.

لكن الأثر الأبرز كان الموسيقي الألماني ريتشارد فاغنر (1813 – 1883)، الذي مثّل بالنسبة لبروكنر بوابة الدخول إلى فضاء السيمفونية. إذ ان سماعه فاغنر لم يؤثر فقط على حسه الهارموني، بل ألهمه أيضا لترك عمله كعازف أرغن والانشغال تماما في التأليف السيمفوني. من هنا بدأ تحويل تجربته الكنسية إلى لغة أوركسترالية ضخمة.

تتسم سيمفونيات بروكنر بنشوء الفكرة اللحنية من خلية لحنية محدودة، تتحول تدريجيا إلى شكل موسيقي ممتد. هذا التمدد يقوم على تطوير منطقي للمواد اللحنية: كل جملة تتبع سابقتها بطريقة تسمح بالنمو العضوي مع الحفاظ على الترابط المحوري بين الوحدات الموضوعية، ضمن نسق بنائي مغلق يتأسس على مبدأ "الهوية عبر التحول".

ويستخدم بروكنر التكرار الذكي كأداة للبناء. إذ يعيد الجمل اللحنية مع إضافة تغييرات دقيقة في الهارموني والإيقاع وفي التوزيع الآلاتي، ما يخلق تماسكا داخليا للمادة الموسيقية وإحساسا بالنمو التدريجي للفكرة. ويظهر ذلك في معظم سيمفونياته. حيث يمكن ملاحظة التكرار مع التحوير على مستويات متعددة دون فقدان الهوية اللحنية.

ومما يُميز أسلوبية بروكنر، هو اتخاذه من الصمت والصدى المعزوف والتوسع المتتابع وتصاعد الصوت وانخفاضه تدريجيا (كريشندو – دي كريشندو)، مؤثرات أصيلة لا تقل شأنا عن بنية الجمل اللحنية.

بهذا المعنى، تُعدّ تجربة بروكنر تطبيقا مبكرا لمفهوم البنية ذاتية الاكتفاء في الفن. إذ تتماهى الموسيقى مع نظامها الداخلي، وتتحرر من الوظائف السردية أو التعبيرية، لتغدو شكلا محضا في صيرورة داخلية.

ورغم موهبته الفارقة، ظل بروكنر بعيدا عن الأضواء في المشهد الموسيقي الفييني، ولم يحظَ بالاعتراف الكامل إلا في ثمانينيات القرن التاسع عشر، قبل وفاته بسنوات. وبعد رحيله شوهت الدعاية النازية صورته وحوّلته إلى رمز أيديولوجي

ما سبّب تراجع انتشاره خارج العالم الناطق بالألمانية.

ولم يُعترف بقيمته الاستحقاقية إلا بعد الحرب العالمية الثانية، عندما أعاد موسيقيون في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية اكتشافه وتقييم أعماله بمنأى عن الأبعاد السياسية

والأيديولوجية، ليظهر بعدها الجانب البنائي الفني الخالص لموسيقاه.

إذ ان النازية أعادت تفسير أعماله بالشكل الذي يخدم أيديولوجيتها، وقامت بتصويره من ملحن نمساوي متديّن موهوب، إلى رمز ألماني نقي، وتزييف الانطباع تجاه موسيقاه ليُجسد فضائل قومية وعرقية!

وكانت سيمفونيات بروكنر في الأصل أعمالا تعكس أفكارا داخلية خاضعة لبناء لحني صارم مبتكر، ولا يمكن نسبها إلى أي جذر شعبي أو عرقي، إلا أن النازية أحالت تفسيرها إلى نزعة جمالية وطنية تبرز التفوق الألماني وتعيد بناء الروح القومية. لذلك، أن هذا التحوير القصدي أدى إلى تجاهل الغرب بروكنر عقودا، حتى أعاد الموسيقيون اكتشاف قيمته الفنية المحضة.

إن القيمة الكبرى في نمائية بروكنر لا تكمن في الضخامة الأوركسترالية وحدها، إنما في قدرته على جعل الزمن عنصرا بنائيا في الموسيقى.

فكل تصاعد لحني أو توقف لحظة صمت، ليس تزيينا، إنما لبنة من لبنات البناء. لقد حوّل بروكنر فكرة "التطور" من مبدأ بيولوجي إلى مفهوم جمالي قائم على النمو الداخلي للحن، بما يجعل موسيقاه أقرب إلى عملية خلق مستمرة خلافا للعرض الشعوري اللحظي.

وهكذا، يبدو أن بروكنر لم يكن مجرد وريث لسابقيه، بل مؤسسا لاتجاه جمالي جديد يرى في التكوين الموسيقي كائنا حيا ينمو من داخله.

وربما لهذا السبب، جاءت موسيقاه عصيّة على الاستهلاك السريع، وتحتاج إلى أذن صبورة قادرة على إدراك البنية قبل الانفعال.

*** موسيقي وعازف عود**

"الطموح العظيم": سيرة السياسي الذي جعل ثلث الإيطاليين يصوتون للشيوعيين

علي المسعودي*

فيلم المخرج (أندريا سيغري) عن السكرتير الوطني التاريخي للحزب الشيوعي الإيطالي (إنريكو برلينغير) الذي يمزج بين المشاركة السياسية والحنين إلى الأيديولوجيات العظيمة. سيرة ذاتية سياسية طموحة عن المناضل (إنريكو بيرلينغير) أعظم زعيم سياسي يساري معاصر في إيطاليا في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، والذي كاد أن يقود الحزب الشيوعي إلى السلطة في وقت أزمة وطنية. لعب دوره الممثل الإيطالي (إليو جيرمانو) في أداء ملفت. إنه فيلم مفصل بدقة، ويتفاقم إحساسه بالأصالة من خلال النسيج الماهر للقطات الأرشيفية في الدراما. بدت فترة السبعينيات من القرن الماضي وكأنها عالم آخر، عندما أيد ناخب إيطالي واحد من كل ثلاثة الحزب الشيوعي، كان للنقاش السياسي عمق حقيقي وكان الناس يهتمون بالرفاهية الجماعية بدلا من المكاسب الفردية. وهذه هي الفترة من التاريخ الإيطالي والتي أعادت الينا سيرة أحد أهم أبطالها. قد عرض الفلم لأول مرة في افتتاح مهرجان روما السينمائي التاسع عشر، ضمن مسابقة السينما التقدمية.

لا يريد المخرج أن يكون الفيلم سيرة ذاتية تقليدية، ولكنه يركز على فترة زمنية محددة، بين عامي 1973 و1978، عندما وصل سكرتير أكبر حزب شيوعي في العالم الأوروبي (بأكثر من مليون وسبعمائة ألف عضو وأكثر من 12 مليون صوت) إلى ذروته ومواصلة طموحه الكبير في التوفيق بين الاشتراكية والديمقراطية، ومحاولته الحوار مع حزب الديمقراطية المسيحية الحاكم ما يسمى بـ"التسوية التاريخية" من أجل تجنب السقوط مثل سقوط "سلفادور الليندي" في تشيلي. تتداخل الحياة العامة مع الحياة الخاصة، التي تدور حول زوجته ليتيزيا، التي لعبت دورها "إيلينا رادونيتش"، وأبنائه الأربعة، الذين انخرط معهم في نقاش سياسي عاطفي، وذلك لرسم صورة لرجل تسكنه أيديولوجيته النبيلة، تقريبا إلى حد الهوس.

بصفته صانع أفلام وثائقية، استند المخرج "سيغري" في عمله إلى بحث دقيق تم إجراؤه جنبا إلى جنب مع كاتب السيناريو المشارك "ماركو بيتينيلو"، والذي يهدف إلى نقل أفكار وكلمات المناضل الشيوعي برلينغير، وبالاعتماد على السير الذاتية والمقابلات مع أطفاله ومع الأقارب ورفاقه في الحزب، ونسخ اجتماعات مسؤولي الحزب مصدرها معهد غرامشي. والنتيجة هي إعادة بناء حكاية مخلصة وشبيهة بالوثائق تقريبا للطريق أدت إلى تحقيق هذا الطموح العظيم أو بمعنى آخر (الوهم العظيم) لتحقيق مجتمع عادل. سرد

كل ما تبقى في الذاكرة عن نضال الشيوعي برلينغير حتى وفاته عن عمر يناهز 62 عاما فقط بعد إصابته بجلطة دماغية. ووداعه المؤثر في تجمع حاشد، موشحاً بصمت ودموع شعبه. وحزن كل الشرفاء في العالم أيضا.

تلعب كلمات وخطابات برلينغير الملهمة دورا مهما في الفيلم. ونجح المخرج في نقل هذه الكلمات من خلال الصور. لقد تضمنت عملا متوازنا للحفاظ على اللغة المحددة التي استخدمها الزعيم الثوري بيرلينغر، وكذلك إيجاد إيقاع أكثر حداثة قليلا لها. في خطاباته، أظهر بيرلينغير أن لديه موهبة للتحليل. إنه يرى التحولات والاتجاهات التي تحدث في المجتمع ببصيرة حقيقية أو استبصار. كما هو الحال عندما يتحدث عن العلاقة بين التقشف والرأسمالية، والحاجة إلى الحد من النزعة الاستهلاكية لخلق العدالة الاقتصادية والتوازن. وينطبق الشيء نفسه على الحاجة إلى الانتقال من الحرب الباردة، لخلق عالم خال من التوتر العسكري بين القوى العظمى. قدمه المخرج بصورة السياسي المنفتح للغاية مقارنة بالقادة الشيوعيين الآخرين في ذلك الوقت، الذين كانوا محاصرين في دوغماتيتهم. سياسي مهم للغاية ترك بصمة على التاريخ الإيطالي. يعطينا الفيلم مفتاحا لفهم كيفية عمل الذاكرة التاريخية والسياسية، خاصة في ما يتعلق بتاريخ الشيوعية في إيطاليا، الشيوعية الديمقراطية التي يروج لها برلينغير الذي كان يحلم بمجتمع اشتراكي حر وديمقراطي. كان برلينغير شخصية فريدة من نوعها، كأمين عام لحزب يضم مليوني عضو. كان لديه طريقة خاصة جدا للتحدث إلى الناس، دون استخدام شعارات براقة أو تنظير للعب على عواطفهم، وهي بعيدة كل البعد عن نوع التباهي السياسي الذي قد نكون على دراية به أكثر. أعتقد أن هذا هو ما خلق علاقة قوية بينه وبين الشعب الإيطالي. تتذكره العائلات الإيطالية والأجيال التي عاشت الربيع الشيوعي في قصة يرويها فيلم "الطموح العظيم" عن المناضل "بيرلنغير".

تمثل جانب مهم بشكل خاص في شخصيته في جنازته، التي أقيمت في روما في 13 يونيو 1984، والتي حضرها أكثر من مليون شخص، وهي واحدة من أكثر تعبيرات العزاء والحزن التي أثارت الإعجاب في التاريخ الإيطالي. وقد شهدت جنازة الملكة إليزابيث الثانية في عام 2022 حوالي 250.000 ألف شخص في لندن، ما يسلط الضوء على المستوى الاستثنائي للتعبئة العامة لبيرلينغير وجماهيريته وقيمته التاريخية. يسلط هذا الاهتمام المتجدد ببرلينغير الضوء على رغبة العديد من الإيطاليين في إعادة اكتشاف سياسة حزب قائمة على القيم الأصيلة والحوار البناء.

وعند توجيه السؤال الى المخرج عن السبب الذي ألهمه في صنع فيلم عن إنريكو بيرلينغير؟ أجاب أندريا سيجري: "إنه شخصية رائعة للغاية، وهناك حقيقة عدم وجود فيلم عن المناضل برلينغير أو الحزب الشيوعي الإيطالي وكأنها فجوة كبيرة في تاريخ السينما. أردت أيضا أن أقول عن الحالة الإنسانية لأولئك الذين ينظمون أنفسهم لحلم مستحيل. أعتقد أن هذا التوتر الوجودي والدرامي رائع، ومرتبط بنقيض يمر عبر حياتنا: الشعور بأن الأحلام مستحيلة التحقق، فمن الأفضل تركها تذهب". كان هناك وقت كانت فيه السياسة شغفا وحشدت ملايين الناس تلوح بالأعلام الحمراء. كانت الساحات ممتلئة، والمحطات مزدحمة. ولكن يبدو اليوم أن هناك شعورا قويا

بخيبة الأمل. كان هناك شغف ولكن يبدو أن كل ذلك قد اختفى اليوم! لو كان برلينغير حياً: ماذا سيقول عن خيبة الأمل هذه؟

"الطموح العظيم": دروس في النزاهة السياسية

نحن في عالم أكثر عنفاً وتوتراً من ذي قبل، وهناك زيادة هائلة في الاستثمار العسكري لم يسبق لها مثيل من قبل. وباتت صناعة الأسلحة أقوى من أي وقت مضى. يعتقد برلينغير أن ترك اقتصاد السوق بدون لوائح اجتماعية سيؤدي إلى تحسن واضح في الظروف المادية، ولكنه سيؤدي في الواقع إلى انفجار عدم المساواة، وتعزيز القوى العسكرية، و"انقسام" المجتمع ، ما سيفقد التضامن الاجتماعي والمشاركة. وبدون مشاركة القرار لا توجد ديمقراطية. اليوم ، سيفهم أيضا حدود النموذج الاشتراكي الذي دافع عن هذا المناضل الشيوعي (برلينغير) ذات مرة. إذا حاولت إحداث ثورة من خلال استبدال السوق بسلطة الدولة، فإن تلك الدولة تصبح حتما شمولية. وهذا هو أعظم درس يجب تعلمه. نعم، كان برلينغير شخصا صادقا وواضحاً. لكن الصدق ليس الإرث الحقيقي لشخصيته. إذا كان لديك نزاهة ولكن ليس لديك أفكار، فأنت لا تساوي شيئا. يقدم فيلم "الطموح العظيم" شكلا نبيلا من السياسة، ويقوم على السعي لتحقيق الصالح العام. تحقيقا لهذه الغاية، يتذكر " إنريكو بيرلينغير "، الذي كان في السبعينيات سكرتيرا لأهم حزب شيوعي في أوروبا الغربية ، بالإضافة إلى كونه على وشك جعله رئيس الحكومة الإيطالية من خلال تحالف مع الديمقراطيين المسيحيين.

يمر "الطموح العظيم" عبر الشاشة مثل نوع من المرثية والحنين الى زمن جميل ، مثل قصيدة مأساوية ، مثل هاجس يمليه من الماضي لتحذيرنا من مستقبل يشم رائحة الحاضر ويؤلمه. تقدم هذه "السيرة الذاتية" التي شارك في كتابتها (أندريا سيجري و ماركو بيتينيلو) رجلا مستقيما ونزيها في الوقت نفسه ، توضح خطاباته الكثيفة التزامه المهووس بمبادئه .وتمحور بشكل أساسي بين عام 1973 - 1978عندما تعرض برلينغير لهجوم في صوفيا - واختطف ألدو مورو وقتله(اختطاف ألدو مورو واغتياله كان حدثًا مؤلمًا لجمهورية إيطاليا، حيث تم اختطافه في 16 مارس 1978 من قبل منظمة الألوية الحمراء اليسارية المتطرفة، وعثر على جثته في 9 مايو 1978 في صندوق سيارة. الحادثة أثارت صدمة كبيرة لدى الرأي العام الإيطالي ودشنت مرحلة من أزمة خطيرة في المؤسسات. مورو كان قد أبرم "تسوية تاريخية" مع الحزب الشيوعي الإيطالي لتشكيل حكومة ائتلافية لمواجهة وضع اقتصادي صعب ومكافحة الإرهاب).

تماشيا مع الخلفية الوثائقية لمخرجه، أندريا سيغري يسعى الفيلم جاهدا لتحقيق الدقة التاريخية وهو بارع بشكل خاص في كل من تنظيم مشاهد الحشود في الشوارع. وفي الوقت نفسه، يلتقط تعقيد الشخصية في جوانبه العامة والخاصة، ويجمع بين البراعة والرقي مع الدعوة الشعبية، والحنين إلى الماضي بقوة. "إنريكو بيرلينغير"، الزعيم الشيوعي الإيطالي الأسطوري الذي كان موضوع هذه السيرة الذاتية والذي توفي قبل 40 عاما، أطلق عليه لقب (الحمار الحديدي)، بسبب عناده عندما يتعلق الأمر بالتفاوض، لا يترك طاولة المفاوضات حتى يتم التوصل

إلى اتفاق. إفتتاحية الفيلم من اقتباس للمفكر أنطونيو غرامشي: ”نحن عادة شهود على النضال من أجل طموحات صغيرة مرتبطة بغايات خاصة ضد الطموح العظيم الذي لا ينفصل عن الصالح الجماعي“، الذي يبدأ به هذا الفيلم، يحذر بعناية من أن الأحداث والشخصيات التي يرويها أعيد بناؤها من النصوص والمحفوظات والشهادات إعادة السينما الإيطالية إلى طريق السينما السياسية التي جعلتها مشهورة جدا في السبعينيات. وهكذا، فإن بداية الطموح العظيم، مع صور أرشيفية للانتصار الإيطالي والانقلاب اللاحق ضد الرئيس التشيلي ”سلفادور أليندي“، تؤطر اللحظة التاريخية شخصية الزعيم الشيوعي ”إنريكو بيرلينغير“، والذي بدأ مع جورج ماركيه وسانتياغو كاريلو، في بناء بديل للشيوعية السوفيتية والرأسمالية الغربية التي أطلقوا عليها اسم ”الشيوعية الأوروبية“. لكن الفيلم يركز على تطوير ”التسوية التاريخية“، وهي خط عمل آخر لبرلينغير، الذي سعى بفارغ الصبر إلى تفاهم مع الحزب الديمقراطي المسيحي الذي كان قويا في يوم من الأيام للحفاظ على الحركة الإصلاحية التي من شأنها إزالة الاحتمالات الاستبدادية داخل مشهد السياسة الإيطالية، وهو اتفاق رفضته الولايات المتحدة رفضا قاطعا.

وكان عمل المخرج، الذي سعى جاهدا لرسم صورة لسياسي يحظى باحترام خصومه، ورمز أخير لصدق القادة الإيطاليين العظماء في وقت آخر. بهذا المعنى، فإن محاولة الممثل ”إليو جيرمانو“ في تجسيد شخصية ” إنريكو بيرلينغير ي“ مجازفة كبيرة، حين نغلف قيمة الحنين إلى الماضي في العديد من العناصر الموجودة في التمثيل السردي والتاريخي في المنظور الحالي. بذكاء، يؤطر سيغري شخصية القائد الشيوعي ”برلينغير “ في لحظة اضطرابات سياسية كبيرة، وبهذه الطريقة يحافظ المخرج على شعلة السينما السياسية نشطة من صياغتها الأخلاقية وتفسيرها التاريخي.

عمل المخرج سيرجي القصة على فترة زمنية محددة للغاية فحسب، بل يلمح أيضا إلى لحظة تاريخية ذات خصائص واضحة جدا سياسيا وجيوسياسيا. تحت قيادة برلينغير، تم تنصيب الحزب الشيوعي الإيطالي في أول قفزة برلمانية في انتخابات عام 76، وبدأ في التفاوض مع الديمقراطيين المسيحيين وحزب مورو ورئيس الوزراء آنذاك ”جوليو أندريوتي “، وهي حكومة ائتلافية جعلت كل والولايات المتحدة والامبريالية العالمية غير مرتاحة. يقدم فيلم ”الطموح العظيم“ لمحة إنسانية ليس فقط من خلال تصوير نشاط برلينغير العام ، ولكن أيضا إضفاء الطابع الإنساني على شخصيته من خلال التحقيق في المكان الذي احتله في مساحاته الحميمة، على الصعيدين الشخصي والسياسي. وفيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة، فإن فكرة إعادة بناء اجتماعاته الخاصة مع شخصيات مثل الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف أو مورو نفسه، الذي شكل نقاط تحول في تاريخ ذلك العالم، مهمة للغاية. ولكن أيضا الدور الذي شغله كزوج وأب لأربعة أطفال، مستخدما الأسرة كمنطقة مفيدة من وجهة نظر سينمائية. ليس فقط لإكمال الصورة الشخصية ولكن أيضا لإضفاء الطابع الدرامي على قضايا مثل الارتباط بالشباب السياسي من التدريج الأقل قسرا. فيلم ”أندريا سيغري“ عن بيرلينغير هو صورة للبحث والأحلام، بين الحياة والسياسة.

ليست سيرة ذاتية بسيطة، أيضا لأننا لا نرى أي ذكريات الماضي عن مراهقته، وكيف أصبح ما كان عليه، لكننا نشهد صورة محددة وتعليمية وعملية للغاية لشخصية بيرلينغير الكاريزمية، وتذكرها الجميع، شوهدت في مرحلة النضج السياسي في لحظة حاسمة، من عام 1973 إلى عام 1978، مع التركيز بدقة على عامي 1975 و1976، دون أن ينسى جانبه العائلي، كأب وزوج. وهي تتراوح من الانقلاب في تشيلي، والإطاحة بسلطة سلفادور أليندي في تشيلي، و"الهجوم" الفاشل في صوفيا ضده من قبل أجهزة المخابرات البلغارية، إلى اختطاف وقتل ألدو مورو.

خلال المشاهد الختامية لـ(الطموح العظيم)، يتم عرض صور أرشيفية لجنازة إنريكو برلينغير في يونيو 1984، والتي حضرها أكثر من مليون ونصف المليون شخص (في إحدى اللقطات يمكنك رؤية مارسيلو ماسترويياني معين). اليوم قد يبدو من غير المعقول أن يرافق مثل هذا الحشد نعش سياسي، لكن الحزب الشيوعي الإيطالي في ذلك الوقت كان حزبا جماهيريا تجاوز بشكل مريح في جميع الانتخابات 30 بالمئة من الأصوات، وعارض هيمنة الحزب الديمقراطي المسيحي المحافظ. في الواقع، خلال سرد الأحداث كان هناك تسلسل زمني كامن، وتواريخ، وأحداث، يشير إليها سيجري: لحظات تسمى موازنة إيقاع الفيلم، بالتناوب بين إيقاع تجربة بيرلينغير، وبين الحياة المهنية، والالتزام، والحياة السياسية، والرحلات، والاجتماعات، والخاصة، التي تظهر في الطقوس، وتمارين الجمباز الصباحية، وكوب الحليب الذي لا مفر منه للشرب، والشفافية في المشاركة مباشرة مع العائلة، بالنسبة لأطفاله، المخاطر التي كان من الممكن أن يتحملها. توفي بيرلينغير في 11 يونيو 1984، بعد أيام قليلة من مرضه خلال تجمع حاشد في بادوفا. شارك حشد من المحيطات، إذن، مليون ونصف المليون شخص، في الجنازة، مع صورة رمزية تترك أثرا: ذلك التابوت، الذي سار وراءه فيليني وسكولا وماسترويياني ومونيكا فيتي، شهود من عظماء للفن والسينما، محاطين بالناس البسطاء من العمال والفلاحين.

"الطموح العظيم" يعمل كتمرين في الذاكرة الجماعية، لشعب عرف كيف يكون متضامنا مع الأمم الأخرى وللطبقة الحاكمة التي وقفت جنبا إلى جنب مع الأكثر احتياجا. لحظة تاريخية فريدة مليئة باليوتوبيا. بهذه الطريقة، يشيد المخرج بشجاعة "إنريكو بيرلينغير" ونضاله، وينقذ أفكاره ومقترحاته السياسية، مهما بدت طوباوية اليوم، في سياق يتسم بصعود اليمين المتطرف الذي يحكم هذه المرة. من ناحية، هذه قصة حلم جماعي، يحلم به العديد من الأشخاص الذين كرسوا حياتهم لفكرة أنه من الممكن بناء مستقبل أفضل. ودعوة شباب اليوم المنخرطون سياسيا إلى التغيير من أجل إنقاذ البشرية، لكنهم لا يحلمون بأي شيء. من ناحية أخرى، فإن قصة الحزب الشيوعي الإيطالي قصة لا تروى بل تدرس للأجيال القادمة.

*** كاتب عراقي**

التشكيل العراقي.. ذاكرةٌ تشرق من الطين وتكتب زمنها على جدار العالم

أميرة ناجي *

يشبه الفن التشكيلي العراقي نهرًا يتدفق عبر الأزمان يخرج من باطن التاريخ كما يخرج الفرات من ينابيعه الأولى، ليعيد تشكيل ملامح الروح الإنسانية في كل عصر؛ فمنذ اللحظة التي نقشت فيها أصابع السومريين أول ملامح الإنسان على الطين، ومنذ أن خط البابليون خرائط النجوم والآلهة على جدران معابدهم، ظل العراقي عبر الزمن يكتب وجوده بالصورة قبل أن يكتبه بالحرف، وينحت ذاكرته بالحس قبل أن يدونها بالكتابة، ولهذا لم يكن التاريخ يومًا خلفية للفن العراقي، بل كان نسيجه الداخلي جوهره الحي الذي ينهض في كل تجربة، ويجدد نفسه في كل جيل، كأن الفن هنا ليس مجرد ممارسة إبداعية، بل استمرار للموروث الإنساني العميق، الذي شكل هوية بلاد الرافدين عبر آلاف السنين.

ولعل مقولة بابلو بيكاسو الفن يمسح عن الروح غبار الحياة اليومية تنطبق بعمق على التجربة التشكيلية العراقية؛ فالفنان العراقي لم يكن يومًا مجرد صانع صورة بل كان كائنًا يقاوم الغبار المتراكم على روحه وروح شعبه، كان يحول المعاناة والخسارات والحروب والاضطرابات والمخاوف والأحلام المؤجلة إلى لغة بصرية حادة ومبتكرة تنتقل من التعبير الفردي إلى الشهادة الحضارية، وهنا تتجلى فرادة الفن العراقي فهو ليس انعكاسًا لعالم خارجي فحسب، بل هو صراع داخلي بين الذاكرة وما تبقى منها بين الحاضر وثقله بين الإنسان وأسئلته الكبرى.

جذور الفن الحديث في العراق:

لقد تبلورت الحركة التشكيلية العراقية الحديثة عبر مسار تخطى تفاصيله الزمنية إلى جوهره الخلاق وهذا المسار لم يكن خطًا مستقيمًا بل سلسلة موجات متعاقبة كل موجة منها تحمل نبرة خاصة ونفسًا فكريًا مميزًا، فقد بدأت ملامح الوعي الأكاديمي تتشكل مع الطليعة الأولى من الفنانين الذين درسوا الفن في الخارج وعادوا محملين بالمعرفة الحديثة لكنهم سرعان ما اكتشفوا

أن هوية اللوحة العراقية لا تصنع في مدن الغرب، بل في الأزقة الشعبية لبغداد وفي الطين الذي صنع حضارة الرافدين، ثم بدأت مرحلة البحث العميق عن هوية فنية خالصة تستند إلى التراث من دون أن تتكرر وتتصل بالحداثة، دون أن تصبح ظلًا لها فكان الاتجاه نحو العلامة المسمارية والأسطورة والرموز الرافدينية والوجدان الشعبي، ثم جاءت موجة الازدهار المؤسسي التي شهدت ولادة الجماعات الفنية التي أعادت تشكيل المشهد التشكيلي بروح جماعية واعية، وفي مرحلة الانفتاح على العالم صار الفنان العراقي جزءاً من حركة فنية عالمية يتفاعل معها دون أن يذوب فيها، ومع الاضطرابات السياسية التي مرت بالبلاد تغيرت لغة اللوحة فأصبحت أكثر توترًا وأكثر تعبيرًا عن الشهادة والجرح، لكن هذه المرحلة كشفت عن قدرة الفن على مقاومة الانكسار وأخيرًا جاءت مرحلة التجديد المعاصر التي حملت رؤى جديدة وأدوات متنوعة لكنها حافظت على الجذر الرافديني الذي لم يغادر أي تجربة عراقية أصيلة.

رواد الهوية الذين صنعوا الضوء:

ما ميز الفن العراقي هو حضور مجموعة من الأسماء الكبرى التي صنعت الهوية البصرية وروح الحداثة: جواد سليم الذي جعل من النحت خطابًا للحرية، ونزيهة سليم التي جعلت من المرأة العراقية رمزًا للحياة، وفائق حسن الذي غرس روح المدرسة الحديثة، ومديحة عمر التي فتحت باب الحروفية، وشاكر حسن آل سعيد الفيلسوف الذي جعل من اللوحة نصًا روحيًا، وإسماعيل الشيخلي وكاظم حيدر اللذان منحا التعبير الرمزي بعده الملحمي.. هؤلاء لم يستوردوا الحداثة من الخارج بل أعادوا صياغتها بروح عراقية خالصة فكانوا أوفياء للطين الأول وللرمز الرافديني وللذاكرة الوجدانية لشعبهم.

الجماعات الفنية وبناء الخطاب البصري:

في منتصف القرن الماضي أصبحت بغداد مختبرًا فنيًا حيًا فقد سعت الجماعات الفنية إلى تأسيس خطاب بصري جديد يزاوج بين الأسطورة والتاريخ والواقع، ويعيد قراءة العلامة السومرية والخط العربي والموروث بوصفها عناصر حية قابلة للتحول: جماعة الرواد ثم جماعة بغداد للفن الحديث وغيرهما أسست لنمط جديد من التفكير في الفن، وجعلت اللوحة العراقية جزءًا من خطاب عالمي لا تابعًا له، بل شريكًا فيه، يعمل على إعادة صياغة المعنى بين إرث ثقيل وواقع مضطرب ورغبة جامحة في الحرية، ولذلك جاءت اللوحة العراقية مزيجًا فريدًا بين الحلم والرغبة والجذور.

الفن كقوة مقاومة وجمال:

عبر كل التحولات بقي الفن العراقي قوة مقاومة لا أداة تزيين حين ضاق الواقع اتسعت اللوحة وحين خفتت الأصوات تكلم اللون، وحين تعبت البلاد حمل الفن ذاكرة الناس الفنان العراقي ينحت حلمه من صلابة الأيام، ويستدعي الذاكرة كأنها بئر لا تجف، هو جزء من طين الحضارة التي كتبت أول قانون وأول أسطورة وأول قصيدة، ولذلك ظل الفن هنا أقرب إلى نبض الأرض منه إلى رفاهية الإبداع

الفن العراقي بوصفه تاريخ الفن:

ليس التشكيل العراقي فرعًا من تاريخ الفن، بل هو تاريخ الفن نفسه بلغة الرافدين. إنه امتداد لحضارة لا تزال تنطق عبر الطين ويتجدد حضورها عبر أجيال من الفنانين الذين يكتبون العراق بألوان مختلفة، لكنهم يجتمعون على رسالة واحدة: أن يظل الفن الجسر الذي يعبر به الإنسان من الألم إلى الخلود الفن العراقي اليوم يقف بين ماض فخم وحاضر مليء بالتحديات ومستقبل مفتوح على احتمالات كثيرة، لكنه يحمل يقينًا واحدًا: أن الصورة هنا ليست شكلًا بل ذاكرة، وليست لونًا بل شهادة، وليست لوحة بل وطن كامل يعاد رسمه كل يوم. ولهذا فإن الحديث عن الفن التشكيلي العراقي ليس حديثًا عن تجربة جمالية فحسب بل عن سردية إنسانية كتبتها أجيال من الفنانين الذين جعلوا من الجمال طريقًا للمقاومة ومن الذاكرة طريقًا للخلود.

*** ناقدة وفنانة تشكيلية**

هاملت في المدينة

د. يوسف رشيد

(النص): بنية للخطاب (الميتالساني) هو أداة مفهومية عنيت في بعض قراءاتها بالتشكيل الإبداعي لثيمات متوالدة تتناسل في النصوص عبر الأزمنة، و كل نص يقوم بهضم النصوص التي سبقته وتمثلها وتحوليها و يرى (بارت) أن آخر قصيدة أو آخر قصةٍ كتبت هي بالضرورة تتعالق وتتناص مع أول قصيدةٍ في الشعر أو أول قصةٍ كتبت ، من حيث بنيتها ومرجعياتها، وحيث أن (التناص) ظاهرة تنتسب إلى الخطاب وأن الخطاب يشتمل على النص والعرض أيضا، فهو في الوقت نفسه أداة للكشف عن قوانين كلية للإنتاج الفني بمعزل عن مبدعه، وفي حدود التعالق بين (السابق-اللاحق) فيما أسماه (باختين) بـ (الحواريه)، وأسست له (كريستيفا) بالتناص، معضدا باجتهادات (لوران جيني) و (تيري ايجيلتين) وغيرهم/ في أن النص أصلا هو دوران بيئي ، وكشف عن البنى التحتية عبر ظاهرة نقدية ،لا تنتسب إلى اللغة لأنها تقع في مجال اختصاص عبر اللغويات ، وعلى حد قول (تودوروف) فأن كل نصٍ يخفي في داخله نص آخر ، وكل عرضٍ يخفي بداخله اخر ، ان العتبة الأولى للنصِ هي إحالة بالاسم الصريح (هاملت).

فبين (هاملت) شكسبير (وهاملت في المدينة) لمنير راضي، اشتغال واضح

(لآليات التناص) المعروفة (كالإحالة) و (الامتصاص) و (الاجتلاب القصدي) ومن خلال تجليات خصوصية الرؤيا (الحالية) في القراءة الجديدة، والمغايرة في معمارها البنائيٍ، حيث تضمن نص (راضي) (استدعاء قصدياً) لثيمة الانتقام، وبـ(بامتصاص) صريحٍ للأسماء والشخوص التي عالجها في (مونودراما) الممثل الواحد بـ(الاستبدال الفني) للشخوص الشكسبيرية، والاستعاضة عنها بالإكسسوارات، وبالأدوات الفنية للعرض ومفرداته.

من هنا يكون التناص قابلاً للقراءة بالإحالة وتعالقاتها في النص الجديد، مشروعاً جمالياً واجرائياً، يمكن قراءته العرض وعناصره الإخراجية والسينوغرافيا.

إن تمحورت محاولات التأليف عند (منير راضي) بحث عن مناطق جديدة وحفريات لاستنطاق المجاورات الفكرية ، لثوابت ورواسخ الفكر المسرحي العالمي ، هذا هو هاجسه في مغامرات التصدي بالهدم والبناء

وإعادة الإنتاج، كما تجربته السابقة (لير يحاكم القدر) وأيا كانت مخرجاتها، فإنما هي نضح عن ذلك القلق الإبداعي والإيمان بأن المسرح هو ثورة، وتمرد على الثوابت، للإتيان بالجديد بكل نتائجه المحتملة، فهو لا ينسفها لإثبات عدم جدواها، وإنما لتقديمها برؤيةٍ لاحقةٍ آنيةٍ تناسب الحاضر، هذا النص (تحويل) لفكرة (هاملت) بإعادة إنتاجها بأوجاع يوميه وقلق الحاضر، مشيداً معماريته على أزلية فكرة (الكينونة) بوصفها ثيمة لكل الأزمنة.

المخرج (عبد الرضا جاسم) اتكأ على الثيمة الفلسفية المركزية في معالجته الإخراجية، متخذاً من ثيمة (الانتقام) معبراً فلسفياً من هاملت الى الحاضر، ولبوساً لثيمةٍ معاصرةٍ، وفهم يتصدى به لشراسة الاستبداد وبشاعة الظلم والغدر والضياع في نظرية التآمر على معنى للوجود، وغياب القيم النبيلة؛ ففي بيئة عرضٍ ضيقة المساحة استطاع أن يحقق ايصالاً للفكرة في تنوع حركي وجمالي في فضاءٍ كان من الصعب التحرك فيه، او تحقيق أي تنوعٍ مساحي في الأداء.

وهنا نؤشر تناصاً موضوعيا للمؤلف وتعرضا عابرا للبيئة المكانية وصورة الفكرة مع (بيتر فايس).

نستدل على انفتاح رؤية فريق العمل والاشتغال على وحدة الهدف من العرض باتفاقٍ مشروط الحدود في مجالات تشكلاته الأدائية المتاحة مكانياً، وسيرورة العرض بوصفها منظومة واحدة.

وقد هيّأ الممثل (جاسم محمد) أفعاله والياته الادائية باتجاه رسم العلاقة مع ضيق المكان، وحساسية التحرك في فضاءاته، وقسوته الحديدية الضيقة الضاجة بمفرداتها، بحيث جعلنا نستشعر ثقلها وضراوتها أمام قدراته التعبيرية المدروسة، وبأفعالٍ من الصعب جداً انجاز تشكلاتها بذلك الضيق المساحي، ما عمق شعورنا بالضيق والانحباس الذاتي وكذلك عكس جرأة المخرج على قبوله هكذا منازله بين الفضاء والممثل والفكرة الفلسفية، بعرض مونودرامي، عبر من خلاله عن قدرته على الضبط الجمالي من ناحيةٍ، والدلالي من ناحيةٍ أخرى.

وفي هكذا بيئة مكانية يكون المخرج وممثله قد نجحا في خوض هذه التجربة في بيئة حدودها لا تزيد على ثلاثة امتار من الزنزانةٍ الحديديةٍ المتداخلة مع مفردات ومشبكات الحديد التي استدعتها المشهدية كاكسسوارتٍ للعرض وادواتٍ فنية، حيث تعامل مع مفردات الفضاء بوصفها شخوصاً افتراضية وتحويلها من واقعيتها إلى فضاءٍ تأويلي، على الرغم من أننا لا نختلف على أن شكسبير سابقٌ لعصره، ولهذا بقيت الكثير من مقولاته صالحة لكل الأزمنة، ومنها فكرة (الكينونة)، ذلك التساؤل الوجودي الذي نعيده على انفسنا في أشد الاوجاع ضراوةً، فهو الموقف الشكسبيري مقابل كل اشكال التآمر والخيانة والغدر، فكان على لسان (هاملت) خطابا محرضا تمرديا، ولعله اشد الحاحاً في خطاب (منير وعبد الرضا) اللذين نزلا بهاملت الى مدينتنا وهي تذرف مدراراً من الخيانات والفساد، ومن التآمر اليومي حيث تمر الذات الانسانية في مدينة (فرضيتنا) بشتى انواع العذابات التي جعلتهما يستعيران شكلاً آخر من اشكال الاحتجاج والتمرد، فالعرض يتصدى لجوانب من هذه المؤامرة بإسقاط الجوانيات الموضوعية من العذابات الآنية للذات الانسانية المنتهكة وامتدادها الى ابشع التفاصيل وبشتى اشكال التعذيب النفسي وحتى الجسدي، وهو لا يخلو من بعض الإشارات

الصريحة إلى انواع التعذيب التي توافرت عليها أزمنة الخراب والفتنة وتمثلاتها الوحشية بتوظيف ادوات اللحام والحفر بالحديد، إشارةً إلى سبل الوحشية والتعذيب اللا إنسانية، وهذا لا يحتسب فقط للمؤلف الذي وجه معطيات الخطاب الشكسبيري باتجاه رؤيته المحلية والآنية؛ بل يحتسب لسينوغرافيا العرض والإخراج في تشكلاتهما التعبيرية ايضا.

ولعل هذا هو أهم ما في فكرِ هذا العرض، حيث أنه البس المألوف (السابق) لبوساً (لاحقاً) في مغايرةٍ تنتمي بشكل أو بآخر إلى (التعرضن) بوصفه اداة تواصلية من خلال الرواق (الابستيمولوجي) للتناص.

ولعل البيئة المكانية (منتدى المسرح) كبيئةٍ للعرض؛ جعلت من المسرحِ شاهداً على العصر ومن المتلقي مشاركاً، لهذا جعلنا المخرج نحيط بالعرض لنكون شهوداً وضحايا نشعر بالضيق كجمهور العرض كان محرضاً ينتظر منا احتجاجاً على ما يحيط بنا من خراب، وهذا ما أشار إليه المخرج في دليل العرض، حين كتب أنه تحريض على الأسئلة لا الأجوبة لكشف هشاشة العدالة، حين يصبح المسرح قفص اتهام ومحرضا في الآن نفسه.

إن خزين ذاكرة المشاهد المسرحي العراقي؛ ثرية وحاضرة عند مشاهدة أي تشكيل بيئي او سينوغرافي في أي عرضٍ مسرحي، فمنذ سبعينات القرن الماضي تختزن الذاكرة المسرحية مشاهدَ وتشكلات سينوغرافية، اقترب بعضها من بعض، وطابق بعضها البعض الآخر، وخالف بعضها البعض الاخر.

إن أي تكرار لأي مشهد من عرضٍ لآخر؛ ليس بالضرورة انتحالا او سرقة أو نقلا من أي قيمة ابتكارية؛ فالكثير من عروض المسرح العراقي وجدت لها شبها، واحياناً يقوم المخرج والمصمم باستدعائها قصدياً لضرورات العرض، خصوصاً إذا ما كانت المسرحية هي ذاتها موضع العرض، او سبق عرضها عالمياً، كما حصل مثلا في عروض كبيرة ومهمة مثل (كوريولان) و(غاليلو غاليليه) في ثمانينات القرن الماضي بعد عرضها في العراق.

وعوداً الى (هاملت في المدينة) فإننا نجد أن سينوغرافيا المكان؛ استدعيت عن قصد من قبل المصمم (سهيل البياتي) إذ أن مشهد الزنزانة، كان هو نفسه الذي سجل ابتكاره الأول في المسرح العراقي باسم مسرحية (بيت برناردا البا) اخراج (سامي عبد الحميد) عام 1979 وتصميم (سلمى العلاق)، واعيد تكراره فيما بعد بطريقة أخرى في مسرحية (اللعبة) اخراج (فاضل خليل) وتصميم (كامل هاشم) 1986، وربما في عروض أخرى مثل (هيروسترات) او غيرها. إن تعالق (السابق- اللاحق) موجود في هذه العروض خامةً وشكلاً الا انه تغاير دلالي ووظيفي مختلف في كل عرض، وقد اشتغل مرة (البيت) ومرة (السجن) واخرى (المدينة) فالزنزانة التي احاط بها الجمهور في هذا العرض وسط المكان المكتظ كانت حصاراً للجميع (الممثل - الجمهور) لتأكيد تواصلية المشاركة في العرض مع المتلقي، وربما كشكل من اشكال عروض (القسوة) ليبدو ضيق المسافات هنا بهدف تأكيد تلك المشاركة (الموضوع - ذات المتلقي - الممثل - ذات المدينة) فكان (هاملت هو المدينة).

لَوْحةُ محمد مهرِ الدينِ الْمفْقُودةِ

عمار كشيش

قبل سوشيال ميديا، وقبلَ اختراع الأرض،
تعرّفتْ على مهر الدين، بعدَ وجودِ شجرةٍ
الصفصافِ الغامضة، قريبًا من بيتّنا.
الصفصافة: ذاتُ الكاميراتِ المُخبّأةِ بينَ
الأغصان
الصفصافة، ويُقال إنّها فتاةً مثل مريم،
الحمامة، خوفًا من السلاح تحوّلتْ إلى
شجرة.
تحتَ هذهِ الشجرةِ تعرّفتُ على مهر الدين،
على طيفِه تحديدًا.
كتبتُ له أكثرَ من رسالةٍ بالطّينِ والشمندر،
وأكملتُ رسالتي الأخيرةَ بالنَّبيذ.
وثمّة يدّ قبلتني،
يدّ خرجتْ من الدخانِ أو الغيم.
شاهتُه ليلة الجُمعة في التلفاز، في الشُرفةِ
البعيدة يتكلّمُ مترفًا ....
وأنا أكتب: يتكلمُ مترفًا ....
لطمتْني يدّ خرجتْ من النهر أو الغيم.
انتبه لكلامك، مهر الدين،
بتكلم بلهجةٍ بصريّة، مثلَ شاي النخل وشاي

الطين صرتُ صديقًا له.

يُخاطبني في رسائله: أراك في النافذة

العالية،

وفي المزهرية،

ويُخيّل لي أنّك تعيش في بيتِ حيواناتٍ

ريفيّة، وتتعب كثيرًا للتانق قبل أن تذهب

إلى المحاضرة.

أحيانًا، أحد ديكة البيت يخرج من السجلات

ويصيح أثناء المحاضرة، فتستيقظ فتاةٌ

رسمها بيكاسو، ويشتعل فحمها.

أرسل لي لوحةً زيّنها بمقاطعَ من قصيدة:

بخار الطفولة

طفولتي المصنوعةُ في يومٍ ممطر،

بأصابعٍ جريحة، نقش دمعُها وشما في

جسدي.

أفرحتني لوحتُه، وعلّقتها بالعجين قريبًا من

النافذة والقمر.

لكن كارثة خارج البيت، داخل البيت، وفي

بدر البيت:

ابتلعت اللوحة الثمينة.

ضاعت اللوحةُ من سنوات.

هل احترقت؟

لا دليل على ذلك.

الورد وسابعةُ النهارِ

عادل الياسري

سابعةُ النهار

لا يأخذكَ السُكَّريُّ لِلوَهَنِ

وَرْدٌ يناديكَ

مدنٌ أَلِفَتْكَ سائراً في دروبها

الفاتناتُ اللَّواتي غنَّينَ أشعارَكَ

تحملُ الريحُ مِنهنَّ الرسائلَ

طالَ انتظارَكَ،

سيِّدي جئنا

كأسُكَ الريّانُ زِنبقُهُ على الشَفَتينِ

تفّاحٌ له سَكْرَةٌ

ليس للخمرِ منها أوْ للشرابْ

في المرَّة الأولى طالتْ ذراعكَ الوردَ في

الغابة

في الثانيةِ،

الأشجارُ واقفةٌ بانتظارِكَ

دفترُكَ الشعْريُّ

طائرٌ يعبر الآفاقَ

يفترُّ في غَزَلٍ بين هذي وتلكْ

لا أظنُّكَ الآنَ تخذلهُ

له بينَ طهرانَ وإسطنبولَ

وفي باريس

في المدنِ البعيدةِ أغنياتٌ

للفوانيس، ودواليدا، ونوتردام

ولنادلةِ البارِ في يريفان

القطارات الّتي كنت فيها تتلصّصُ النظرَ

كراسيّها منك فارغة

لفَّ المسافاتِ قِرطاسٌ على ذراعكَ

كُنْ طائراً،

فالريحُ لا ترى

إلاّكَ فارسها

ولمْ ينسَكَ المصفِّقونَ في جلسةٍ

فاضَ بها الوردُ على الكاساتُ

هامتْ الأرواحُ بلحْنٍ عربي

يُناغيكَ في شَجَنْ

جنود جالوت

طالب كاظم

كنت احد أولئك الجنود، بفكوكهم العريضة وبنيتهم الضخمة، الاخوة غير الاشقاء، الذين اندسوا في فيالق جالوت الجرارة، بسبب الخوف من القصاص وغدر بعض الذين اندسوا كمخبرين سريين، بعد ان طالت الفاقة الرعاة الاوائل للوفرة، عندما اجهز حصار البرابرة وحشرة السوس على بقايا المؤونة، التي ادّخرت لملاقاة اعوام القحط، تلك الفيالق التي زحفت بالدروع والذخيرة واناشيد الحرب، صوب تخوم الاقاليم المتمردة، التي تحلم بالخلاص، في ذلك الليل الطويل المصفّد بالتوجس والقلق، لملاقاة الجناة وقطاع الطرق، اولئك المتمردون الحالمون بالحرية والفوضى، الذين فخخوا الطرق والممرات الوعرة، بالأوتاد المدببة والافاعي القاتلة والكلاب المسعورة، في نهاية المطاف، سنكتشف بأنفسنا، ان ليست هناك اي جدوى من اعادة سيرة ذلك الانكسار المؤلم، الذي لحق بالفيالق التي تلقت الضربات تلو الضربات، فذكراه لازالت عالقة بالذاكرة، التي تحاول ان تتبرأ من ذكريات انكساراتها المريرة، بعد ان لاقت جحافل الفيالق المدرعة مصيرها المفجع، حين حزت أعناق الجنود الأسرى وانتزعت جلود جثث الضباط، قادة الالف، الذين فضلوا الانتحار بطعن أحشائهم على الاستسلام لموت مهين لا يليق ببطولاتهم وأمجادهم الغابرة.

ما بعد زوال شمس تلك الظهيرة الخريفية، حينما أغلقت بوابات السماء بالغيوم الرمادية، تلقينا أمرا صارما بالتقهقر والانسحاب عبر الممرات الوعرة غير السالكة الى جبال طقطق، مأخوذين بهاجس الريبة والاسى والإحباط الممض: تلقينا الأمر الصريح الذي نص على: اعطبوا الذخيرة والأسلحة التي لا تستطيعون حملها واحتفظوا ببنادقكم ليس اكثر!

تلقينا امر الانسحاب في السابعة مساء ذلك اليوم ، في ليلة شديدة العتمة غاب عنها القمر، تسللنا الواحد بعد الآخر بصمت وحذر، تحت جنح الظلام والضباب

الكثيف، اختارتنا المصادفات المريرة لنكون شهود المتاهة وبيادقها، ونحن في الطريق إلى اللاجدوى، اعترضت طريقنا الوعر، الصرخات الواهنة لجرحى مذعورين، امضوا ساعات احتضارهم وهم يتشبثون ببقايا نبض ذابل، أولئك المصابون في حيزومهم بطعنات الحراب غير المسنونة، التي شحذت على حجر خشن الملمس، أولئك الذين نبشوا قبورهم بمخالب محطمة، فيما طيور أبابيل تنقض بأزيز زعانفها لتزدرد الأطراف مقطعة الأوصال بقذائف الفولاذ المنصهر.

لم نتلق تحذيرا، كل شيء حدث فجأة، عندما اختنقت انفاسنا بالمداخن، كما اهترأت في تلك الساعة هياكلنا التي نضب بسبب التجوال الطويل، بالنيران والشظايا، حينما انهمر وابل الفولاذ المتفجر من سماء مكفهرة جاحدة، لم تلق بالا الى تضرعاتنا الهزيلة، حينما اعترض السيل المنصهر طريقنا، حيث قادنا الذعر والفوضى الى المتاهة.

الخوف مما ينتظرنا عند المفترق المقبل، اخذ يرمم وجوم أرتال فيالق إخوة جالوت غير الأشقاء، بالتوجس والقلق، حينما زحف جنود الفيلق صوب الموت، لم تكن تدرك أي نهاية تلك التي تنتظرها عند الخطوة التالية، تقهقرنا تحت رايات المحنك العظيم جالوت نفسه، عاهل الحرب، المحصن بالدروع والنياشين، إلا أننا، فيما الدهشة الهائلة تعقد السنتنا، شهدنا في ليلتنا تلك ما لم يخطر على بال المحاربين القدامى، بأنه امر ممكن الحدوث، حين تلقى جالوت العظيم نفسه، حجر المقلاع بجبهته المصفدة بالفولاذ والخطايا، الحجر التافه الذي لا يستحق ان نهدر عليه لحظة واحدة للنظر اليه، فالحجارة الصلبة قاتمة السواد، كانت تغطي الممر الضيق المظلم حيث نمر، ذلك الحجر الناتئ، الذي أصاب جالوت عاهل الحرب الذي لا يقهر، بين عينيه ففلق جبينه، فأراده قتيلا على الفور، تردد صدى ارتطامه بميدان المعركة بصوت مدو مخيف، حين تهاوت جثته الهائلة لترتطم بالدروع والتروس التي غطت مستنقعات الدم التي امتدت حتى الافق الذي اكتسى بلون احمر غامق.

الواحد بعد الآخر تسللنا عبر الأودية الضيقة في منتصف ليلتنا تلك، حين اعترضت طريقنا صيحات غريبة تعالت في الجانب الاخر من الممر المعتم: من هناك؟

صوت ات من أعماق الخوف الذي حنط خطواتنا المتعثرة، صوت ابتلعه هدير سيل الطمي والوحل، في تلك اللحظة، انتظرت رصاصة ما يسددها كمين عدو لا يرى، تنهي سلسلة الآم لامعنى لها وحياة مصفّدة بالخراب، اضطجعنا على الحجر الناتئ لتفادي الرصاص الذي لم يطلق، مرت دقائق معدودة، عندما نلفت انتباهي الهدوء الغريب الذي اطبق على السفح الصخري، لم اعد اسمع همسات الجنود وتذمر كريم شميل، الذي كان يسبقني بخطوتين، أحاط بي سكون المكان الموحش، رأيت شكل الصمت والموت، وهو يسخر من القلق والتوجس الذي عشته في تلك اللحظات، انها الحرب، التي تقشطك بنصل غير مشحوذ، فتزيل عن عظامك العروق وتنتزع من روحك

الشعور بالخوف، الحرب التي تتركك متبلد الأحاسيس، الا انها تشحذ ذهنك بالمراوغة، ذهنك الذي سيجد نفسه مضطرا للبحث عن طريقة ما تنقذ بها نفسك من دروب المتاهة المتقاطعة.

حين جثوت على ركبتي أحاول الوقوف على قدمي ، لم أر آيا من رفاقي الجنود ، بينما الصمت الذي احكم قبضته استدعى الذكريات، التي مررت بها طوال سنوات الحرب، التي عشتها جنديا أجوب جغرافيا المحنة جنوبا وشمالا، تذكرت سفر العبث واللاجدوى الذي عشته في مستنقعات الحويزة، كنت أعوم فوق طوف فليني انتزع من حطام جسر ميداني عائم، تسللت عبره قطعات الإيرانيين في معركة الحويزة، كنت احتال على الطوف بمجداف خشبي انتزع من صناديق الذخيرة، بالإبقاء عليه عائما وانا أتفقد طريقي وسط المياه الراكدة، أحاول إعادة وصل السلك المقطوع، الذي يؤمن الاتصال بفصيل الكمين الذي تسلل عبر الظلام واحراش البردي الكثيفة في زوارق الفايبر كلاس، طوف فليني لا تتجاوز أبعاده المتر في متر، كنت اجثو على ركبتي وانا اخترق أجمة القصب ، في تلك الليالي الطويلة، التي تختنق بالتوجس والقلق وقنابر التنوير التي تضيء وجه الغمر والامتداد الداكن ، تداعت في ذهني صور عتيقة غرزت مخالبها عميقا في ذاكرة تنوء بفجائع الحرب، في تلك اللحظات القصيرة، كنت وحيدا جدا وتائها في منتصف الطريق الى اليباب، ثمة هدوء تسلل الي، اشبه بالسكينة التي تنتاب الشخص حين يستسلم لقدره ،قلت لنفسي، ما الذي استطيع فعله للإفلات من المصير الذي ينتظرني طالما الأمر يحدث فحسب، ليس أمامي سوى الانتظار، ادرك ان ما أعيشه في تلك اللحظة سينتهي على أي حال، كما ستنتهي كل الأشياء وسيطويها النسيان وسنندثر ولا يعد لنا أي وجود يذكر، لن نعود بعدها سوى ذكرى باهتة ستزول هي الأخرى حينما ينتهي الآخرون الذين يحتفظون بصورنا الفاقعة في ذاكرتهم .

قلت لم القلق والخوف؟ انها الحرب التي تضعك في مواجهة قاسية، أمام الحياة والموت. شعرت بالتيه والعجز للحظة، تبددت بعدها مخاوفي ما ان استعدت تماسكي وهدوئي، السفح اللامع كشف عن اثر تخبط أحذية الجنود الموحلة، لم اعد حذرا او خائفا، شعرت بأني حر ولكنني بلا وجهة، انتصبت على قدمي، تحيط بي العتمة والصمت، أتطلع حولي، تلألأت عناقيد النجوم ببريقها الفضي، الذي انكسر على السفح الصخري، وانا أتفقد طريقي، رأيت اثر خطوات الرتل الملطخة بالوحل الذي طبع بصماته على الحجر اللامع.

كنت اجوب الوادي استرشد طريقي الى الرتل، باثر طبعات أقدامهم الموحلة، اخذ الضباب الخفيف ينقشع، بدت السماء اكثر صفاء، كان الأثر واضحا ولامعا، اعترضت طريقي ظلالا اكثر قتامة، عندما اقتربت اكثر، كشفت الظلال عن أحراش كثيفة متشابكة وصوت دوي تدفق مياه السيل.

انتبهت لخشخشة الأوراق، ثمة هاجس أخبرني بأني عثرت على حطام الرتل

وحلقاته المفككة، بصوت عال، في تلك اللحظة لم افكر باي شيء، لما عليّ ان ارهق نفسي بأكثر مما كنت أعيشه، لم اكن حذرا او خائفا حين رددت:
ـ الاخوة غير الأشقاء
تردد صوتي جهوريا وواضحا.
للحظة عالقة بالصمت، لم يتردد سوى هدير السيل القوي، تلك اللحظة التي انتهت بصوت حذر يرد من جوف الأحراش المتشابكة :
اخفض صوتك كشفتنا ؟!
تقدمت صوب الجنود الذين فقدوا بوصلاتهم، الوذ بالقطيع، فالموت لن يكون قاسيا او مؤلما فيما لو لفظت أنفاسك وحيدا على سفح اجرد وسط العراء .
باستثناء السلاح المدخّر بالرصاص الملطخ بطين الخليقة، الذي ابقينا عليه مقيدا الى مناكبنا، تخلصنا من اقنعة الغاز السام، من ذاك قليل التبصر الذي سيلجأ الى اطلاق ذخيرة غاز الخردل في ذلك الطقس المراوغ ، بعض الإخوة غير الأشقاء، تخلصوا من ذخيرة البنادق برميها في تيارات السيل الجارف، التي تدفقت وهي تعول في طريقها الى الجنوب.
بينما الجندي المحارب، الذي أهملت سيرته، كما هو حال الآخرين الذين قامت على هياكلهم الفيالق التي زحفت في الاتجاهات الأربع، أولئك المحاربون المحنطون بالولاء وهم يتذرعون بالخوف، كما ضاعت ملامحه في الذاكرة التي لم تعد تبالي بتبدد صورها العتيقة، تسمر كتمثال حجري قبالة الجموع، التي احتشدت تنتظر حلا ما ينقذها من التيه، ذلك المحارب المنقذ من التخبط ، طلب من جنود جالوت، الإخوة غير الأشقاء، الذين تقاسموا الفزع والألم والطعنات، ان يتقدم الجنود، أصحاب البنية الأضخم والأكثر تجلدا في تحمل المشاق، للمهمة المقدسة، وهو الامر الذي قام به الجنود دونما تردد، كنت احد أولئك الذين تقدموا كقرابين للتضحية بقامتي المتماسكة، طلب ان نحرر النطاق العسكري، الذي نشد به سراويلنا البالية، زند لزند ربطنا اذرعنا بأحزمة الفجيعة تلك، انحدر المحارب قائد العشرة، المستكشف الأول في لجة السيل العنيفة، حيث غمرت مياه السيل عنقه بينما التيارات تتدفق بعنف في المنحدر الضيق، يتعين على جنود جالوت المنكسرين او ما تبقى منهم، عبور السيل الجارف الى ضفته الأخرى، القى الجندي الثاني بنفسه ليمسك بذراع رفيقه الاول، كما انحدر خلفهما المحارب الثالث وكنت الرابع وتبعني في الانحدار الى التيار العنيف، شديدة البرودة، الجندي الخامس و لحقه السادس حتى اكتملت السلسلة بالجندي العاشر، امسك احدنا بذراع الآخر، فشكلنا سلسلة من الأشقاء غير الإخوة، خاضت عبر دوامات السيل، تحاول الوصول الى ضفة المتاهة الأخرى عبر نشيج التدفق وعويل الدوامات، لازلت اذكر حينما انزلقت على حافة النهر الموحلة، تلقتني المياه شديدة البرودة التي غمرتني حد العنق، تعذر على التنفس في اللحظة الاولى، شعرت في حينها بان بالمياه الباردة ضغطت صدري، إلا اني كما ديدن المحارب المحترف، استعدت تماسكي، لكي نفلت من قبضة المأزق،

يتعين علينا مواجهة القدر وانتزاع نابه الوحيد، وهو يكشر في وجوهنا، يتنظر تردد احدنا كيما يسدد له طعنة قاتلة في ظهره .

نخوض ضد التيار العنيف ونحن نرمم صمودنا الهش بالأمل المفقود، مرت الدقائق ببطء شديد حين تعالت ترانيم نشيد الأناشيد عند الضفة الأخرى من النهر، حيث سمعنا صيحات الجندي، المستكشف الأول الذي قاد السلسلة:

-اشقائي، أمسكت بحافة الضفة الثانية!

بصوت عميق كالمعجزة، تردد صوت الاخ غير الشقيق ممزوجا بهدير السيل، وهو يمسك بحافة ضفة النهر الزلقة، بهياكلنا التي تسلقها الصقيع جسرنا ضفتي النهر، لعبور الجنود الذين تشبثوا بأكتافنا، اولئك الجنود الذين فقدوا الأمل بالخلاص، إلا بمعجزة صعبة المنال، تصدينا للتيارات العنيفة، التي حاولت تفكيك سلسلتنا المنهكة، ببسالة المأخوذ بالفزع والضياع.

الأشقاء الآخرون المنهكون، عبروا الى المجهول وهم ينشبون أظفارهم في هياكلنا، التي بدت كأعمدة الخليقة، التي تصدعت تحت وابل المطر والبرد والعماء، امسك جنديان، ظهر عليهما الأعياء الشديد بالعميد المتقاعد الكهل، كان مريضا ومرهقا جدا، دخل في نوبات سعال قاسية حاول ان يكتم زفيره المتقطع، شعرت بان رئتيه تتمزقان، وهو يتشبث بكتفي حينما خاض في التيار المتجمد، كما لو كان في طريقه الى الموت .

رتل الجنود كان مقطع الأوصال، بعد ان تبدد في التيه الموحل، حيث فقدنا اثر الجنود، لم نر هناك سوى مجموعات يلفها التوجس والقلق والبرد، نظر احدنا في وجه الآخر، لم نر سوى سحنات الوجوم على وجوه بلون الشمع ، بلا بوصلات ترشدنا الى وجهتنا الأخيرة ولا دليل ينقذنا من الضياع و يقودنا الى الخلاص، حيث تنتهي رحلتنا عند سفوح جبال طقطق، ارض الميعاد او سمها جنة عدن، التي بدت عصية علينا ولا يمكن اختراقها، ببوابات ممرات القمم المنيعة على المذنبين، سفوح جبال طقطق، التي تشرف على الأفق الآخر من الخليقة، كما اخبرنا قائد الفرقة، حين اندس في قلب الرتل المتعثر، الذي انحدر الى الوادي المعتم تحت الصقيع والمطر، في الساعة السابعة من ليلتنا الماضية، القائد الذي فقدنا اثره في التيه، كما فقد اثر ضباط الفرقة، باستثناء مدير الادارة والميرة، العميد المتقاعد، الذي انتزع من نادي المحاربين القدامى، وزج به في الصقيع ، كان في عامه الخامس والستين ، خلع رتبته وتخلص من هويات التعريف واندس بيننا كجندي رث الثياب بين الإخوة غير الأشقاء، في رحلتهم الشاقة الى طقطق.

الجنود الذين تخلوا عن مهمة الدفاع عن حصن رانية، بعد انتزاع أسلحتهم، الذين افلتوا من الأسر، اخبرونا بان الضباط، الذين استسلموا هناك لقدرهم السيء، قتلوا بدم بارد، اما قادة كتائب المشاة فلا احد يعرف شيئا عن مصيرهم، ببساطة شديدة، عصبت أعينهم واقتادوهم إلى جهة مجهولة .

المسن المتقاعد، الذي حاول دونما جدوى ان يكتم سعاله الشديد الذي لم يهدا للحظة واحدة، طوال ساعات رحلتنا عبر الوادي الموحل، بات مثلنا نحن الأشقاء غير الإخوة، جنديا مسنا يخوض في الوحل والطين، كان واجما وصامتا وهو يتطلع الى السيل العنيف، لم أر جنود محطة القائد اللاسلكية، بعد ان تقطعت بنا السبل في ممرات الشتات والفوضى، نأمل ان يبعث فينا المخلص، الذي سيرشدنا الى طقطق، التي بدت أرضا بعيدة المنال، إنها جنة الله وارفة الظلال الدافئة، التي لا تغيب عنها الشمس، كما تخيلتها فيما الطين يبتلع خطواتنا المتعثرة.

لم نهدر الوقت في الانتظار، ما ان عبرنا السيل في الساعة الثالثة قبل الفجر، بثيابنا التي تقطر الماء، نصارع البرد الشديد الذي جمد هياكلنا الخاوية، لم نشغل تفكيرنا بالجوع او بالعطش، بعد ثلاثة أيام من القحط واليباب، كما لم نستدل على وجهتنا الأخيرة، فلا علامات هناك ترشدنا الى الطريق، لم نفكر باللجوء إلى ممر اخر لم يسلك من قبل، فأثر خطوات الإخوة غير الأشقاء، الذين سلكوا الممر قبلنا، اولئك الناجون من المتاهة، اقتفوا اثر خطوات الجنود الذين سبقوهم في المسير، خطوة بعد خطوة، وجدنا انفسنا ننزلق في مستنقعات الطين اللزج، طين الخليقة الأول، الذي أحاط بجهاتنا الأربع، كنت أغوص في مستنقعات الطين حد ركبتي ، الطين اللزج، غليظ القوم التصق بحذائي الثقيل، كلما حاولت التملص من طين الله الأول، ازداد التصاقه بقدمي، لمحت جنديا هزيلا، وتد مخزن رصاص الكلاشينكوف في الطين، بينما امسك بطرفي بندقيته بكلتا يديه، تشبث بوتده الذي غاص في الطين، وسحب هيكله الهزيل، كما لو كان دودة حلزونية، ملطخا بالطين والخوف، أخفقت محاولاتنا في انتزاع أقدامنا من قبضة الطين، كما لو ان الأبدية جمدت الوقت في ذلك المستنقع اللزج، الابدية التي سخرت من اخفاقاتنا وعجزنا، كلما حاولت انتشال احد أطرافي يغوص الطرف الآخر ما ان تستند عليه بجسمك، للإفلات من قبضة الطين، استطعت انتزاع قدمي من الطين، الذي امسك بحذائي العسكري في جوفه، ظل هناك كاثر أحفوري، سيسرد للمنقبين عن الوقائع التي جرت في رحلة جنود فيلق جالوت وهم يحاولون الافلات من المتاهة، كما خلصت طرفي الآخر، كنت حافي القدمين، أخوض في الطين والبرد، تعثرت في الطريق المعتم بمخابر القائد، بلكنته الموصلية تمتم بإعياء شديد، وهو يتداعى على كتفي: سأموت ! حملت بندقيته، أخفف عنه أثقاله، كنت انصت الى صوت الطين، حينما نفلت اقدامنا من قبضته اللزجة، لنغوص مرة أخرى في خطوتنا التالية، تعالت أصوات فقاعات الطين، اعترضتنا حلقة الجنود الواجمين، الذين وقفوا كتماثيل حول هيكل تمدد على ظهره، كان مسنا جدا وجامدا جدا، كان يتطلع بأحداق منطفئة في سماء الله، عرفنا في تقاطيع وجهه الباردة على المسن المتقاعد، الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في مملكة الطين .

فجأة انبثقت أمامنا أشباح سوداء لبيوتات متراصة يلفها الصمت، الامر الذي دفعنا

الى تغيير وجهتنا فسلكنا طريقا اخر للابتعاد عن القرية الغافية عند حافة التاريخ.

في الرابعة صباحا، شيئا فشيئا أخذت السماء تسترد زرقتها، لمحت بصيص ضوء، تسلل عبر ثقوب في جدار انتصب وسط الظلام، تسللنا واحدا بعد الآخر، الى حائط الهيكل نتلو صلواتنا فخطايانا لا تغتفر، نحن جنود جالوت الجاحد، بأحذيتنا التي انتزعها الطين، بأقدامنا العارية المكبلة بلطخات الوحل والفجيعة.. أتكون بانتظارنا مائدة المن والسلوى، التي اطلقها الرب من أجلنا، لأنه يملك قلبا رؤوما بمخلوقاته الضالة الجاحدة؟

تسلل الخطاة والمذنبون والحجيج الضال الى بيت الرب، او الحظيرة التي شهدت ميلاد المخلص، هل هي زريبة حملان واغنام النبي التي انبثقت أمامنا من العدم؟ كانت حجرة واحدة، بدت ككعبة وسط الطين، الذي حاصرنا بفقاعاته، ام أنها صومعة يعقوب المزارع، دلفنا الى جوف حظيرة الراعي، هناك تعثرنا بأكياس الخيش المليئة بالبصل والثوم، ومعازق المزارعين والمجارف، لم يعد الخوف يشغل تفكيرنا، بعد ان احرق الجنود جذعا ضخما في وسط الحجرة الرطبة، فاشتعلت فيه النيران، دسست قدمي في اللهيب، لم اكن اشعر بهما بسبب الصقيع، كما تصاعدت دوامات البخار من أرديتنا البالية، بينما الطين الذي التصق بأقدامنا العارية اخذ بالتشقق، تساءلنا ان كان الله في الجوار وها هو يظهر لنا المعجزة الموعودة، تشقق الطين وتساقطت قشوره السميكة، لتكشف عن أصابعنا المحنطة بالبرد، ام انه كان يمعن في السخرية من مخلوقاته الضعيفة، وهي تتهاوى عند حافة المحرقة، كالأموات اضطجعنا على التبن، بينما دخان البصل المحروق و الثوم، يكرس تعميد القرابين التي قدمت لإشباع غرور الآلهة، كشف الضياء الأول عن فاجعتنا، و رأينا الخيبة العميقة تتجسد أمامنا بهيكلها العظيم: بعد ان أمضينا النصف الاخير من ليلتنا الماضية والساعات الأولى من يومنا التالي، اثنا عشرة ساعة امضيناها ونحن نجوب فيها ممرات المتاهة، لنكتشف مع ضياء الفجر، باننا أمضينا ساعات الليل، ندور في حلقات متصلة، ندور في لانهائية المكان، وجدنا انفسنا ننظر الى كويسنجق، التي طلت علينا بسخرية الرجال المسلحين الذين تقدموا باتجاهنا وهم يطلقون صيحاتهم، التي بدت لي ساخرة اكثر منها متوعّدة وهم يأمروننا بالاستسلام.

(تماثيل) الأستاذ حميد حسن جعفر

د. محمد صبي الخالدي

هل الأبوة سلطة أم مسؤولية صياغة؟
لم يُولد حميد حسن جعفر في زمنٍ محدد، بل خرج من نفقٍ رمليٍّ في لحظة مطرٍ خائف. لم يكن له اسمٌ في البداية، بل نادتّه الريح بـ"هشيم"، ثم ناداه الطين بـ"ابن الماء"، ثم ناداه الصمت بـ"التمثال الذي يتكلم".
كان أبوه الأول حجارة، وأمه غيمة لا تمطر. لم يتعلّم الكلام من الكتب، بل من جماجم تتجوّل في النهار، ومن رؤوس تُستبدل كل مساء. لم يكن شاعرًا، بل كائنًا رمزيًا، يرى في المطر لعنة، وفي الجسر الوحيد اختبارًا، وفي المعاطف محاولةً فاشلة لإخفاء العُري.
كتب أول قصيدة له على جدار نفق، حين رأى أبناء الطين يذوبون في الماء الأحمر، ولم يكن يعرف إن كان يكتب شعرًا أم يصرخ. لم يكن يطلب البرّ، بل يفضح المروق، لا ليُدين، بل ليُفكك.
حميد لا يؤمن بالهوية الثابتة، بل بالتحوّل. لا يرى في الأبوة سلطة، بل مسؤولية صياغة، وفي الصياغة خطأٌ دائم. لا يكتب ليُعجب، بل ليُقلق. لا يصف، بل يهدم، ثم يبني من الهدم معنىً جديدًا.
قصيدته "تماثيل" ليست نصًا، بل مرآةٌ مكسورة، يرى فيها نفسه، وأبناء جيله، وأبناء وطنه، وأبناء الطين الذين لم يُنادَوا بأسمائهم.
هو لا يبحث عن خلاص، بل عن اعتراف. لا يطلب قيامةً سماوية، بل قيامةً رمزية، تحدث في النفق، في لحظة المطر، حين يتجمّع الهاربون ليحافظوا على أطرافهم السائبة.
حميد حسن جعفر، في هذه القصيدة، قدم طقوسًا شعرية، فلسفية، رمزية، تُعيد تشكيل الخوف، وتُحوّل الذوبان إلى ولادة، والتمثال إلى سؤال.
كان يا ما كان...
في غياب لحظات الأيام، حين كانت الشمس تشرق على أرضٍ لا تعرف الأسماء، وُلد الطين عبدًا، يطيع سيده دون أن يسأله عن الغاية. كان الطين هشًّا، لكنه مطواع، يتشكل كما يريد السيد، الذي لا يُرى، ولا يُسمّى، بل يُشار إليه فقط بـ"الآب الأول".
الآب الأول لم يكن أبًا بالمعنى الحنون، بل نحاتًا غريبًا، يصنع التماثيل ثم يتركها في العراء، يراقبها من بعيد، لا ليحميها، بل ليختبر ذوبانها. وكان أول تمثال يُصنع يُدعى "هشيم"، لا لأنه اختار الاسم، بل لأن الريح نادته به ذات مساء.

هشيم كان يظن نفسه حيًا، لكنه لم يكن يعرف كيف يتكلم. كان رأسه يُبدّل كل مساء، فيُصبح مرةً غاضبًا، ومرةً ساخرًا، ومرةً صامتًا كالحجارة. وكان جسده يتشقق كلما اقترب المطر، فيركض نحو الصحراء، حيث الماء الجاف، حيث الأكاذيب تُعلّق كالورود في عروة السترة، وحيث المعاطف تُخفي العُري لا تدفئه.

في تلك الأرض، لم يكن أحد يُنادى باسمه. كانت التماثيل تتجوّل جماجمها وحدها، تبحث عن أجسادها، عن صوتها، عن أصلها. وكان الجسر الوحيد نحو الضفة الأخرى يُفتح مرةً كل موسم، فيعبره الجميع، لا بحثًا عن النجاة، بل هربًا من فيضان الجداول، من المطر الذي صار دمًا، من الرعب الذي يسكن الطين.

وذات مساء، حين تبدّلت رؤوس التماثيل كعادتها، لم يجد هشيم رأسًا جديدًا. وقف عند أقدام شجرةٍ عجوز، ونادى بصوتٍ لم يكن له: "أين الآباء؟ أين من صاغني؟"

فأجابت الشجرة: "الآباء صاروا حجارة، لا يسمعون، لا يجيبون. أنت ابن الطين، لا تنتظر البرّ من المارقين."

حينها أدرك هشيم أنه لم يكن حيًا، بل مجرد شكل، وأنه لن يُنادى باسمه، لأنه لم يختره. فجلس عند الجذر، وبدأ يصوغ من الطين تمثالًا جديدًا، لا ليعبده، بل ليكسره حين يأتي المطر.

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد التماثيل تهرب من الماء، بل تنتظره، لأن الذوبان، وإن كان موتًا، هو أول الطريق نحو الحياة.

كتماثيلٍ من طينٍ جافٍ كنّا - هكذا صَنَع الآباء الافتتاحية ترسم الهوية: نحن تماثيل، لا بشر. والطين الجافّ يوحي بالهشاشة والجمود. "هكذا صنع الآباء" ليست فقط إشارة إلى الوراثة، بل إلى المسؤولية التاريخية: الآباء لم يورثونا الحياة، بل القالب، الشكل، الخوف.

نخافُ الأنهار، نخافُ الماء، نخافُ عبورَ الأنهار

التكرار هنا ليس ضعفًا بل طقسًا. الماء، الذي يُفترض أن يكون رمزًا للخصب، يتحول إلى تهديد. الخوف من العبور هو خوف من التغيير، من التحول، من الانكشاف.

ماءٌ يُميتُ تماثيلَنا، فنَهربُ إلى حيثُ الصحراء

الماء يذيب الطين، أي يذيب الكينونة. الهروب إلى الصحراء هو هروب إلى الفراغ، إلى الجفاف، إلى حيث لا خطر على الشكل، لكن لا حياة أيضًا.

الماءُ الجافُّ وسيلتُنا في تنظيفِ أجسامِنا من الموبقات

مفارقة فلسفية: نغتسل بما لا يغسل. نطهر أنفسنا بالوهم، بالرمز، لا بالفعل. هذا البيت يكشف عن طقس التطهير الزائف في المجتمعات التي تخاف الحقيقة.

حيثُ تكونُ الأكاذيبُ وردةً في عروةِ السترة، والمعاطفُ محاولةٌ لإخفاءِ العُري

البيت مزدوج الرمزية: الأكاذيب تُزيَّن وتُعلَّق كما الورود، والمعاطف لا تدفئ بل تخفي. إنه نقد للزيف الاجتماعي، للتمثيل، للواجهة.

من علّمَ الأمطارَ ألّا تُلقي علينا بركاتِها؟ فنمتلئُ بالرعب

سؤال وجودي: لماذا خسرنا البركة؟ لماذا صار المطر لعنة؟ البيت يطرح فكرة أن البركة لا تُمنح لمن لا يستحق، أو لمن فقد القدرة على التلقي.

طينٌ هشٌّ، حيثُ النفقُ نجدُ قيامتَنا، نتجمّعُ بهدوءٍ لنُحافظَ على أطرافِنا السائبة

النفق هنا هو الموت، أو التحول. "قيامَتنا" ليست خلاصًا بل تجمعًا دفاعيًا. الأطراف

السائبة ترمز إلى التفكك، إلى فقدان التماسك الجسدي والروحي.
جماجمُنا الجميلةُ التقاطيع، بأقنعتِها، وقبّعاتِها، من غيرِ أجسامِنا، تتجوّلُ وسطَ نهارٍ جافٍّ، من دونِ حوار
صورة سريالية: جماجم تتجول بلا أجساد، بلا كلام. إنها رمزية للانفصال بين الفكر والجسد، بين الشكل والمضمون، بين الوجود والتواصل.
وعندَ المساءِ نستقبلُ رؤوسَ زملاءَ لنا، فنبدو على غيرِ هيئاتِنا
التحول مستمر. الرؤوس تُستبدل، والهيئات تتغير. لا ثبات، لا هوية. المساء هنا ليس نهاية اليوم، بل لحظة التبدل، لحظة التقمص.
يملؤُنا الرضا أو الامتعاض، الصمتُ أو العربدة، لا خيارَ لتماثيلَ من طين، لا مشتركاتٍ الانفعالات تأتي من الخارج، لا من الداخل. التماثيل لا تختار، بل تُلبَّس. لا مشتركات، لا روابط، لا ذات سوى الرعبِ الذي نجدُ أنفسَنا وسطَهُ لحظةَ هبوطِ الأمطار، أو فيضانِ الجداول، أو العبورِ الجماعيِّ للجسرِ الوحيدِ نحوَ الضفّةِ التي تُهدِّدُنا بالغدرانِ والمستنقعات
الرعب هو القاسم المشترك الوحيد. الجسر الوحيد يوحي بانعدام البدائل، والضفة الأخرى ليست خلاصًا بل تهديدًا. إنها صورة للعبور الجماعي نحو مجهول، نحو الفناء.
الآباءُ يُعاينون أبناءَهم الذين لم يُحسنوا صِياغتَهم، أبناءٌ يذوبون كما التماثيلُ المصنوعةُ من الطين
نقد حاد: الآباء مسؤولون عن الصياغة، لكنهم يراقبون الذوبان دون تدخل. الأبناء ليسوا فاشلين، بل ضحايا صياغة فاشلة.
ماءٌ أحمرُ كالدّم، يسيلُ نحوَ المنحدرات
التحول من ماء إلى دم هو ذروة الرمزية: المطر صار نزيفًا، والمنحدرات هي النهاية، السقوط، الانحدار الأخلاقي أو الوجودي.
نتجمّعُ عندَ أقدامِ الأشجار، لا أحدَ يُنادينا بأسمائنا، نبحثُ عَن آبائنا الأوّلين، فنجدُهم من حجارة
العودة إلى الأصل، إلى الجذور، لا تمنح دفئًا. الآباء الأولون صاروا حجارة، صلابة بلا حياة، رموز بلا حنان.
من استنجدَ بهم ليكونوا آباءً مارقين، ولنكن نحنُ - تماثيلَ الطين - أبناءً غيرَ بررة
الختام يعترف بالخيانة المتبادلة: الآباء مارقون، والأبناء غير بررة. لا أحد بريء، ولا أحد مكتمل. إنها نهاية مفتوحة على الاعتراف، لا على الحل.

تماثيل

حميد حسن جعفر

كتماثيلٍ من طينٍ جافٍّ كنّا - هكذا صَنَع الآباء،
نخافُ الأنهار، نخافُ الماء، نخافُ عبورَ الأنهار.
ماءٌ يُميتُ تماثيلَنا، فنَهربُ إلى حيثُ الصحراء،
الماءُ الجافُّ وسيلتُنا في تنظيفِ أجسامِنا من الموبقات،
حيثُ تكونُ الأكاذيبُ وردةً في عروةِ السترة،
والمعاطفُ محاولةٌ لإخفاءِ العُري.
من علّمَ الأمطارَ ألّا تُلقي علينا بركاتِها؟
فنمتلئُ بالرعب،
طينٌ هشٌّ، حيثُ النفقُ نجدُ قيامتَنا،
نتجمّعُ بهدوءٍ لنُحافظَ على أطرافِنا السائبة.
جماجمُنا الجميلةُ التقاطيع، بأقنعتِها، وقبّعاتِها،
من غيرِ أجسامِنا، تتجوّلُ وسطَ نهارٍ جافٍّ،
من دونِ حوار.
وعندَ المساءِ نستقبلُ رؤوسَ زملاءَ لنا، فنبدو
على غيرِ هيئاتِنا،
يملؤُنا الرضا أو الامتعاض، الصمتُ أو العربدة،
لا خيارَ لتماثيلَ من طينٍ، ولا مشتركاتٍ،
سوى الرعبِ الذي نجدُ أنفسَنا وسطَهُ لحظةَ هبوطِ الأمطار،
أو فيضانِ الجداول، أو العبورِ الجماعيِّ للجسرِ الوحيدِ
نحوَ الضفّةِ التي تُهدّدُنا بالغدرانِ والمستنقعات.
الآباءُ يُعاينون أبناءَهم الذين لم يُحسنوا صِياغتَهم،
أبناءٌ يذوبون كما التماثيلُ المصنوعةُ من الطين،
ماءٌ أحمرُ كالدّم، يسيلُ نحوَ المنحدرات.
نتجمّعُ عندَ أقدامِ الأشجار،
لا أحدَ يُنادينا بأسمائنا، نبحثُ عن آبائنا الأوّلين،
فنجدُهم من حجارة.
من استنجدَ بهم ليكونوا آباءً مارقين،
ولنكن نحنُ - تماثيلَ الطين - أبناءً غيرَ بررة.

سرديات النص
عند الكاتبة السويسرية إيريكا بيدريتي

د. بهاء محمود علوان

كان للنجاح النامي والواعد الذي حققته الكاتبة أريكا بيدرتي الأثر البالغ في التنامي المتزايد بالقصة القصيرة السويسرية، حيث ظهر كُتّاب كان لهم صدى كبير أمثال بول نيزون.
بول نيزون، حياته في مجموعتهِ القصصية (نهاية القصص في المنزل) والتي أصدرها في عام (1971)، كان نيزرون يعيدُ صياغة الحياة في الكتابة من جديد، في واقع يماثل الواقع الذي يعيشه. اما أعمال إريكا بيدريتي السردية فتحمل المعايير السائدة في كتابة أي نصٍ سردي، لكنها ليست شكلية.
فقد قامت بجمع القصص، بين عامي 1978 و1982، في كتاب وصفي غني بعنوان (الشروق والغروب) في عام (1984)، مشيرة إلى الاتجاه الذي تسير فيه قصتها، والذي يحاول الخروج من ضوء الحياة اليومية المعتاد.
إن رمزية (شروق الشمس وغروبها) هي أوقات الأزمات التي تشير إلى اضطرابات غير متوقعة، وتطلق أفكاراً مكبوتة وتعرض صوراً غامضة نادراً ما يثيرها النهار المشرق.
ووفقاً للنص السردي فإنها تحدد الزخارف المتطورة في مسار عمل القصص الفردية.
سواء كانت تروي تلك الرحلات التي لا تتم، ولا يكتب لها النجاح، او التي تثير/ التفكير، أو رحلات ونزهات لا تؤدي إلى الاتجاه

المقصود أو المرغوب فيه؛ قد تنقلنا سرديتها إلى مناطق تعدُ (مثيرة للرعب الصامت)؛ مثلما يموت سمك السلور مسجوناً في الأسر في حوض (داكن ذو خلفية فاتحة).
وتهيمن التجارب والمشاعر والأفكار المخزنة في اللغة؛ التي تصفها بطريقتها التي لا لبس فيها. ويقود هذا الوصف إلى شيء من الإدراك الفني؛ التقاط كل التفاصيل التي تساهم في تكوين الأفكار حول علاقة الإنسان بالعالم.
وعندما تستعرض اخر أعمالها وهي قصة (في مسرح الجريمة) تقول:
(بينما أجلس لكتابةِ قصة، فهذا يعني أنني أكتب حادثة واحدة وأتذكر الأخرى من دون أن أكتبها، أتذكرها فجأة بشكل واضح للغاية، تقريباً بالألوان، وبما أنني أعني حادثة حقيقية، وانظر إليها بمنظور سردي، حينها أبدأ في

التحدث أو الكتابة عنها، وهذا أمرٌ غايةٌ في التعقيد، أمر مرعب، سيكون لون الذاكرةُ عندي أحمرٌ قاتمْ).

فيما يكون لون الذاكرة أكثر أهمية من مسار العمل. فهو منسوج من الكلمات، ومخفي في شبكة الجمل، أهم من تمثيل الحقائق أو استخلاص الرموز. وتتطلب هذه العمليات الأدبية صبراً كافياً من القارئ، كما تتطلب استعداداً كبيراً من الكاتب لسرد القصة. وعلى القارئ أن يقرأ ما بين السطور بعناية، فتقول: ((عندما أكتب شيئاً أريد أن أبقيه هادئاً وأنساه؟ لقد قلت هذا من قبل، ربما عدة مرات. وقاله غيري أيضاً)).

تعتمد الكاتبة على تجاربها الخاصة، وتحاول، أو أن تحرر نفسها من ارتباكاتها. إن التحرر من كل ما تدركه هو العنصر الذي يربط قصص... وهي وسيلة الربط للنصوص التي تم إنشاؤها بشكل مستقل عن بعضها البعض. ومع ذلك، فإن القصص لا تشكل مجموعة عشوائية؛ وهذا دليل على الصرخة المميزة في داخل مكنونات الكاتبة. وهي لا تفضل المفهوم الكامل لطريقة التفكير المتمحورة حول الذات (الأنا) التي تحكي القصص وترويها بضمير (الأنا)، من دون وجه ملموس أو سيرة ذاتية ملموسة.

الراوية الوحيدة الموثوقة في تلقي تلك التصورات؛ تكون بمثابةِ مرآة، ربما تكون غائمة قليلاً بمشاعر المرء الخاصة و(مُغبرة شيئاً ما) حيث تنعكس فيها الوجوه الأخرى، والمناظر الطبيعية والألوان والموت في تشابكٍ غير متجانس، ولكنه لا يزال متشابهاً. الموت كحادث، والانتحار، كشبح يلوح في الأفق في الأحاديث التي تدور حول المرض، مختبئاً وسط كتل من الثلج وينبض بهدوء في السؤال الأساسي: (كم عدد غروبات الشمس؟) هناك تلميح إلى واقع عابر فقط، والانطباعات البصرية هي السائدة. هذه السذاجة السردية الطفيفة لا تزعج القارئ، ولكنها جزء من تلك الحقيقة الداخلية الملموسة. الشخصيات في مثل هذهِ القصص لها سمات مهرج بشكلٍ ما. وهنا يتوجب على القارئ أن يبتسم لهم، تماماً كما يبتسم المرء لنفسه في اللحظات السعيدة والجيدة في الحياة؛ في لحظات الحياة التي تبدو غير مهمة، عندما يجد المرء نفسه أسيراً ومستغرقاً في نشاط ما، ويكون بذلك مدفوعاً بالشوق إلى الأمام، وفي الوقت نفسه يعوقه العقل. لكن مثل هذا الملخص سيكون مبسطا وفظا للغاية في طرحهِ، حتى بطريقة غير مقبولة. لأن هذه النصوص لا تعيش في شخصياتها، بل في اللغة. إنهم يعيشون في جمل طويلة تتحرك للأمام. بشكل عام، هما شكلان مختلفان لذات الحالة التي تتحرك، ولكنهما تتقاطعان أيضاً. وفي بعض الأحيان تتخذ بعض الذكريات والرؤى على شكل وجه أو اسم.

في النص الأول المسمى (مغادرة)، المخصص أصلاً للتمثيل الصامت، (بيتر فيسبرود)، مستوحى من أحد مشاهده. ويتم تصميمه بحركة إيقاعية واحدة ومتدفقة بشكل فضفاض على مدى ست صفحات. ويتركز الاهتمام على شخصية الرجل الذي يستعد للمغادرة على رصيف القطار ومعه الكثير من الأمتعة، ربما إلى وجهة كبيرة. بالطبع لم يفوت القطار فقط، لكنه يفتقدها أيضاً.

((الطيور وباربرا تغرد عبثاً، لا أحد يراها وهي تفتح عينيها، ويداها وذراعاها ترفرف بجناحيها، وتمشي برشاقة صعودا وهبوطاً، وتحدق في الشمس الساطعة أو تومض في

وجهه، من لا يفعل ذلك؟ لاحظ أي شيء، والغيوم البيضاء تطارد بعضها البعض عبر السماء كما لو كانوا أطفالاً صغاراً ومغرورين)).

تندفع تيارات جديدة ومتجددة من الكلمات على القارئ، وإذا لم يتوقف بعد الفقرة الأولى، فإنه يضطر إلى مواصلة القراءة على مضض، بل في أفضل الأحوال، يشعر بالفضول تجاه المكان الذي من المفترض أن يقوده الحدث وما يتم تقديمه هنا على أنه لا شيء في طريق الملاحظة، مثل تفاصيل يومية صغيرة. الإجراء لا يؤدي إلى أي حجة على الإطلاق. فقط الرجل الذي يقف وينتظر ويعدل نفسه على رصيف محطة القطار يصبح هو الحالة المنشودة، وإشعال الأفكار غير القابلة للتصديق. في بداية القصة الأخيرة (كم غروب شمس آخر) تتحدث الراوية بضمير المتكلم، كما يفعل العديد من الكُتّاب الآخرين، أرادت أن تنقل منظراً طبيعياً لشتاء إنجادين مع تساقط الثلوج. تذكرنا القصة بكارثة ثلجية، ولكن مع الاعتراف الكامل والمثير للسخرية بأنها في الواقع لا تستطيع فعل ذلك:

((كنت على وشك وصف الطبيعة، كما يفعل جميع الشعراء، وليس الشباب فقط، ولكي ألتقط بدقة ظلال اللون الأبيض وتساقط الثلوج وما يكاد يحجبه، نظرت (وفي هذا أظهرت جرأة أكثر من معظم) في الشيء نفسه، وهو المناظر الطبيعية الجبلية العالية المغطاة بسحب الثلج خارج النافذة. وبالطبع لم أتمكن من الاستمرار في الكتابة بعد ذلك. ضع دفتر الملاحظات جانبًا واستمر في قراءة (أورلاندو). الأبيض في الطبيعة يختلف عن الأبيض في الأدب))

إن الانعكاسات على اللون الأبيض توضح الكثير عن الفرق بين الحياة والكتابة. وقد لا يبدو أن أوصاف صبغات اللون الأبيض تعمل. ومع ذلك، فإن الأفكار المعبر عنها حول اللون غير المفهوم تحتوي على وضوح أكبر من الوصف الذاتي. إنهم لا يتحدثون فقط عن إمكانية التصوير، ولكن أيضاً عن الشكل نفسه، اللون الأبيض للمناظر الطبيعية. في تطور الرواية يطورُ الحدثُ أيضاً بشكلٍ بسيط وملحوظ، حيثُ تحتوي على بعض عناصر السيرة الذاتية. في الشتاء، تستقل الراوية القطار إلى إنجادين، مكان إقامتها السابق. بعد عامين أو ثلاثة أعوام، تعود إلى الأماكن المألوفة وتتعرف بشكل متكرر على الأشياء المألوفة التي لا يراها الآخرون الآن، أثناء رحلة القطار. فقط في بلدها تلغي الأفكار الأشياء المرئية، وكل ذكرى مرتبطة بالماضي تكتسب مظهراً ملموساً وحاضراً. بعد ذلك يستطيع الراوي بضمير المتكلم، وهو جالس على شاطئ بحيرة بيال، حيث كُتبت القصة المغطاة بالثلوج، أن يرى صناديق الزهور المتفتحة على نطاق واسع المليئة بنباتات البغونية والبتونيا التي تزين سطح محطة القطار في إنجادين.

المصدر:

كتاب ريتش - رانيكي، مارسيل (1978): لا وقت للقصص القصيرة. في رسالة الثقافة، ج2.

القسوة في "القط الأسود" لأدغار آلان بو

كتابة : باتريك ليموان وصوفي فيجييه-فانسون
ترجمة: كامل عويد العامري *

هذه القصة للكاتب الأمريكي إدغار بو هي واحدة من أشهر القصص في مجموعة قصص غير عادية، حيث يتنافس الخارق للطبيعة مع السادية - المرض العقلي؟ - في لوحة قاتمة.

تزوجت في سنّ مبكرة، وقد أسعدني أن أجد في طباع زوجتي ما يشبه طباعي. وإذ لاحظتِ ولعي بالحيوانات المنزلية المُفضّلة، لم تترك مناسبة تمرّ من دون أن تقتني منها الأجناس الأكثر إمتاعاً وإيناساً. هكذا تجمّع لدينا طيور وأسماك ذهبية، وكلب جميل وأرانب وقرد صغير وقط.

كان هذا القط حيوانًا قويًا وجميلًا بشكل لافت للنظر، أسوداَ تماماَ، وعلى قدر عجيب من الذكاء، كانت زوجتي، التي كانت لا تخلو في أعماقها من ايمان بالخرافات، عند الحديث عن ذكائه تشير كثيرًا إلى المعتقد الشعبي القديم الذي يعد جميع القطط السود سحرة متنكرين. لا أنها كانت جادَّة حول هذه المسألة، وإنما لأنه خطر على بالي في هذه اللحظة.

كان بلوتو - وهذا هو أسم القط - حيواني المدلل وأنيسي المفضل. وكنت أنا الوحيد الذي أطعمه، وكان يلازمني حيثما تحركت في البيت. بل كنت أجد صعوبة لمنعه من اللحاق بي في الشوارع.

استمرت صداقتنا على هذا النحو سنوات

عديدة، وخلالها تغيرت شخصيتي ومزاجي، بسبب تأثير شيطان الإدمان - وأنا أخجل إذ أعترف بذلك- لتغيير جذري سيئ. أصبحت يوماً بعد يوم أكثر كآبةً، وأكثر عصبيةً، وأكثر لا مبالاةً بمشاعر الآخرين. سمحت لنفسي استخدام لغة قاسية مع زوجتي. ومع مرور الوقت، وصلت إلى حد ممارسة العنف الجسدي في التعامل معها. وبطبيعة الحال، فقد استشعر أحبائي المساكين هذا التغيير في مزاجي. . ولم أكتفِ بتجاهلهم، بل كنت أسيء معاملتهم أيضاً. أما بالنسبة لبلوتو، فقد كنت لا أزال أكن له ما يكفي من الاعتبار مما حال دون الإساءة إلى معاملته، في حين أنني لم أشعر بأي حرج في إساءة معاملة الأرانب والقرد وحتى الكلب، عندما كانوا يصادفونني في طريقي أو يقتربون مني بدافع الصداقة. لكن مرضي كان قد تغلب عليّ، وأي مرض

يمكن مقارنته بالكحول! ومع الأيام، حتى بلوتو نفسه، الذي كان قد كبر في السن وأصبح بطبيعة الحال كئيبًا إلى حد ما، بدأ يشعر بآثار مزاجي السيئ.

ذات ليلة، كنت عائداً إلى المنزل ثملًا تمامًا، بعد خروجي من أحد الملاهي الليلية المعتادة في الضواحي، تخيلت أن القط يتجنب حضوري. أمسكت به، لكنه، وقد أفزعته حركاتي العنيفة جرحني بأسنانه جرحاً طفيفاً. فجأة، استحوذ عليّ غضب شيطاني. لم أعد أعرف نفسي. وبدا أن روحي القديمة وكأنها تطير فجأة من جسدي، ويتسلل حقد شيطاني يغذيه المخدّر إلى كل نسيج من كياني. أخرجت من جيب سترتي، مطواة وفتحتها، وأمسكت الحيوان المسكين من رقبته، واقتلعت عامداً إحدى عينيه من محجرها!

انني أحمر خجلاً، وأحترق، وأرتعد وأنا أكتب هذه الفظاعة اللعينة!

عندما استعدت رشدي في الصباح - بعد أن تعافيت من دخان فجوري الليلي - شعرتُ بمزيج من الرعب والندم على الجريمة التي ارتكبتها؛ لكنه كان شعورًا ضعيفًا وغامضًا في أحسن الأحوال، لم تُعان الروح من آثاره. ومن جديد انغمستُ في الإفراط في الشراب، وسرعان ما أغرقت الخمرة كل ذكرى لفعلتي. ومع ذلك أخذ القط يتماثل للشفاء تدريجياً.

صحيح أنَّ محجر العين المفقودة كان يبدو مخيفاً، لكنه لم يعد يعاني منه. وعاد يتنقل في البيت كسابق عهده، غير أنه، كما هو متوقّع، كان يهرب وقد استبدَّ به الذعر كلما اقتربت منه. كان لا يزال لديَّ ما يكفي من القلب القديم لأشعر بالحزن إزاء هذه الكراهية الصارخة التي يبديها لي كائن أحبَّني ذات يوم. لكن ذلك الشعور ما لبث أن تبدّد ليحلّ محلّه الهياج، وعندئذٍ ظهرت روح الانحراف كعلامة لسقوطي الأخير الذي لا نهوض منه، هذه الروح لا تعيرها الفلسفة أي اهتمام. غير أنّي، ومع ذلك، وبقدر ما كانت روحي موجودة، أعتقد أن الشر هو أحد الدوافع البدائية في قلب الإنسان، أحد الملكات أو المشاعر الأولى غير القابلة للتجزئة التي توجه سلوك الإنسان. فمن منا لم يفاجئ نفسه مئات المرات وهو يقترف فعلًا أحمقًا أو دنيئًا، لمجرد أنه كان يعلم أنه لا يجب أن يرتكبه؟ أليس لدينا ميلاً دائمًا، رغم رجاحة حكمنا، إلى انتهاك ما يُعرف بالقانون، لمجرد أننا ندرك أنه قانون؟ هذا الروح الشرير، كما أقول، هي التي تسببت في انهياري النهائي. إنها تلك الرغبة الشديدة، التي لا يمكن فهمها، في أن تعذب الروح نفسها، وأن تنتهك طبيعتها، وأن ترتكب الشر من أجل الشر وحده، التي دفعتني إلى مواصلة تعذيب الحيوان الأعزل، وفي النهاية الإجهاز عليه الأعزل. ففي صباح أحد الأيام، وببرود أعصاب، عقدت أنشوطة حول عنقه، وعلقته بغصن شجرة؛ – شنقته والدموع تتدفق من عيني، – والندم الأشدّ مرارة يعتصر قلبي؛ – شنقته، لأنني كنت أعلم أنه كان يحبني، ولأنني كنت أشعر أنه لم يعطني أي سبب للغضب؛ – شنقته، لأنني كنت أعلم أنني بفعلتي هذه أرتكب خطيئة. – خطيئة مميتة ستعرض روحي الخالدة للهلاك الأبدي ، لدرجة أنها تضعها – إن كان ذلك ممكناً – حيث لا تبلغها رحمة أرحم الراحمين.

في الليلة التي أعقبت اليوم الذي ارتكبت فيه هذه الفعلة الوحشية، أيقظني من نومي

صراخ "حريق!". كانت ستائر سريري مشتعلة. وكان المنزل بأكمله يحترق.
في اليوم الذي أعقب الحريق ذهبت أزور الأنقاض. كانت الجدران جميعها قد تهاوت باستثناء جدار واحد. هذا الجدار الذي نجا بمفرده لم يكن سميكاً لأنه جدار داخلي يفصل بين الحجرات ويقع في وسط البيت، وإليه كان يستند سريري من جهة الرأس.
وقد صمد طلاء هذا الجدار وتجصيصه أمام فعل النيران - وهو أمر عزوته إلى كون التجصيص حديثاً. أمام هذا الجدار كان يتجمهر حشد من الناس، وبدا أن عدداً كبيراً منهم يتفحص جانباً مخصوصاً منه باهتمام شديد. فحرَّكت فضولي تعابير تصدر عن هذا الحشد من نوع "عجيب"!
"غريب!"، دنوت، لأرى رسماً على الدار الأبيض كأنه حفر نافر يمثل قطا عملاقاً. كان الحفر مدهشاً بدقته ووضوحه، وبدا حبل يلتف حول عنق الحيوان.
كنت اقترب، فرأيت، مثل نقش بارز منحوتاً على الجدار الأبيض، يمثل صورة قط عملاق. كانت الصورة دقيقة بشكل مذهل. وكان هناك حبل يلتفّ حول عنق الحيوان.
(إدغار آلان بو. ترجمها إلى الفرنسية شارل بودلير، 1884.)
بعد الحريق، يعثر الراوي على قطّ جديد يشبه قطّه الأول إلى حدّ مريب – حتى في العين المفقودة. وذات يوم، إذ يتعثّر بالحيوان عند نزوله السُّلّم، يهوي على الأرض. يستشيط غضبًا، فيرفع فأسًا ليقتله، لكنه يشقّ جمجمة زوجته بدلًا من ذلك. يُخفي الجثة بأن يحجرها في قبو البيت، غير مدرك أنّه حَجر معها القطّ أيضًا، وهو الذي سيفضحه مواءه لاحقًا أمام رجال الشرطة.

غواية الشرّ

(القطّ الأسود) قصة «غامضة جدًا ومألوفة للغاية في آنٍ معًا» لإدغار آلان بو، نُشرت لأوّل مرّة عام 1843 في صحيفة Saturday Evening Post في فيلادلفيا، وما تزال تُقرأ بشغف حتى اليوم. صدرت في طبعات موجّهة لليافعين، ودُرست على نحوٍ تقليدي في المدارس الإعدادية، من دون أيّ تنبيه، مما أدى إلى إثارة قلق أجيال من القراء.. تصدم القارئ بمشهد تعذيبٍ وتشويه حيوان محبوب على نحو لا يُحتمل، وهو ما يثير الاستياء على نحو أشدّ في ايامنا. وتثير القلق بعودة الطيف الانتقامي لذلك الحيوان الوفيّ، عودةٌ تستمر حتى بعد المقتطف المقترح، إذ يظهر توأمٌ لقطّ «بلوتو» يسعى للثأر، مما يربك القارئ أخيرًا بالكشف عن كلّ ما في نفس الراوي من عتمة وظلمات.
لا شيء يُستثنى في هذه الدراما النفسية العجائبية التي تثير الفزع والشعور بالذنب في آن واحد. فبعد كلّ شيء، ألسنا نحن ذلك «القارئ المنافق»، ذلك «الشبيه»، ذلك «الأخ» كما في قصيدة " أزهار الشر" لبودلير، أشهر مترجمي بو؟
إن استخدام ضمير المتكلّم المفرد يخلق منذ البداية لعبة مرايا مع القارئ، فيُجبره على ملاحقة الراوي الذي يجرّه من دون أيّ مسافة فاصلة إلى أعماق انحرافاته الداخلية، كي يجعله يتقاسم معه نزواته، وندمه، ومخاوفه. إنّه يمرّرنا عبر كلّ التناقضات القصوى: من رقة الطفولة وسعادة الحياة الزوجية المثالية، إلى أدنى درجات الجحيم المنزلي الذي يفرضه على زوجته وحيواناته. كلّ شيء هنا مُضخَّم إلى حدّ الهَوَس: فالقطّ الشهير هو أوّلًا الرفيق النموذجي من «ألطف الأنواع»،

ذو «فطنة مدهشة»، «قويّ وجميل»، قبل أن تُفقأ عينه ويغدو مرعبًا، ثم يحلّ محلّه قطّ ثانٍ مسخٌ، شبيهه وظلّه. وسرعان ما يُصاب السيّد بنوبة «شرٍّ شيطانيّ فائق، مشبع بالشراب»، ويأخذ النصّ إيقاعه من دينامية فيض شعوريّ، من التعاطف والحنان، ثم من عنفٍ يبعث على الغثيان.

وهكذا، فإن القصة مكتوبة بأسلوب تحت تأثير توتر دائم بإيقاع متقطع بسبب كثرة الجمل الاعتراضية المحصورة بين الشرطين وبفعل لعبة التناقضات المستمرة: بين تفاهة قصة قط (كما لو أنّ الكاتب يعتذر عنها) وبين صورة الحيوان المشنوق الاستثنائية، المطبوعة على الجدار المتفحّم، ثم صورة شبيهه المدفون مع الزوجة القتيلة، والذي يكشف عن المجرم بموائه في نهاية القصة. ويتأرجح النص بين التحليل العقلاني والاعتراف الواعي وتبرير الأفعال بوصفها نتيجة طبيعية لتأثير الكحول من ناحية؛ والجنون من ناحية أخرى، ذلك الجنون الذي يبدو تشخيصه مؤكّدًا تمامًا بقدر ما يسعى السارد إلى نفيه بارتباك منذ السطور الأولى (" ومع ذلك، أنا لست مجنونًا، وبالتأكيد أنا لا أحلم..."). في هذا الخلل النفسي، يظهر اللاعقلاني والخارق للطبيعة، مع ظهور القط الشبحي والإشارات إلى الاستحواذ الشيطاني، الموضحة بمفردات غنية بمجازات الجحيم والسقوط. إنّه راوٍ غير موثوق يربكنا بعنف، ويقوض مسلّماتنا ويستنزف كلّ الحِيَل الممكنة ليُضلّنا على نحوٍ أمضّ.

تأخذ القصة أيضًا طابعًا قوطيًا مع ظهور الأطلال - وهو عنصر كلاسيكي في هذا النوع الأدبي - بعد الحريق، وهو ما يضاعف البعد العجائبي من خلال ارتسام ظل القط المشنوق على بقايا هيكل المنزل. ولكن إذا كان بو ينتمي إلى هذا النمط الجمالي، فإنه يمنحه قراءة شخصية أكثر مجازية ونفسية، حيث يمكن أن يكون الشر نتيجة للتدمير الذاتي وصورة لشخصية الراوي المتدهورة، التي تطاردها "روح الشر"، كما يفسر:

"لقد شنقتها، لأنني كنت أعلم أنني بفعلتي هذه أرتكب خطيئة". وهنا يقدم بو وصفًا أوليًا لهذا الدافع الذي يصفه بأنه إغراء مجاني للشر، متأصل في الكائن البشري، مثل قدر نفسي. ويشرح ذلك بمزيد من التفصيل في نص لاحق، بين المقالة والرواية القصيرة، بعنوان "شيطان الانحراف" (1845): "كان الاستقراء اللاحق سيقود علم فراسة الدماغ إلى الاعتراف بمبدأ بدائي وفطري للسلوك البشري، وهو شيء ما متناقض سنسميه الانحراف، لعدم وجود مصطلح أكثر دقة. بالمعنى الذي أعطيه له، وهو في الواقع دافع بلا سبب، وسبب بلا دافع. تحت تأثيره، نتصرف من دون هدف مفهوم؛ أو، إذا بدا ذلك متناقضًا في العبارات، يمكننا تعديل الجملة لنقول إننا، تحت تأثيره، نتصرف لسبب أننا لا ينبغي أن نتصرف من أجله. من الناحية النظرية، لا يمكن أن يكون هناك سبب أكثر لا منطقية؛ ولكن في الواقع، لا يوجد سبب أقوى منه.

يبدو أن هذا الشيطان الداخلي يعبر عن نفسه هنا من خلال التعبير عن السادية والماسوشية، وهما دافعان متكاملان يدفعان إلى ارتكاب الجريمة بشكل لا يقاوم، وعينان تمتلئان بالدموع، في المتعة والألم. "يحرص القتلة عند بو، وهم نصف مجانين على إيذاء ضحاياهم وقتلهم بوحشية شيطانية. ثم، بعد ارتكاب جريمتهم، يستسلمون لما

يسميه بو "حب القلب لعذابه"، أو بعبارة أخرى ماسوشيتهم الغريزية، فيعترفون علناً بارتكاب الجريمة ليتلقوا عقابهم والمهم بدورهم"، كما يوضح المتخصص في الأدب الأمريكي روجر أسيلينو[1]. في الواقع، لا يتوقف الراوي القاتل عن استدراج الشرطة إلى مسرح الجريمة في القبو، كشكل من أشكال التحدي، إلى درجة سرعان ما يخونه مواء القط الحبيس مع زوجته القتيلة.

على الرغم من أن الكلام يتجسد في تجربة الراوي الخاصة، إلا أن بو يقدم تحليلاً متجرداً ومتطوراً بما يكفي ليقترب من العالمية. وهذا ما يزيد من قلق القارئ الذي قد يتعرف على بعض الدوافع المماثلة، حتى لو كانت مدفونة في أعماقه ومسيطر عليها في أغلب الأحيان فضلا عن أنه يُخاطب القارئ مباشرةً ويُواجه ذاته الخفية: "فمن منا لم يفاجئ نفسه مئات المرات وهو يرتكب فعلاً غبيًا أو دنيئًا، لمجرد أنه كان يعلم أنه لا ينبغي ارتكابه.. أليس لدينا ميل دائم...؟" كم من الأطفال ارتكبوا فعلاً قطع أرجل العنكبوت، أو إشعال النار في عش النمل، أو تشريح سمكة ذهبية بدافع الفضول المرضي؟ إن الغالبية العظمى تتوقف عند هذا الحد، ولكن ربما يبقى شيء ما، في حين أن آخرين يذهبون إلى أبعد من ذلك بكثير...

إلّا إذا كان الأمر اعترافًا بشياطين الكاتب نفسه. فمن هو بو يا ترى؟ لا ينبغي الخلط بينه وبين رواة قصصه المتعدّدين – أولئك المعذَّبين والجلادين على حد سواء – على خلاف ما فعله بودلير أحيانًا، غير أنّ حياة بو كانت مثقلة بالمآسي: بفقدان والديه في طفولته المبكرة، ثمّ شقيقه الأكبر الذي هلكه الشراب، وبعده زوجته الشابة. كلّ ذلك كفيل بأن يُغذّي افتتانًا بالموت، ولا سيّما موت النساء، اللواتي يشكّلن الضحايا الرئيسة في معظم قصصه؛ وهو ما دفع المحلّلة النفسية ماري بونابرت إلى رؤية حضورٍ طاغٍ لصورة الأم الراحلة والتوهم حول الإخصاء — سواء كان ذلك صوابًا أم خطأً. ويبدو أنّ الكحول أيضًا أحد أسوأ شياطين بو، وهو التشابه الرئيسي مع راوي قصة «القطّ الأسود»، بل وربّما كان وراء التعجيل بموته. غير أنّ رحيله المبكّر، في سنّ الأربعين، لا يزال يكتنفه الغموض، كما أنّ مسألة إدمانه المزعوم على الكحول لا يزال موضع جدل لا ينتهي.

يبقى نوع من الخوف العميق، الغريزي، أو الجوهري لا يمكن تفسيره بسهولة إلا من خلال حياةٍ تتخللها الصدمات، ولكنه قد ينبع أيضا من أعماق النفس البشرية. وقد اشار بو إلى هذا الخيط المشترك في مقدمة كتابة" حكايات الغروتسك والعربِيسْك " (العنوان الأصلي لسلسلة قصص إدغار آلان بو القصيرة): "إذا كان الرعب هو الموضوع الرئيس في العديد من أعمالي، فإنني أؤكد أن هذا الرعب ليس ألمانيا، بل هو رعب الروح - وأنني استنبطتُ هذا الرعب من مصادره الشرعية وحدها، ولم ادفعه إلاّ إلى نتائجه الشرعية الوحيدة." إنه رعب الروح الذي يتعذى على كل ما يسيطر عليها: الكيمياء، وعذاب المشاعر، كالذي تُسببه شياطين العالم الآخر".

وبالتالي يمكن أن نضع إدغار آلان بو على الحدود الفاصلة بين الرؤية الشيطانية القديمة و الروح وقراءة الطب النفسي المستقبلي التي كانت قيد الإعداد، كما يشير جوسلين دوبونت، أستاذ الدراسات الأمريكية في جامعة بربينيان: «قبل ظهور الطب النفسي

"الحديث" (ظهرت كلمته لأول مرة في اللغة الإنجليزية الأمريكية في عام 1846، أي بعد ثلاث سنوات من نشر قصة بو القصيرة) والاعتراف بالطبيعة المرضية للاضطرابات العقلية، كان الاستحواذ الشيطاني هو الذي كان يُستحضر في بداية القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة لتفسير "الذهان" الذي لم يكن له اسم. ومن المثير للاهتمام أن أول معالجة لـ "الطب النفسي"، التي كتبها الأب المؤسس بنجامين راش في الولايات المتحدة عام 1820، والتي من المرجح أن بو قد قرأها، لا تزال تحمل آثارًا لمثل هذه المعتقدات[2].

يلاحظ الأكاديمي الإشارات المتعددة إلى السحر... وإلى الساحرة التي قد تجسدها زوجة الراوي المتحفظة للغاية. هذه الزوجة لا تترك فرصة إلا وذكّرت بالطبيعة الشريرة لجميع القطط السوداء وفقًا لـ "المعتقدات الشعبية"، لا أن تترك ملاحظة رسم الحبل الأبيض على فراء القط الأسود الثاني. كما إن الراوي تطارده كوابيس تستحضر السعالي التي تتغذى على طاقته الحيوية. وفي النهاية، تكون زوجته هي التي تتلقى ضربة الفأس - التي ربما تكون ملائمة ومناسبة للراوي والذي كانت موجهة في الأصل إلى الحيوان المسكين، في حركة انزلاقية، كما لو كانت قد انحرفت بسبب عدم الدقة. كما ان التقارب الصوتي بين الكلمتين الإنجليزيتين axis "محور" وaxe "فأس". بالنسبة لجوسلين دوبونت.

"هذه القصة هي قصة الساحرة أكثر منها قصة القط الأسود، الساحرة التي يمثل الحيوان مجازًا واضحًا لها. وبذلك، يوهم بو قارئه، بحدوث خلل عاطفيً بين الإنسان والحيوان الأليف، ولكن بعد التفكير، ربما يكون الأمر يتعلق بنوع آخر من الخلل المنزلي"

ويضيف الأكاديمي أن قصة "القط الأسود" هي بالتأكيد" قصة على حافة الخيال حيث يتجاور الجنون والهوس والانحراف والوجود الشيطاني في منزل واحد". وإذا كان مفهوم" الانحراف" نفسه عند بو موضع نقاش اليوم، بسبب الترجمة التقريبية لكلمة [الانحراف القسري] perverseness، فإنه يترشح من جميع جوانب هذا النص، كما عرّفه المؤلف، وبغض النظر عن الضحية. إنه يثير رعبنا بحق، ونحن نحذر أنفسنا... من أنفسنا

تشخيص الطبيب النفسي: هل هذه حقا سادية؟

إن قراءة هذا النص لإدغار بو تستدعي طرح السؤال التالي مباشرة: عندما فقأ الراوي عين القط المسكين، هل كان يتصرف كطفل يستمتع بنتف أجنحة ذبابة أو سيقان نملة، بقطع دبور إلى نصفين ليتأمل الجزء الأمامي من الحيوان الذي لا يزال قادراً على البقاء حياً، بينما تظل ابرة اللسع في الجزء الخلفي تشكل تهديدا بالخطر؟

الجواب هو كلا. الأطفال الذين ضبطتهم متلبسين بتعذيب الحيوانات لم تكن لديهم ذرة واحدة من الشعور بأي ذنب. كانوا ببساطة فضوليين ويقومون بملاحظات، بطريقة شبه علمية بمعنى ما، من دون أن يتساءلوا للحظة عن معاناة ضحاياهم. إدغار بو هو النقيض تماماً. كان نصه بأكمله مغمور بمشاعر الخزي والرعب والذنب، باختصار، تجاه سلوكه البغيض.

هذه الملاحظة تكفي لتأكيد أن الراوي ليس منحرفاً (pervers)، لأنه، بحسب التعريف،

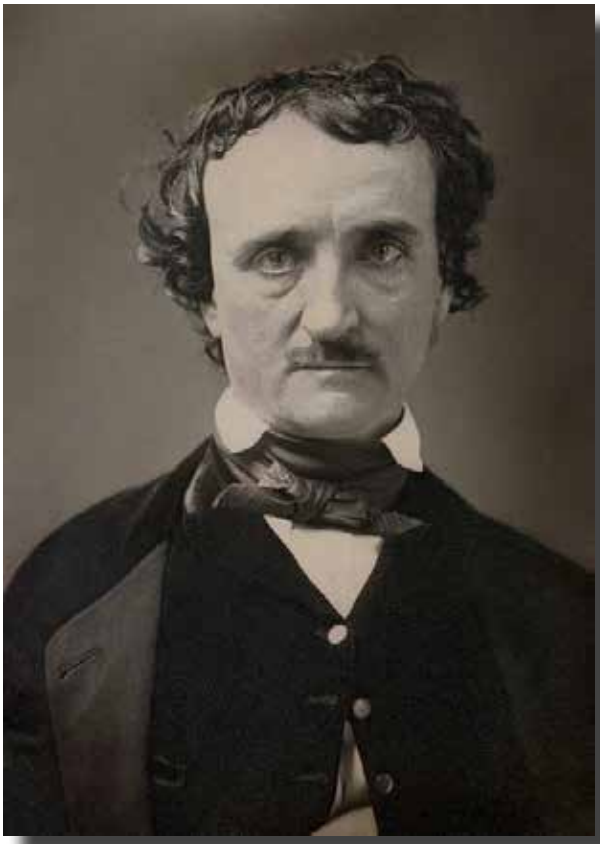

فإن المنحرف يلقى ذنبه على الآخر (يسقط إحساسه بالذنب على الطرف الآخر)، وعبارته النموذجية في محكمة الجنايات تكون: "لقد اغتصبتها بالتأكيد، لكنها هي من جلبت ذلك لنفسها، هذه العاهرة! هي التي أغوتني. ومثال على ذلك " عندما رد فلاديمير بوتين، على جو بايدن مازحاً والذي وصفه بالقاتل قائلاً: " من يقول ذلك هو القاتل "، يقدم دليلاً ساطعاً على انحرافه وكان بلزاك قد فهم الآلية جيداً عندما قال: "الضمير هو إحدى تلك العصي التي يستخدمها كل شخص ليضرب بها جاره، ولا يستخدمها أبداً لخدمة جاره"..."

في قصة "القط الأسود" على العكس من ذلك، لا توجد متعة سادية، بل يوجد الشعور بالعار! بل إنه يفيض. بمعنى آخر، إذا كان الراوي شخصًا شريرًا، وبالتالي ساديًا حسب المعنى الشائع، فإنه ليس كذلك بأي حال من الأحوال حسب التعريف النفسي.

إذن، ما الذي يعاني منه الراوي؟

بكل بساطة، نحن أمام مدمن كحول يقع فريسة حالة سُكر لا يكون فيها على طبيعته، بل يصبح خارجاً عن ذاته بمعنى في حالة

من النشوة المرضية. (غيبوبة مرضية). لم يعد قادراً على التحكم في أفعاله، ولم يستطع الحكم على سلوكه إلا بعد أن يستعيد وعيه ويعود إلى طبيعته.

لا بد من إلقاء نظرة على سيرته الذاتية. بدأت حياة إدغار بو تحت أثر نذير شؤم. وُلد في عام 1809، وتخلى والده ديفيد، وهو ممثل متواضع، عن عائلته في عام 1810. وبعد عام، توفيت والدته إليزابيث، وهي ممثلة كبيرة، بسبب مرض السل الذي كان يفتك بالناس في ذلك الوقت. يا لها من مصادفة غريبة!، فبعد وفاة والدة بو بفترة وجيزة، احترق المسرح الذي كانت تعيش فيه مع أطفالها الثلاثة... تمامًا مثل سرير الراوي في قصته القصيرة. أصيب شقيقه ويليام بالسل أيضًا، وأصبح مدمنًا على الكحول وتوفي في سن الرابعة والعشرين. أما أخته روزالي، فقد أصيبت في سن الثانية عشرة بالتهاب السحايا الذي تركها متخلفة عقليًا وجسديا "3". وتوفيت في سن الرابعة والستين في دار للمحتاجين.

ربما يفسر هذا الأمر، فقد دمر الإدمان على الكحول عائلة بو، ولا سيما الكاتب. عندما كان في الأربعين من عمره، عُثر على إدغار وكان مخموراً مهملاً، ممداً في حانة. نُقل إلى مستشفى واشنطن كوليدج حيث أدخل وهو في حالة من التناوب بين الوعي (غير المترابط) واللاوعي، وانتهى به الأمر إلى الموت. لا تُعرف الأسباب الرسمية لوفاته، لكنني على استعداد للمراهنة على أنه أصيب، بسبب إدمانه على الشرب، باعتلال دماغي كحولي، وهو مرض لا يزال قاتلاً حتى اليوم. لم ترحمه فترات الهلوسة والهذيان والضعف الإدراكي. كان إدغار بو نفسه على دراية بذلك إلى حد ما – أو ربما كان قد قرأ كتبًا في الطب – لأن نهاية نصه تعطي صورة نموذجية إلى حد ما لهذا النوع من الأمراض، مع احتراق سريره ثم منزله وظهور صورة جريمته، قط اسود مع حبل. أعتذر عن هذا النثر غير الرومانسي، ولكن مرة أخرى، أراهن أن السرير المحترق وصورة القط على الحائط ما هما إلا هلوسات، أو بالأحرى باريدوليا 4" Paréidolies" في هذه الحالة، ناتجة عن دماغ دمره الكحول.

مثلما كتب غي دو موباسان رواية "لو هورلا" وهو يعاني من التهاب الدماغ الزهري، يصف إدغار آلان بو في هذا النص الذي كتبه عام 1843، قبل ست سنوات من وفاته، التهاب الدماغ الكحولي الذي ربما تسبب في وفاته عن عمر 40 عامًا.

الوصفة الطبية:

منذ لحظة تشخيص الإدمان المزمن والشديد على الكحول، يجري تحديد العلاج على نحو شبه تلقائي.

- في البداية، ونظراً للأضرار التي تسبب بها الكحول في دماغ المؤلف/الراوي (نحن في حيرة من أمرنا!) وربما في كبده، فإن الأولوية هي تحقيق التوقف الكامل عن الكحول وعلى نحو دائم قدر الإمكان. هذه هي فرصته الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. يجب التوقف عن تناول الكحول في المستشفى لتجنب ظهور الهذيان الارتعاشي، وهو أمر يجب الحذر منه دائماً.. ويشمل ذلك إعادة الترطيب والتشبع بمادة من البنزوديازيبين مثل الفاليوم. وهذا أحد الاستخدامات القليلة المتبقية لهذه الجزيئات "السيئة" (ذات الآثار الجانبية).

- بمجرد التخلص من الإدمان، يجب وضع خطة لإقامة المريض لأطول مدة ممكنة في مركز للعلاج اللاحق مع برامج العلاجية المعرفي والسلوكي.

أخيرًا، بمجرد خروجه من المؤسسة العلاجية، إذا لم يكن الدماغ متضررًا بشكل كبير، فمن المناسب مواصلة العلاج النفسي واقتراح على المريض الانضمام إلى مجموعة من مثل (مجموعة مدمني الكحول المجهولين).

إذا رفض كل شيء، فسيطرح السؤال حول إجباره على دخول المستشفى عن طريق الاحتجاز (SPDT: الرعاية نفسية بناءً على طلب طرف ثالث).

نادرًا ما يطبق هذا الحل في هذا النوع من السياقات، على الرغم من أن الشخص المعني، وفقًا لأحكام القانون، يشكل خطرًا على نفسه أو على طرف ثالث. ولكن فيما يتعلق به (بالراوي/بو)، أعتقد أنني سأفكر في ذلك بجدية.

الهوامش

1. روجيه أسلينو، «مقدّمة»، في: إدغار آلن بو، قصص غير عاديّة جديدة، منشورات فلاماريون، سلسلة «غارنييه-فلاماريون»، 1965.
2. جوسلان دوبون، «السرد المنحرف: قراءة جديدة لـ "القطّ الأسود" لإدغار بو»، مجلة كروسوايز، 2019، المجلد 3، العدد 2.
3. مقالة «روزالي بو»، ويكيبيديا.
4. ظاهرة نفسية تنطوي على مُحفِّز (بصري أو سمعي) غامض وغير محدَّد، يُدرَك بدرجات متفاوتة بوصفه قابلاً للتعرّف، وتتمثّل في التعرف إلى شكل مألوف داخل دخان، أو بقعة حبر... أليس الجميع يتسلّى بمحاولة تخمين الأشكال في الغيوم؟

عن كتاب: صحة الكتاب النفسية وصحة شخصياتهم
*** رئيس تحرير مجلة الثقافة الأجنبية - بغداد**

مطبوعات وصلتنا

• إبراهيم المشهداني، دور الحزب الشيوعي العراقي في النضال الوطني والطبقي في العهد الملكي، دار الرواد المزدهرة، بغداد، ط1، 2025.
• داود سلمان الشويلي، الجنس في الرواية العراقية، دار المتن، بغداد، 2025
• روبرت ل بارك، الخرافة والايمان في عصر العلم، ترجمة: حيدر عبد الواحد راشد، دار سطور، بغداد، 2025
• سيفي عطا، الوافد السيئ (رواية)، ترجمة: علي عبد الأمير صالح، الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق،2025
• عبد الرزاق دورنا، الجنة _(رواية)، ترجمة: عبد الخالق الزهيري، منشورات احمد المالكي، بغداد، 2025
• كريم العراقي، الشاكرية (رواية)، دار سطور، بغداد، 2025
• لؤي غائب صالح، أوراق شتى (قصص قصيرة)، دار ومنشورات كلكامش، بغداد، ط1، 2025.
• مجلة (الاديب الثقافية)، بابل-العراق، العدد 13، 2025.
• نضال القاضي، ادفن فراغ يدي وامضي (شعر)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2025
• ياس خضير البياتي، خطوط الزمن (سيرة ذاتية)، دار المتحدة، الشارقة، الامارات، 2025
• يمنى العيد، ارق الروح (سيرة ذاتية)، دار الآداب، بيروت، 2025